مكتب الصحافة الدولي

يقدم



للآنسة سنية قراعة

مكتب الثقافة الدولي

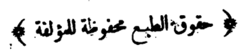
يقدم





مطبعة سعد مصر بالفجالة

أبريل ١٩٤٢





صورة المؤلفة الآنسة سنية قراعة

الإهداء

إلى الطفل يلهو ويلعب باحثاً عن . . . السعادة

إلى الطالب يكد ويجد يحدوه الأمل ويرسم له الطريق إلى . . . السعادة

إلى الفتاة وقد طاف بها الخيال إلى ما بعد اليوم تأمل وترجو . . . السعادة

إلى المحزون وقد عصف به الدهر يذرف الدمع ويشكو الزمن وقد ضلّ الطريق إلى . . . السعادة

إلى أولئك الذين أفنوا زهرات العمر النضرة وهم يبحثون عن . . . السعادة

إلى كل من أعياه البحث عن . . . السعادة

أهدى هذا القبس الضئيل من نورها الباهر عساه إذا ما طالعهم بضوئه القدسى . انتقل بهم إلى دنيا من الحنان والأمل ، وإذا ما داخل قلوبهم أعاد إليها فتوة الأمانى ونضارة الأحلام . . .

إليهم جميعاً أهدى . . .

البحث عن السعادة

ليكون للسعيد تسلية ، وللبائس سلوى

سنية قراعة



لم أستطع الخروج على تقاليد سنها أصحاب الأسماء الأدبية الضخمة وهم يتقدمون بنتاج أفكارهم إلى السوق الأدبى ، فجلست لأكتب كلمة أحسست بالحيرة عندما أردت تصويرها التصوير الحقيق ... كلمة لا أستطيع أن أسميها كلمة ، ولذا أقول عنها إنها « إحساس » .

لقد تجاسرت ونقلت من السعادة صوراً عديدة أرجو أن أكون قد وفقت فيها إلى الحد الذى يجعلنى أحس الرضاء التام عن هذا العمل الذى أقدمت عليه فى جرأة كانت تنقص الكثيرين من الرجال .

وأرى أنه من حقى إذن أن أترك لغة الكلام وأنتقل إلى حديث عاطفى عن هذا « الإحساس » الذى أريد أن أجعله عنوان مقالى هذا ، والذى أتمنى ألا يمر عليه القراء بعيونهم لمجرد القراءة وقتل الوقت . بل أرجو أن ينتقل من قلب لقلوب ومن روح لأرواح . . . إن هذا هو الخلود وهو كل ما أريد لهذه الحبات العزيزة التى اقتطفتها من روحى وسجلتها على هذه الأوراق .

إن الحديث عن السعادة هو أشهى حديث ، وتخيل صورها المتعددة هو أحب ما يمر بالأذهان . . . وأنا أحدثكم عن السعادة . . . أحدثكم عنها فى أماكن متعددة وبين طبقات متفاوتة . . . أحدثكم عنها ويشاركنى الحديث كتاب أفاضل أرى لزاماً علىّ أن أقوم هنا بشكرهم لإهتمامهم بمساعدتى « وقد عنيت بترتيب أسمائهم حسب الحروف الأبجدية » . . . كما أسجل فى ذات الوقت على الكثيرين ، ممن رجوتهم الأدلاء بآرائهم فتهربوا وتنصلوا ، تبعة الضعف واضطراب التفكير وعدم الإحساس بأن فى الحياة شيئاً اسمه «السعادة» . . . شيئاً لم يتذوقوه فأبوا الحديث عنه ولو حديثاً خيالياً . . . هذه

النفوس المريضة التى لا تقيم للتعاون الأدبى وزناً أطلعها فى هـذا الـكتاب ــ وأنا لست بالضنينة ــ على صور لإحساس أتمنى أن تتذوقه لتترك الحقد وحب الذات والأثرة التى تقتل القلب وتجعل صاحبه يتمنى لو يئد الجميع ليرتفع على أشلائهم إلى قمة المجد ! !

دعونا من هؤلاء ولنعد إلى الحـديث عن السعادة . . . فالسعادة خيال جميـل يقبل ويدبر ، فى اقباله يشع النور ، وفى أدباره يولد الألم . غير أن قلائل هم أولئك الذين يحتفظون بهذا الخيال . . . السعادة نغم عذب يترنم به كل من يتردى فى أودية الألم . . . ويردده من يسبح فى سماء الأمل . . . هى غادة تتمنى أحلامنا أن تلثمها والليل يترنم بأغانيه . . . وإنا لحسها فى عبير الوردة يتلألأ جمالها فى الروض كما يتلألأ القمر فى السماء الصافية . . . بل هى تلك الأنغام الهادئة التى تنساب فى سكون فتنفذ إلى صميم القلوب . . . هى زهـرة العمر التى تغـرى الإنسان بولوج الحيـاة والتغلغل فى ربوعها وفيافيها وقفارها . . سهولها وصحاريها . . باحثاً عنها .

لـكن . . . كلما تراءت لنا وكانت فى متناول أيادينا . بعدت كل البعد . . . وكلما ازددنا منها اقتراباً . زادت بعداً واغتراباً . . . هى السعادة التى حار النـاس فى فهمهـا . . . واختلف الجمع فى شرحها ، وتعددت أوصاف الشعراء لها . . . وهى . . . ؟ كما كانت . . . وكما ستظل . الشىء الوحيد الذى نبحث عنـه دائماً . . . ويطرق الجميع بابه . . . ولـكن هيهات أن يجيب . . . !

والسعادة كلمة لها مدلولها السحرى الغريب الذى يتمشى حسبما أرادت الأمانى أو المطامع . . . فالسعادة التى تنشدها نفس تختلف كل الإختلاف عن تلك التى تطمع نفس أخرى فى تحقيقها . فـكل إنسان له عالم خاص يعيش فيه بنفسه وتفـكيره غير العالم العام الذي يعيش فيه الجميع . وعلى هذا الأساس ومن خلال هذه الصور العديدة أردت أن أصوغ فـكرة جديدة عن السعادة ولـكنى تهيبت . وتولتنى رعدة ، وحدثت نفسى قائلة : « ليس من الحـكمة أن تجبرى الناس على أن يتخيلوا السعادة فى الصورة التى تحبينها أنت فالـكل مثله ، ولـكل أخيلته »

ووقفت فى مفـرق الطريق أتصيد شوارد أفـكار النـاس وهم يمرون فى عرض أحببت دراسته ، وإمعان النظر فيمن احتواهم . . . كانت صورة السعادة تداعبهم جميعاً وتبدو فى آفاق أخيلتهم وهم يسعون إليها . . .

وظللت أداعب هذه الأفـكار المتعددة وأزيدها تنميقاً وأنا بجمالها جد معجبة . . . إنها كالعروس ليلة تزف إلى رجلها المحبوب . أفليس من واجبى إذن أن أجعلها فاتنة !؟

وبرغم وثوقى من كمال هـذا العمل . ظللت أراجعه لأصل به إلى مرتبة الـكمال الأدبى ولو إلى حد أستطيع أن أبرهن به على أنى قفزت قفزة كـبيرة بعد أن أخرجت كتابى الأول « أذكرونى »

ما أجمل أن أطالـع قرائى بالدراسات التى احتواها « البحث عن السعادة » بل وما أجمل أن أحدثهم عن سعادتى النفسية لوجود صلة قوية بينى وبينهم . . أنـكم تروننى على هـذه الصفحات . وتلمسون مجهودى المضنى . . ترون صورتى فى كل صفحة وتستمعون وجيب قلبى عند كل وقفة تقفونها للإعجاب أو للنقد . . . سأراكم . . . بل ويخيل إلىّ أنى معكم بهذه النفحات التى أحاول أن أحملـكم تحت ظلالهـا اليانعة على نسيان ظلام الواقع والتي أريدكم بها أن تبسموا لأنوار الخيال التى يلقيها مشعل السعادة على وجوهكم . . .

يخيلُ إلىّ وأنا أقدم لـكم يا قرائى الأعزاء كتابى هذا أن السعادة باسطة ذراعيها وقد ضمتني إلى صدرها المتهدج المشوق إلىّ . . . أية ضمة خالدة جعلتنى أشعر بما لم يشعر به أحد . . . إن التجرد الحسّى من الماديات يجبرنا على التحليق فى أجواء من بدائع الأخيلة ولـكن . . . أمام الواقع لا أميل للخيال . . . بل أحب أن أستعرض وأنا فى غمرة سعادتى مجموعة الصور التي مرت بى حتى انتهيت من « بحثى عن السعادة » .

إنها قصة . . . ولـكم هو حبيب إلىّ أن أسرد القصص . . . قصة بدأتها بمغـامرة داخلني الخوف وأنا مقدمة عليها ثم لم تلبث سعادة الوصول إلى تحقيق الامنية أن غمرتنى فهدأت وسرت فى طريقى برغم مااعترضنى فيه . . .

وكانت مغامرة أيضاً أن أعمل فى ميدان الصحافة متخذة هذه المهنة عملا أساسيا فى وقت كره فيه الكثيرون من الرجال البقاء فى بلاطها ، وكانت مغامرة أيضاً ان اشترك فى تحرير الجرائد والمجلات وتموينها بالأخبار ولكنى لم أقنع بذلك وأردت الاستقلال بعمل أقوم به من ألفه إلى يائه فكان أن أخرجت لكم « أذكرونى »

إنى أعترف هنا أن « اذكرونى » كان محاولة لا أدرى كيف تقبلها القراء اللهم إلا فى ذلك الهدوء الذى غمرنى وقد سمعت البعض يطالبنى بإعادة طبعه ولكنى كلما نظرت إليه فكأنما أستعرض ماضياً من أفكار ساذجة أقدمت على تدوينها . ولكنى وجدت فيما فاتنى فيه درساً أرشدنى إلى حد من الكمال وضعته بين دفتى كتابى هذا الذى أتقدم به إليكم جميعاً من قراء ونقاد راجية أن ترشدونى إلى مواطن الضعف إن كان ثمة ضعف تجدونه ، دون المجاملة بالحديث عنه . فإن فعلتم ذلك بصدق ونزاهة فإنما تأخذون بيدى إلى طريق السعادة الأدبية الذى أوقفت العمر والشباب على تعبيده لأصل إلى نهايته وأنا حاملة لواء حمدكم وتقديركم واعترافكم بالمجهود الشاق الذى تقوم به الفتاة المصرية فى بناء صرح القصة المصرية الأصيلة



« السعادة ... »

كما يراها أدباء الغرب

« كثيرا مايبحث المرء عن سعادته كما يبحث عن نظارته . . . حين تكون معلقة على أنفه »

جرستاف دروز

« السعادة القصوى هي أن نكون محبوبين لأجل أنفسنا أو بالأحرى بالرغم من أنفسنا »

فيكتور هوجو

« غايتي من الحياة — أن أعيش هانئاً بوسائل قليلة . أن أطلب الجمال لا البذخ . أن أكون لطيفاً رقيق الاحساس مع قلة الاختلاط بالناس . أن تصان كرامتي لا كبريائي . أن أحوز الراحة لا الثروة . أن أعرف كيف أصغي للنجوم والطيور والأولاد والشيوخ فأفتح للجميع قلبي على الدوام . أن أدرس كثيراً وأفكر بهدوء وأعمل بصراحة وأتكلم بترو . أن أرقب الأحوال الملائمة لأعمالي فلا أتسرع قط في شيء منها . . . وبكلمة واحدة إن غايتي من الوجود أن تغمر الاعتبارات الروحانية السامية كل الأمور والشواغل الدنيوية — في ذلك سعادتي واغتباطي »

تشاننج

« السعادة تترتب على العواطف أكثر من ترتبها على الحوادث »

مدام رولان

« إذا صرفت ذهنك إلى ماهو أمامك وعملت بجد ونشاط ورزانة وفقاً لما يوحيه إليك عقلك دون أن يلهيك عن عملك أمر أو طارىء — إذا سلكت هذا المسلك وحافظت على طهارة ضميرك كما لو كنت مطلوباً للدينونة في ساعتك . . . فلم تشته شيئاً بل كنت مقتنعاً بصنع يديك وواثقاً بجميع أقوالك وجميع أفعالك فأنت أنت السعيد ولن يستطيع أحد أن ينتزع منك السعادة »

ماركس أوريليوس

« أحسن سعادة أن تكون المرأة أماً . إذا كان لها ولد كأبنى »

ماري ماركيه

« السعادة فى العمل »

ادوار هريو

« السعادة فى النوم . . . والحلم »

رينيه بنيامين

« السعادة هي أن يكون الانسان مسروراً قانعاً بنفسه بشرط ألا يقنع بشيء قليل »

اندريه بيرايو

« إن أكبر سعادة هى أن يحدد الانسان لنفسه غرضاً ويبذل جهده فى الوصول إليه . . وأخيراً يصل له »

جان لاروترا

« السعادة فى معرفة شخص يفهمنا تماماً ويمكننا أن نقص عليه كل افكارنا دائماً »

هنرى شامبلى

« السعادة فى أن نفاجيء صديقين يتحادثان ومعرفة أنهما لايقولان عنا شيئاً سيئاً »

موريس ديكوبرا

« إن أكبر سعادة لرجل يستحق هذا الاسم هى أن يوجد فى سعادة ويتغلب عليها »

اندريه ديميزون

« السعادة فى الصلاة »

فرنسيس جام

« أسباب السعادة تختلف باختلاف العمر فيتقابل فى كل سنة وأخرى سعادات لم نعرفها من قبل فأيهما إذن أهمها ؟ وهل يجب تفضيل ورد الربيع على فاكهة سبتمبر ؟ انى أحب كل سعادتى وحتى تلك التى لم يبق منها سوى الذكريات »

تريستان ديريم

« السعادة وثوق المحب بأنه محبوب »

هنرى دوفرنوا

« السعادة هي أن يعيش الانسان مع امرأة يحبها وفي بلد يحبه وفى عمل يحبه »

اندريه موروا

« السعادة والتعاسة شيء واحد »

الأميرة مرجريتا النمساوية

« السعادة فى التقدير ذاته « الذوق » دون الشيء نفسه ؛ وفى امتلاك ما نميل إليه نحن بشرط ألا نسلبه غيرنا »

روشوفوكو

« السعادة فى العمل لأنه شرط الحياة وغاية العقل »

فردريك شيلر

« السعادة لم تخلق للانسان »

فولتير

« يوجد فى كل قلب عامر بحب الخير ذلك الشعور النبيل ، الشعور بأن لاسعادة فردية فى الوجود ، وأن السعادة الحقة « المطلقة » هى التى يتمتع بها أكبر عدد من البشر »

جيتى

« السعادة الحسية « وهى أعلى المراتب » هى تلك التى لا تمتزج بالشر ـ ولا تؤدى إليه ، بل هى الشعور بالطمأنينة « الراحة » بعد العمل »

كانت

« لاتهتم الحكمة بايجاد الرجل السعيد »

أرسطو

« لايوجد سعيد على وجه الأرض »

أوربو يدس ؟

« السعادة أن يعيش الانسان دون كذب وفى حالة نفسية جيدة مسرور فى وسط عائلى ظريف محاط بالهناء والعطف وفيه يعمل الانسان فى أشياء يحبها وسط أطفاله الصغار الذين يضحكون ويغنون وفى هذا المكان أنظر بفلسفة ضاحكة إلى هذه الدنيا السعيدة الصاخبة »

جورج لكومت

« السعادة فى الحياة »

برت بوفى

« ليست هناك سعادة أحسن من خلق السرور بين الناس فى كل نواحيه : . . . الفن والحب والاحسان »

موباسان

« لاريب فى أن قسطاً كبيراً من سعادتنا يتوقف على براعتنا فى اختيار الأصدقاء »

لورد أفرى

« السعادة استمتاع النفس بالهدوء »

ديموكريت

« إن الله أوجدنا لنتمتع بالحياة ونكون سعداء . ولا تأتى السعادة بالمال ولا بمجرد النجاح فى العمل بل ان السعادة سبيلها القوة التى تمكن الفرد من أن يكون نافعاً وقادراً على أن يقوم بمهمته كانسان كامل »

اللورد بادن باول

« السعادة سرور لايعقبه رد فعل سيء »

أبيقور

« السعادة عدم احتياج النفس لشيء ما . . . أى فى القناعة »

سقراط

« السعادة عند من توافر لديه الجمال والخير »

أفلاطون

« إن من لايسعد بما فى يده لايسعد ولايقنع بما يريد الحصول عليه عندما يصبح بين يديه »

أورباخ

« السعادة هى الاعتدال فى مطالب النفس ونزعاتها ، وتوجيهها نحو الخير »

ارسطو

« السعادة كائنة حينما يهيمن العقل العامر بالفضيلة على النفس ، وفى معرفة الخالق ، والايمان به والولوع بحبه ، فالسعادة ليست جزاء ولكنها جوهر العقل »

اشبينوزا

« الحال التى يكون عليها المخلوق العاقل بكامل كيانه ووجدانه ، عندما يسير كل شيء عنده حسبما شاء وأراد . هى حال الشعور بالسعادة مادامت هى إشباع كل الغايات »

إيمانويل

« إذا استطعت أن تكون سليما دون صحة . أمكنك أن تكون سعيداً دون فضيلة »

مثل انجليزى

« الانسان لايشعر بسعادة لأنه يتخيلها وينتظرها ويتمناها وإذا لمسها انتهى . . . »

كليان توتيل

« السعادة أن يعيش الانسان العيشة التى تلائمه دون أن تصادفه عقبات من نوع يؤذى هذه المعيشة »

هـ . دى مونترلان

« السعادة تختلف باختلاف العمر . ففى العشرين الحب ، وفى الأربعين الطموح ، وفى الستين الرفعة ، وبعد ذلك الانزواء والنسيان . فالحياة منظمة لدرجة أنك لا تجد شخصاً يسعى دائماً وراء سعادة واحدة من وقت ولادته إلى وفاته »

جورج سوارنز

« السعادة ... »

السعداء من الناس فى هاته الدنيا قسمان : القسم الأول وهو أكثرهم « العاديون » وهم غالبية القطيع . وهم متشابهون فى أنهم لا يخرجون بمطالبهم عن مطالب الحيوان إلا قليلا . . . أعنى أنهم لا يتميزون عن الحيوان إلا بخصائص بيولوجية محضة كالذاكرة والخيال وكالمقدرة على التفكير المركب والقدرة على الكلام . . . ولكن المطالب الحيوية لا تتعدى الحيوانية كالأكل والشرب والتناسل . . . وتسيطر عليهم نفس الغرائز الحيوانية الأولى كالغضب والسيطرة وإن تقنعت بقناع واه هو الذى منحته المدنية للانسان . . .

هذا الصنف من الناس سعادته فى تحقيق هاته المطامع وتلبية هذه الرغبات ، وهذه سعادة « سلبية » محضة لأنها ميسورة التحقيق فى أكثر الأحيان ومستطاعة بقليل من الجهد . . . ويشتق من هاته السعادة سعادة أخرى شائعة هى السعادة « الغيبية » وهى سعادة أهل القنوع والرضى ، وهؤلاء يمثلون السعادة السلبية أكبر تمثيل : فهم بعد استطاعتهم تلبية الغرائز الأولى السهلة التحقيق والاستجابة يخلقون حولهم دائرة من أوهامهم وتخيلاتهم ويصطنعون حقائق لا تنطبع على الواقع فى شىء . . .

والقسم الثانى من السعداء هم المترفون عقلياً ، أى الذين يخرجون عن مطالب الماديين وعن بيولوجية الحيوان وسعادتهم « إيجابية » أو « ديناميكية » وتقتضى أن يخرج الانسان من دائرة الرضى إلى دنيا الطموح فيحاول تحقيق ما يطمح إليه وما استقر فى أوهامه وأحلامه ، لايجد سعادة فى غير ذلك . فاذا أفلح فقد سعد بمقدار ما حقق من مطامحه ، على أن آفة الترف العقلى أنه دائم الالحاح متجدد المطالب فالانسان لا يخلص من « سعادة » إلا إلى نداء من الفكر يدعوه إلى سعادة جديدة !

وقد لا يفلح ذو الارستقراطية العقلية فينقلب الأمر إلى ما نتوهمه شقاء عند اخفاق المطالب ، ولكن هذا خطأ ، فالفرق بين « السعادة » و « السرور » أن السعادة هى مجرد فكرة أو مبدأ ، وقد يموت الجندى وهو « سعيد » لأنه أدى واجبه نحو وطنه ، ولكنه غير « مسرور » لما أصابه من جراح . . . وما دامت الفكرة قائمة ، فانما السرور هو الذى ينمحى لأنه قائم على التذاذ الحواس وذلك احساس عارض مؤقت .

دكتور ابراهيم ناجى



السعادة فى مبناها ومعناها تحيط بالانسان الحى الذى يزن الأمور بميزان العقل ، ذلك الميزان الذى نحتكم إليه فى البحث عن هذه السعادة .

والعقل لا شك يحتاج إلى حيوية وقوة تساعده على الانصراف إلى هذا البحث وما الحيوية والقوة إلا سلامته من كل ما يعرضه للعلة ويصرفه عن التفكير . . . وهل يسلم العقل من كل هذا إلا إذا وجد فى جسم سلم من العلة والمرض ! إذن نحن فى حاجة إلى الجسم السليم الذى يصلح لايواء وتغذية العقل السليم الذى يقوى على التفكير والبحث عن السعادة . فالسعادة إن فى الجسم السليم . . !

ونقول بلسان العقل الذى يسكن هذا الجسم . إن السعادة فى الجو النقى الذى نتنفس فيه هواء عليلا يشرح الصدور وأنها اللقمة الهنيئة التى تهضمها المعدة السليمة فتغذى الجسم دون حرج او ضرر ، وأنه الملبس الجميل الملائم لطقس البلاد والذى يرسل البهجة إلى صورنا إذا نظرنا فى المرآة ، وأنها المال الوافر الذى نكسبه أو ندخره أو نرثه ، وأنها الزوجة المخلصة التى تملأ البيت بهجة وحناناً ، وأنها الذرية الصالحة التى تنفع الوالدين وتطرح الثمار التى تغذى العائلة والأمة بالجهد والعمل الطيب ، وأنها العلم الغزير الذى يهدى الناس إلى الخالق وإلى الدين وإلى المحافظة على حقوق الناس وإلى منع الاجرام أو التفكير فيه وانها الهداية إلى خدمة الانسانية التى تنتهى إلى تاريخ يكشف عن الخير ويضىء طريق الخلف هذه هى السعادة . ولكن لا يسعد الانسان بهذا كله إذا اعتل الجسم ، وتحمل العقل قوة التفكير المضنية . فهذا يخرج الانسان من منطقة السعادة إلى منطقة الشقاء مهما توافرت لديه أسباب « السعادات » الأخرى . . وإلى هنا أقول أن السعادة هى الصحة ولا فخر .

ابراهيم عـــلام



قرأت قول المتنبي :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

فتساءلت : هل هذا صحيح ؟ هل العلماء فى جملتهم أشقى من الجهلاء فى جملتهم ؟ إن كان هذا صحيحاً وكان العالم إنما يسعى وراء السعادة فالنتيجة المنطقية لهذا أنه يجب علينا محاربة العلم ونشر الجهل . وعد تأليف الكتب جريمة وطبعها جريمة وكل حركة علمية جريمة لأنها تبعد من السعادة التى هى غاية الانسان بطبيعته . أو على الأقل يجب أن تكون غايته . .

إذاً فلا بد أن يكون أحد الرأيين خطأ . أما والناس يكادون يجمعون على فضل العلم وأنه وسيلة من وسائل السعادة ، فوجب أن يكون الرأى الأول باطلا ، ولكن أين وجة البطلان ؟

وجه البطلان من نواح عدة :

أولهما — سوء تصور الناس للسعادة فالرأى السائد فيها أنها حياة كسل لا يكدرها عمل ، وحياة حقوق لا واجب فيها ، وحياة لذة مشتعلة ، وابعاد للآلام من غير أن يتعب فى إبعادها . وهو تصور فاش بين الناس حتى عقلائهم ومن ، يقله جهاراً إعتنقه سراً . وهو تصور لمعنى السعادة باطل وفهم خاطىء ، وإنى لأتخيل حياة من هذا النوع أشبعت فيها كل الرغبات من غير جهد وأتصور رجلا أجرى عليه كل أنواع النعيم فأجده بعد قليل قد صرخ من السعادة واشتاق إلى الشقاء . :

هذا هو الانسان وهذه طبيعته . ليست سعادته فى هدوء متكامن ولا فى ركود مستمر وهب أن العلماء أشقى من الجهلاء وأن العلم وسع نظره فأدرك واجباته وتبعاته وأبعد طموحه فصار لا يرضى بما يرضى به العامى وكبرت نفسه وبعدت غايته :

هب كل ذلك كذلك فهناك الخطأ الثانى الخطير وهو مقياس الأشياء بمقياس الفردية فغلط العلماء والعقلاء والمخترعين الذين يشكون من أنهم نظروا إلى أنفسهم كأنهم آلات مستقلة ولم ينظروا إليها كأنهم تروس فى الآلة الضخمة ، آلة الأمة أو آلة الانسانية . .

والسعادة إنما هي في السعي للغرض أكثر منها في الغرض ، والطريق إلى الغاية هو السعادة لا الغاية : وإنما يسعد الانسان باستخدام قواه وملكاته لبلوغ غايته فاذا ما بلغها تفتحت له غايات جديدة ، وبذل منها جهوداً جديدة ، فشعر بلذة الجهد ولذة الغلبة ولذا اعتداده بشخصيته واستخدامه ملكاته واستكمال نفسه أكثر من لذته بالغاية نفسها .

لكن من طبيعة الثقافة أنها ترقى المشاعر الأمر الذى يجعل صاحبها يرى واجباً على المجتمع الذى يعيش فيه أن يكرمه نظير عمله الذى يخدمهم به فتتوافر له وسائل العيش والسعادة عن نظره فلماذا تطلب منه التضحية فقط ولا يطلب من الأمة أن تضحى بجزء من مادتها ليضحى هو بأعلى من ذلك بعقله وبصحته ونفسه أحياناً ؟ وإذا انتشرت الثقافة فى أمة وتولى زمامها مثقفوها كان علماؤهم أسعد حالا . ولكن إلى أن يتم مثل هذا فى كل الأمم لابد أن ننظر لصالح المجتمع أكثر من صالح الأفراد وكما قالوا « لئن تكون سقراطاً ساخطاً خير من أن تكون أبله راضياً » .

أحمد أمين بك
عميد كلية الآداب

السعادة عند الشعراء

« سعادة الخيال »

آنسينى بالله يا أحلامى   فى ظلام القلوب والأيام
إنما راحة الضمائر فى الـ   ـوهم وفى عيشه الخيال السامى
فعش اليوم فى اعتزال عن الـ   ـناس وفى محفل من الأوهام

طال ياقلب ما سكنت إلى الـ   ـناس وغرتك ومضة الابتسام
وقضيت الحياة تؤنس بالـ   ـعطف قلوباً فى وحشة الأظلام
فإذا أنت كالضحية ياقلـ   ـب على مذبح الضنى والسقام
لهم منك ظاهر يشرح الصـ   ـدر ولى باطن ممض دام

اخلد اليوم للسكينة ياقلـ   ـب فأنعم بها ديار مقام
لك من رنة الخرير أغانٍ   ناديات بأعذب الأنغام
ومن البدر فى سكون الليالى   سامر بالضياء والإلهام
ومن العشب والزهور بساط   ناضر اللون باسم الأكمام
ومن الوهم والخيال ابتداع   من تصاوير فكرى الرسام
فاهجر النـاس إنما لذة الـ   ـعيش حياة السكون والأحلام

أحمد رامى

الفتاة وإسعاد المجتمع

انى أرى عن عقيدة راسخة أن الفتاة هى كل شىء فى الحياة وأن سعادة المجتمع لاتجىء إلا عن طريقها ، ومهما تعددت عوامل تلك السعادة فى مظاهرها وألوانها فالفتاة هى العامل الاساسى بينها . . .

وقد تملكتنى هذه العقيدة منذ الصغر ، بينما كنت اتطلع إلى أمى فأرى لها معظم الفضل فى سعادة أسرتنا ، وحينما أصبحت زوجا ولمست جهد زوجى فى توفير الهناء لى ولأولادى ، وحينما صرت أباً ورأيت من حدب بناتى ومحبتهن ما أنسانى متاعب الحياة وآلامها ! وما مثل الناس الا كمثلى ، وربما مرت ببعضهم أطوار نعموا فيها بعطف الأمومة ، ورعاية الزوجية وحنو البنوة . . .

والدور التى تمثله « الفتاة » فى الحياة والمجتمع هو الدور الرئيسى لأننا فى اللحظة التى يتجه فيها نظرنا إلى أى فرد وما يسديه لجماعته ووطنه من خدمات ومقومات نهضة ما ، نتمثل هذه « الفتاة » التى أنجبت هذا الفرد ، ونتمثل ما بذلته فى نشأته من جهود وصبر ورعاية حتى وصلت به إلى المستوى الذى أظهر فيه عبقريته ووطنيته وحبه الخير للخير . . ولذلك كثيراً مانرى بعض عظماء الرجال يقرون بما لأمهاتهم أو زوجاتهم من فضل فى نجاحهم فى حياتهم . . !

ولكن ! كيف نيسر للفتاة السبيل لاسعاد المجتمع ؟ ونعينها على تأدية مهمتها الجليلة ؟ الجواب عن ذلك ، هو التعليم الصحيح القائم على الأخلاق والدين وهما أهم سلاح تتزود به الفتاة فى حياتها ويكفل إسعادها وإسعاد ذويها ، وهذا هو عمل الفتاة فى دائرة مملكتها الصغيرة ، ومتى عمت السعادة الأسر ، عمت الشعوب ، ويسرى نعيمها فى الأرجاء فيخلق من الشقاء هناءة ومن الشر خيراً ومن الأنانية والجشع تضحية وقناعة . . . !

لهذا أرى أن يعذرنى القارىء إذا أنا وضعت الفتاة فى ذلك الموضع من إسعاد المجتمع وقلت بحق أنها القوة العظيمة التى هى مصدر كل سعادة

أحمد عاصم بك

مراقب تعليم البنات



البحث عن السعادة

قرأت كتاباً أسمه « أسرار السعادة » فيه تنحصر السعادة فى الصحة ووجوب عمل الفرد والمجموع لتوفيرها للكل ، وفى البعد عن حب المال والعمل على تقليل شأنه وفى إيجاد الصلة القائمة على المحبة بين الناس والعمل لصالح المجموع وفى أن يقضوا وقتهم فيما يفيد أو على الأقل فيما يبعدهم عن التفكير فى الرذيلة ، فتكون لهم هوايات كالفن والشعر والأدب الرفيع والموسيق السامية وتحسين العادات الفردية والسمو بها ، وتهذيب النزعات وتبسيط العيش بالبعد عن الترف وخلق المثل العليا فى أبسط مابين أيدينا ، وتعليم الفرد كيف يستمتع بما بين يديه وبما هو كائن على الأرض من خلق الهى كلما إزداد فيه تأملا إزداد إدراكا وتقديراً . ثم وجوب العمل بأصول الدين وعدم الخروج عليها باسم المدنية حينا وبدافع الاستهتار حيناً آخر .

وهو كتاب قيم لما جاء فيه من بيان ، فلو أن الفن الميسور السير على منهاج المؤلف لكان الأمل فسيحا لايجاد السعادة ، والكاتب الذى يتصدى لتعريف السعادة عليه أن يدرس البيئة المصرية وما وصل إليه حالها ثم بعدئذ يعرفها لنا إن كان لها وجود يستحق التعريف .

لايعيش الانسان لنفسه ولا يعمل لها وحدها ، وما دام الفرد جزءاً فى مجموع الأمة ، وما دامت الأمم أعضاء فى الكتلة البشرية ، فلا سعادة مادامت هذه الشعوب لم تعرف بعد كيف تجرى عملية الادماج العام وخلق الهيكل الكامل البعيد عن الأثرة والأنانية .

ولكن الثابت أن السعادة فردية واجتماعية والأولى لاقيمة لها ، والذى يعنينا فى القرن العشرين وقد مارست الانسانية عمل الفرد لنفسه أو لأهله أن السعادة وهى التى يجب أن يتمتع بها أكبر عدد من الناس هى الشغل الشاغل لساسة اليوم .

فلو عمل كل فرد لصالح المجموع ولو قام بالتنفيذ تبعا لما يرسمه الفلاسفة مراقبا من رجال حكم أقوياء أشداء ، وعرف ماله وما عليه ، وتوافر الناس على العمل بأصول الفضيلة وعلم الأخلاق وتكاتف الكل على نشر الخير لكان لنا أن نأمل فى السعادة .

وعندى أن لاسعادة على الأرض . إذ أن حكمة الخالق الالهى هى أن يجتاز الانسان مرحلة الحياة تمهيداً لحياة أخرى حيث توجد السعادة الحقة

دكتور أحمد موسى

الصينيون ... والسعادة

قليلون هم الذين يشعرون بسعادة الحيـــاة التى هم فيها ، سواء كانت هذه الحياة فارهة مقعنة ، أم قاسية ممضة . . . بل منهم من يحنون إلى أيامهم الماضية ويتمنون عودتها ، مع أنهم كانوا قد شكوا منها إذ مروا بها ! ومنهم من يتلمسون فى أيامهم المقبلة استبشاراً . . . . مع أن المستقبل قد يكون أشد ظلاما وحلكة . . . ولو علم أحدكم بالغيب ما اختار غير الواقع ...

ولهذا لانعرف بالضبط حقيقة السعادة وماهيتها ، لحياة انسان قد تكون سعيدة باعتبار وتعسة باعتبار آخر ، سعيدة لأنهـا تقنعه وترضيه فى أحوال خاصة ، وتعسة لأنها تقلقه فى أحوال آخرى . . .

وقد فكر بعض العلماء ، على ما يظهر ، فى البحث عن السعادة . : . ووضعوا لها بعض « الشروط » على أنها عناصر أساسية للوصول إليها ، غير أنهم جميعا ضلوا السبيل وأخطأوا القصد ، ولم يدركوا كنهها أو أسرارها على الرغم مما بذلوا من جهد .

والصينيون عامة ، يرون أن الجمال والمحبة والحكمة ليست من العناصر الاساسية للسعادة... ل يرون أن هذه كلها تدخل ضمن العناصر الأخرى التى يعتقدون أنها الأساسية ، وهى الجاه ، وطول العمر ، والصحة ، والأمن . . .

والسعادة عند الصينيين ، سعادتان ، سعادة كاملة ، وأخرى ناقصة ! فالأولى هى التمتع بالجاه . . . وأما فى وجود الجاه فقط . . . ومن هنا ندرك أن خمول الذكر وعدم الشهرة ، ليس له عند الصينيين نصيب فى بناء السعادة .

والسعادة لاتكون سعادة حقة إلا حين تشعر بوجودها ، ثم تتمتع بها « فعليا » ، على حسب ادراكك لها وفى الوقت المناسب لك ، وأنت ، طبعا ، لاتستطيع ذلك إلا إذا قدر لك عمراً طويلا . . . ولهذا كان طول العمر عند الصينيين جامع لأهم عناصر — أو شروط — السعادة . . . بل هو يحمل العناصر الأخرى التى ذكرتها وهى الجاه ، والصحة ، والأمن . . .

ولا جدال ، أخيراً ، فى أن السعادة هى نعمة مشتركة بين جميع الطبقات . . . غير مختصة بطبقة دون أخرى ، وغاية الأمر أن الأساليب التى يستخدمونها فى الوصول إليها ، يختلف بعضها عن البعض الآخر .

هذا رأيى ، كصينى ، عن السعادة فى كلمات وسطور . . . ولعلى فى هذا أكون قد عبرت عن الرأى العام الصينى ، وأزيد على ماتقدم أن الأمة الصينية بوجه عام ، أمة واقعية وليست خيالية ! ترى سعادة الحياة بعين المادة اذا اكتملت ضرورياتها . . . وقد يزيدون عليها — على المادية — نوعا أو أنواعا فى المبادىء المعنوية تكميلا لسعادتهم فى دنياهم . . . أما الآخرة ، فلا يعتقدون بوجودها . . ولذا فليس للدين تدخل فى سعادتهم

بدر الدين الصينى
عضو البعثة الصينية فى مصر

الى السعادة ...

أيتها السعادة ، بماذا أشبهك ! ؟
هل أشبهك بفجر يشرق على أحلامنا ، فيشتت ضبابها فى قطر نحتسيه ؟
أم حريق مسكر يشب فى قصور أمانينا فيحولها إلى بخور يضمخنا ؟
أن كنت هذا فأنت حقاً زهر المنى وجنى غرس الأحلام .
وفصل الخطاب إذا طال الحديث ، ولحظة الاستقرار لشوق معذب .
ولولاك لعشنا فى أكاذيب الأمل إلى أن نموت بظمئنا .

***

أم تراك الفراديس الموعودة تراءت لنا عبر نظراتنا الوامضة ببريق النشوة ؟
أو طافية على بحور النور التى تتفجر عنها بسماتنا ؟
أو راقصة فى ذوب دمعة فرح رجراجة نذرفها ؟
ان كنت هذا فلابد أنك شىء مقدس ، ، يهبط علينا من الخلد ولا يمت لدنيانا بسبب ، فيرينا من مآب أرواحنا أو من مهود طفولتها الغالية لمحات ؟

***

أم لعلك زورق أقل المنى ثم أغرق نفسه فى أعماقنا المجهولة ؟
ومضى يسبح فى القاع بعيداً عن عيوننا لانحس منه إلا دبيبه ، حتى اذا ما أتم رحلته طفا على لجج الذكريات ، فنراه ولكن فى البحار النائية ، التى تفصل بيننا وبينها عوالم الزمن ؟
ان كنت هذا فلماذا لاتجيئينا إلا ملثمة ، فنخال كذبا ما نحن فيه ، وتسفرين إذا رحلت فما يخامرنا الريب فى رحيلك ؟ فاذا رشفنا كأس الهناء ففى أفواهنا مرض ، فان كانت شجى صحت فذاقت علقمه ؟

***

أيتها السعادة . وددت لو رفعت عن وجهك النقاب وأنت بين يدى فما يفسد الخفاء على وجودك !
واهاً لنا ! كنا نسعد حيناً ، لكننا لا نفطن لذلك إلا فى أيام الشقاء ، وعندئذ نهتف من أعماق قلوبنا المكلومة لهذا فى حينه . . . !

حسين عفيف
المحامى

السعادة في نظري

تسألينني يا آنستي عن السعادة بعد الذي كتب عنها في جميع العصور وبعد الذي قيل فيها في الكتب المنزلية وقصائد الشعراء وفصول العلماء والأدباء وتنتظرين مني أن آتي بقبس من نور لم يأت به السابقون غير أنك تفضلت فخففت المشقة بأن قصرت السؤال على رأيي في « السعادة من وجة نظركم »

فالسعادة من الوجهة المادية عندي هي بنية صحيحة وصحة حسنة وسلامة من المرض ضمن نطاق الاحتمال وكناف العيش والحياة في جو من الحرية والأمن وأهل محبين محبوبين .

ومن الوجهة المعنوية والأدبية نشاط وأمانة في العمل الذي يقسم للمرء وأعداد القوى له وترويض النفس على لقاء ما يأتي به الزمان من خطوب ومشكلات ومعضلات والصبر على البلاء والاحسان إلى الأهل وذوي القربى وسائر الخلق وصدق الوفاء في المعاملات والايمان بالله والوطن والاستمرار في التثقف واكتشاف محاسن الطبيعة وما في أسفار الحياة من اختبار والعمل بما أوصى به المسيح في الموعظة على الجبل بقوله « اصنع للناس ماتريده لنفسك »

فعلى قدر نجاح المرء في ادراك ماتقدم يكون نصيبه من السعادة المحدودة في هذه الحياة الدنيا الى أن تؤهله عناية الله للسعادة الكاملة في الدار الأخرى .

ولك ياسيدتي التحية والسلام

خليل بك ثابت

أين السعادة ...

لاشك أن لكل انسان أيا كان عمله ، وأيا كان قصده سروراً . أما السعادة فقد وصفها كثير من المفكرين كل كما شاء . وتعريفي لها أنها شاغل سار يحول فكرنا وحسنا عن مجراهما الطبيعي إلى شيء تنحصر فيه أمنيتنا وأملنا . فإن ضحكنا أو بكينا فله ، وان جزعنا أوغضبنا فله . فكأن الزمان قد وقف بنا حيث هو غاب أو حضر وكأننا حيينا لنحيا به وكأننا تجردنا عن الشعور لكي لانشعر إلا بما يصدر عنه ، فان كان ذلك الشيء حياً ناطقاً فهي سعادة الحب ! ، وان كان جماداً فالسعادة السعي إليه والحصول عليه !

أما أنا فقتي أمسه وشيخ يومه جف عودي على نضرة فيالنفس وبقي بي من الشباب التمني ومن العزم الهوى . وهكذا كل هرم العصر هرم العمر .

عشت قليلا وكأنني لسآمتي قد عمرت طويلا وما بي كراهة للحياة ولكن يوحشني أنسها ويطمئني سرورها لأنني ضللت منذ حداثتي سبيل السعادة وقرعت عليها غير بابها ففزت من الرجاء بالخيبة ومن الأرب المنشود بالضعف والعناد .

ظننت السعادة في المسرات فاذا أنا ببروق تلمع ثم تنغمس في الظلام وحقائق فظة لاتلطفها أوهام ويخيل إلى الآن طريق السعادة إنما هي القصد في الانفاق في العمر وان بابها هو الذي ترشدنا إليه النفس بحسها الذاتي لا ما يدفعنا إليه حب الاقتداء . إذ يندر أن يوافق حس غيرنا حس أنفسنا .

« وليست السعادة في المال ولا في شيء خارج عنا . . . بل هي في الفؤاد ! »

خليل مطران بك

السعادة .. والفن

كان أجدر بالآنسة صاحبة هذا الكتاب أن تجيب عن معنى السعادة فى أفاضة لا تجعل مجالا لحديث بعدها ، أنها بنت حواء وبنات حواء مصادر الذاذات ، ومراتع سعادة .

ولكن يبدو أن الآنسة تتجنى وتتدلل ، وتحلو لها الدعابة مع أبناء آدم فرائسها على الأرض ، ومظاهر سيطرتها وجبروتها ، ولعل هذا الكتاب مظهر من مظاهر أمرها ونهيها على من تعرف وعلى من تريد أن تعرف !!

مد الله فى عمر أستاذنا العقاد فقد قال عن المرأة « فانى رأيت الناس من كان قادرا ، أبى أن يراه الناس ليس بقادر » .

وهذه القدرة يا آنستى لون من ألوان السعادة لديك ولدى أترابك تحسينها وتزهين بها ، وها أنذا أشعرك اياها مادمنا فى مقام نتحدث فيه عن السعادة ونرجوها .

بعد أن أقول : السعادة عند الانسان إنما هى ذلك الشعور الفياض الذى يشمله فى اللحظة التى تتحقق له فيها أمنية مرموقة أو عارضة ، يبعد عنه خوف محقق أو محتمل !

واللحظة السعيدة لدى الفنان الحق كما اعتقد ، إنما هى فى المرحلة الأخيره من عمل فنى يشغله ، حينما يتهيأ للخلق والابتداع فيحظى منها بالنصيب الموفور بعد الدأب المنهك والحمل المضنى والوضع المرير .

والفن لدى الممثل والمخرج المسرحى حمل وولادة . وقد يصعب الحمل ويطول ، وقد تتعسر الولادة حين يتمخض الخاطر عن الشاردة البكر واللمحة الصادقة . حتى تشرق السعادة فى نفسه وتضىء . . . هذه اللحظة أعظم وأمتع مايحسه الفنان من السعادة .

زكي طليمات

« سعادتي » . . .

ماهي السعادة ! ؟ وهل من عالم السكينة أو من عالم الحركة ؟ وهل السعيد من لايتحرك ، أو السعيد من لايسكن ! !

هي هذا وذاك . . .

فسعادة السكينة رضى وارتياح خاليان من الشوق والطموح ، وسعادة الحركة تقدم ونجاح خاليان من القناعة والاكتفاء . . .

ومن يبغ هذه لايبغ تلك ، ومن طلبهما فيطلبهما متفرقين فى زمنين مختلفين ، لأنهما لايجتمعان !

واختلاف الناس فى أمر السعادة إنما هو اختلاف شعور قبل أن يكون اختلافا فى الرأى والنظر ، فهم يشعرون بالسعادة على اختلاف ، وان فكروا فيها على اتفاق ، وهم يختلفون فى شعورهم بين عمر وعمر ، وبين حالة وحالة ، كاختلافهم فى كل مايحبون وكل ما يكرهون . . .

والسعادة فى رأيى لا استحالة فيها إلا كاستحالة فى كل مطلب من مطالب هذه الدنيا ، فان أرادها الناس سعادة لحظات أو سعادة لذات معهودات ، فهم واجدوها لامحالة فى وقت من الأوقات . أما ان أرادوها سعادة العمر ، أوسعادة فى كل شىء لانظير له ، ولا انقطاع لها ، فتلك هى الاستحالة التى لاتنفرد بها السعادة ، ولا فرق بين تعذرها وتعذر كل مطلوب على هذه الشريطة !

وأقول بعد هذا ، اننى أعرف السعادة فى صدقها وريائها ، ولكننى اقاربها وأنا مشفق من عواقبها ، إذ أنا على يقين من كشف الحساب الذى يعقب كل نشوة من نشواتها . وكشف الحساب هذا عملة مسكوكة فى المحظورات والمخاوف والشكوك ، وهى العملة التى نشترى بها السعادة على اختلاف أصنافها وطبقاتها ، فعلى السعادة يكون الثمن ، وعلى قدر النشوة يكون الحذر والألم ! والخوف لازم لأداء ثمن السعادة ، بل أزيد فأقول ، ان الخوف لازم لمعرفتها ، بل هو حافز إليها يغريك بنشدانها ، فمن لم يخف ، لم يسعد ، وليس بالعالم الذى لاخوف فيه ، حاجة إلى السعادة !

عباس محمود العقاد

السعادة كما أراها

السعادة حلم عادى جميل يروح ويجىء حسبما تكون حالة الانسان النفسية . فيراه الانسان كلما فاز بما كانت تصبو إليه نفسه ويتحقق ما كان يرى إليه . وعلى ذلك فليست السعادة خيط متصل بل أنها تجىء على فترات متقطعة اوتة فليس كل ما يرجوه الانسان يحصل عليه

ولكى يكون الانسان سعيداً وصعب عليه أن يكون سهل الخلق حسن المعاملة فى حدود المعقول مترسماً القول المشهور « لاتكن لينا فتعصر ولا صلبا فتكسر » كما يجب أن لايترك أثراً سيئاً فى نفس من يحتك بهم إذ أن المعاملة هى محك الأشخاص فتظهر جوهر كل على حقيقته ، وعلى ذلك من تمكن من إرضاء جل الناس — ولا أقول كلهم — بات قرير العين وشعر بالسعادة . وليس معنى ذلك أن يتهاون الانسان فى حقوقه إلى درجة الاستهتار بل عليه أن يحافظ ما أمكن على حقوقه وعلى الأخص الشرف والكرامة إذ يعتبرا حجر الزاوية للشخصية ، فبزوالها يفقد الانسان كل شىء ومن فقد كل شىء فقد السعادة .

هذه هى وجهة نظرى فى السعادة من ناحيتيها المعنوية والخلقية .

أما السعاده من الوجهة الدنيوية فهى ألا يستسلم الانسان إلى أفكار سوداء تجره إلى بئر الشقاء فتصعب عليه النجاة أو الاهتداء إلى قبس السعادة إذا ما ارتد إليه وعيه وخلع عن ناظريه ذلك المنظار القاتم الذى كان ينظر إلى العالم من خلاله ، بل على الانسان أن يبحث دائما عما يسليه فى أثناء فراغه وذلك بالاجتماع مع أصدقائه الذين يجب على الفرد أن ينتخبهم ممن يكونون على شاكلته ولونه كى يستطيع أن يساير تيارهم كى لايرتطم بصخرة إختلاف المشارب فتزول سعادته التى كان يبحث عنها ويبوء بالخسران ، وبذلك يستطيع الانسان أن يكون سعيد فى أغلب الاحايين .

عبد الخالق مدكور باشا

أين السعادة ...

أين السعادة والحياة دوائر | مهــلا كلانا «ياسنية» حائر
طوفت فى الأكوان أرقب حسنها | حتى انتهيت ومهجتى تتنــافر
وحملت قلبي وهو من فرط الجوى | يهذى فيمسى وهو جرح ثائر
فوجدت فى دنيا الهوان سعادتى | ووجدتها والروض نفح عاطر
هى فى العذاب وفى الصفاء وفى الهوى | روح غريب لونه متغاير
هى فى الحقيقة لو علمت وإنهــا | فى الجهل أحياناً سراب غادر
هى فى القناعة لو قدرت وإنها | فى النوم أحيانا خيال باهر
هى فى الجهاد وفى الجلاد وفى الأسى | فى كل حسن والنجوم نواظر
أين السعادة «ياسنية» حدثى | إن البيان لديك عذب ساحر

عبد القادر محمود

« أكون سعيداً لو ... »

أ كون سعيداً لو وجدت وطنى قد احتل مركزه اللائق به ، ولو تبوأت مصر مكانيها السياسى والاجتماعى الجديرين بها بين الأمم . . .

أ كون سعيداً لو رأيت الخدمة العسكرية الاجبارية تنفذ ، ليكون لمصر جيل قوى ينهض بها ويحقق استقلالها . . .

وأ كون سعيداً ، وسعيداً جداً ، إذا وجدت أن مصر لاتنفصل عنها سودانها ، فانها مهما بلغت من هناءة ، والسودان مفصول عنها ، فهى هناءة غير كاملة . . .

وأ كون سعيداً إذا ما أصبح بين أبناء مصر على اختلاف نزعاتهم وأحزابهم ، مودة وألفه وتضامناً وتسانداً على مافيه علو مصر ونهضتها . . .

وأ كون سعيداً لو العامل المصرى قد وضع له ما يلزمه من القوانين لرفع مستواه ، ولحمايته من البطالة والفاقة ، ولمداواته وضمان معيشته فى حالة الشيخوخة . . . .

وأ كون سعيداً إذا محيت الأمية ، أو ارتفعت على الأقل نسبة التعليم ارتفاعا مرضياً ... وان تكون نسبة الجاهلين كنسبة المتعلمين الآن وألا ما سعادة أقليه إذا كان بينها وبين عامة الشعب سفر طويل وهوة شاسعة . كيف يكون التفاهم بينهما . . . . اللهم ألا التفاهم بين عمياء لاترى وصماء لاتسمع .

وأ كون سعيداً ، وسعيداً جداً ، إذا تحقق كل هذا وأنا على قيد الحياة ! ؟

دكتور محجوب ثابت

« السعادة ... »

من الصعب أن نعرف السعادة تعريفا جامعا مانعا . وهل هى أمر اعتبارى يتغير بتغير النظر إليه ويختلف باختلاف الناظر نفسه ، أو هى شىء ثابت فى ذاته لايتغير بتغير النظر ، ولا يختلف باختلاف الناظر .

والواضح لنا أن للسعادة أبوابا شتى كما أن للشقاء أبوابه كذلك ، فالايمان بالله ، والحب الصادق ، والشعور بالقيام بالواجب ، والصحة ، والغنى ، والزوجة الموافقة ، والذرية الصالحة ، والصديق المخلص كل هذه أبواب من أبواب السعادة . فمن دخل بابا من أبوابها أتيح له أن يرى نوعا منها . . . أما اجتماعها كلها لشخص واحـــد فهذا مالا نعتقد أنه كان أو أنه يكون . لأن الانسان قد يسعد بلون واحد من ألوان السعادة فتمتلىء به نفسه ويأخذ عليه كل نواحيه فيغنيه ذلك عن بقية الألوان ، أو بعبارة أدق يصرفه عن التفكير فيها .

وفى رأينا أن الرضا إذا كان صادراً عن النفس ورياضتها لاعن العجز وصغر الهمة باب كبير من أبواب السعادة « وما غلب الأيام إلا من رضى »

وقد رأى بعض الشعراء ان السعادة فى اليـأس وترك الأمور تجرى به بما شاءت أن تجرى به فيقول :

وعش كالوحش راح قرير عين   يقضى العمـــر فى نوم وفرس
وغط فما درى أشـــعاع نجم   سرى فى غابة ، أم ضوء شمس

وبعضهم يرى السعادة فى أن يتبلد اكثر من ذلك فيقول :

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر   تنبؤ الحوادث عنه وهو ملموم

وبعد فهذا الذى ذكرناه لمحة عن السعادة فى هذه الدنيا . أما سعادة الآخرة وشقاؤها فان الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم « فمنهم شقى وسعيد » فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ

محمد الأسمر

السعادة في نظري

تسألني عن السعادة فى نظر المحامى والنائب ، وقبل أن أجيب عن هذا السؤال أسائل نفسى عن السعادة على الاطلاق : ماهى ؟ وأغلب ظنى أن الناس ، وهم جميعاً يتمنونها ، لايعرفونها إلا تخيلا وتصوراً . ومن اهتم منهم بتفهمها ذهب فى فهمها مذاهب مختلفة وقاسها بمقاييس متباينة . فمنهم من يراها فى كمال التقوى والصلاح والتوجه إلى الله ، وهؤلاء هم أهل الآخرة ، ومنهم من يراها فى التعاظم — فى الجاه والثروة والعزيمة وسلامة البنية — وهؤلاء هم أهل الدنيا ، ومن توافرت له منهم بعض هذه العناصر وفاته بعضها الآخر يراها فيما فاته منها ، على انى لا أخفى عنك انى رأيت كثيرين قد اجتمع لهم الجاه العريض والثروة الطائلة والجسم السليم والبنون الصالحون وهم مع ذلك لايعدون أنفسهم من السعداء

أما رأيى أنا فليس كرأى أحد من هؤلاء ، فالسعادة عندى هى احساس الانسان بالغبطة لما يصادفه من حسن الحال . وفى يقينى أن هذا التعريف يكشف عن جواب السؤال الموجة إلىّ ، فأنه وان كان يصدق فى حق كل انسان ، محامياً كان أو غير محام ، نائباً أو غير نائب ، لأن مناظر السعادة هى ، بموجبه ، الاحساس الصرف — انه وأن كان الأمر كذلك ، إلا أن المحامى أو النائب له خصوصية فى هذا المقام ، هى أن المحامى لايحس بالغبطة لشىء كما يحس حين يؤدى إلى موكله حقا يؤمن هو فى قرارة نفسه أنه له ، وأنه كان موشكا أن يهضمهم ، والنائب لايحس بالغبطة لشىء احساسه حين يؤدى لأمته خدمة صادقة جليلة يشعر منها أنه يستأهل الثقة التى وضعها فيه ناخبوه حين اختاروه ليكون فى دار النيابة لسانهم الناطق وقلبهم النابض وضميرهم الحى ، ومعقد آمالهم فى العمل على إسعاد الشعب واعزاز الأمة .

هذه هى لحظات السعادة فى حياة النائب أو المحـــامى ، على ما أرى ، والسلام عليك ورحمة الله .

محمد توفيق خليل بك

السعادة هى ...

ماهى السعادة ؟ سؤال حار فى الجواب عنه ملايين الناس منذ بدأت الحياة على الأرض . هل هى فى الثروة ؟ هل هى فى الجاه والنفوذ ؟ هل هى فى الحب ؟ هل هى فى الأولاد ؟ أننا لنرى كثيرين إجتمعت لهم هذه النعم كلها ولكنهم يضيقون بالحياة ويزهدون فيها وينصرفون عنها ! أين هى السعادة إذن ؟

فى الحكايات الخرافية التى تروى أن ملكا أعلن تنازله عن قصر معين من قصوره لمن يثبت له أنه قانع وسعيد ، وانهالت الطلبات من كل إنسان : من الأغنياء والفقراء ، من المحرومين والمحظوظين ، من السعداء والأشقياء وأخذ الملك يستقبلهم واحد بعد الآخر وكل منهم يقسم جهد إيمانه أنه القانع الراضى السعيد : واستمهلهم الملك قليلا ريثما يدرس حالتهم بينما وقف الجميع ببابه يمنون النفس بالقصر العتيد . ثم خرج الملك عليهم فقال : أنه آسف إذ لم يجد بعد الرجل الذى يستحق أن يمنحه قصره . « ذلك انكم كلكم بسعيكم للحصول على هذا القصر أثبتم انكم غير قانعين »

وسنة الحياة أن نظل نكافح فيها ونجاهد ، تلهبنا الرغبة تارة ويسعدنا النجاح تارة أخرى .
وانا اليوم أشعر - ككاتب - بالسعادة كلما وجدت لرأى من آرائى صدى فى القلوب ، كلما وجدت أصدقاء لا أعرفهم يقرأون ما اكتب ويتحمسون لقراءته كما لو كنت صديقا لهم . . .
وان السعادة لتظل وهما من الأوهام مادمنا نتعلق بمطالب البدن والمادة ! ولكنها يمكن أن تكون حقيقية لو انصرفنا إلى نفوسنا واطمأننا إليها ، ولو سمونا بها عن مطامع المادة وروضناها على القناعة والحب والبر بكل الناس . . .

السعادة تصبح حقيقية لو جعلنا هدفنا أن نكون نوراً لظلام الآخرين وهناء لشقائهم . . . وكذلك لو تعلمنا أن ندفع نفوسنا عن شهواتها وأن ننتصر عليها ونخضعها ونجعل منها إداة لهنائنا وسعادتنا .

محمد زكى عبد القادر المحامى



حدثنى عن السعادة فقال : أنها حصول النفس على حالة سابغة من الرضاء والاطمئنا
ولكن النفس الانسانية لايشبعها فى الدنيا شيء ، فمطامعها دائما فى تجدد وكأن السعادة المط
مستحيلة ولا يمكن تحقيقها !

وانى أرى أن السعادة المطلقة ليست حلما ولا سرابا ، بل هى من الأمور التى قد نو
إليها إذا اصطنعنا أسلوبا خاصا فى تربيتنا النفسية . . . ففى الانسان قوة نفسية هى كنز كمين
لم نستغله حتى اليوم إلا بمقدار . . . وعلم النفس وما ماثله من العلوم تحاول أن تصل
مكنونات هذه القوة المغلقة الخفية . . . الا يسعنا أن ننشىء فى الانسان غريزة ؟ أى ان نر
منذ ولادته على أنه سعيد وان ليس ثمة باعث على الشكوى ! ؟ ألا يستطيع كل انسان ان يو
إلى نفسه أنه متمتع بهذه الحالة السابغة من الرضاء والاطمئنان ! ؟ أوهم شعورك أنك سع
وأنك مطمئن إلى حالك وكرر ذلك أياما فلن تلبث حتى ترى الدنيا مشرقة باسمة . . . وا
انتابتك لاقدر الله ، كارثة فحدث نفسك : كيف لى وانا رجل عاقل قوى العزم أن أدع ها
الكارثة تقهرنى ؟ لاعشت أن لم أقهرها ! هذا ما أعنيه بالتربية النفسية ، وبها اعتقد أنه يمكن
أن ننشىء فينا منذ طفولتنا « غريزة السعادة » . . . وذلك بأن توحى الأم إلى طفلها أنه سعيد
فيشب وقد اقتنع بواعيته الخفية وبما لقنته أمه إياه ويعيش راضيا لايشكو ولايتذمر... وبالتا
ننشىء شعبا لايعرف البؤس ولا الألم ولا الشقاء . . .

ياصديقى : لقد تكلمت فأفضت وما أرى إلا أنك تحدثت بما لانفهم . . . انك تود أ
تسلبنا نعيم الشقاء الذى يجعل للحياة متعة وبهجة ! ماذا يكون حالك لو أرغموك على أن تعيش
مع الورود ! الا تعاف طيبها وتكره نضرتها ثم لاتلبث أن تهجرها وتهرب منها . . . اترك ل
دنيانا ولا تحاول فرض غريزتك فتقتل فينا حب التطلع وروح المنافسة ورغبته المناقشة . .
اترك لنا دنيانا نهيم فيها مسوقين بتيارها الجارف فنسعد مرة ونشقى مرات ففى هذا نع
الحياة الحق !

محمود تيمور بك


البحث عن السعادة
للآنسة سنية قراعة

فى حضرة صاحبة الجلالة .. السعادة

على أرغن الليل ، كان الهدوء يوقع لحن الغموض السحرى فتتجاوب أصداؤه حول الأفق . فى رنين حلو يحيل الدنيا إلى همسة رقيقة كترجيعة عذبة يرددها كروان أهاج شجونه سكون الليل . . . وكانت الطبيعة وسنانة هادئة بين ذراعى الظلمة التى شملت الكون . . وأضفت عليه من الرهبة أثواباً صاغتها من شوارد الأحلام وعذب الأخيلة . .

وتعالى رنين النغم الساحر فتراقصت الأحلام النشوى وانعكس بريقها الذهبي فأضاء قلوباً عابسة وأضحك شفاهاً ماعرفت لذة الابتسام إلا بين أحضان الكرى . . .

وظل الأفق يردد أغنيته الشاعرة . . . والساعات تمر ذاهلة من حلاوتها . حتى بدأت الطبيعة تصحوا وبدأ الصبح الوليد يفتح عينيه ليرى فراشة الفجر وهى ترفرف بجناحيها الفضيين لتبعد النوم عن الأجفان المسدلة ، ولتداعب قطرات الندى التى باتت بين أحضان الأزاهير . . .

وكف الأفق عن عزف موسيقاه إذ أسفر عن نور الصبح البهيج . . . فى جنباته يفوح شذى الورود وينتشر عبيرها ، وفى سمائه تغرد الطيور الصادحة لتحية يوم جديد . . .

وخرج الناس فرادى وجماعات ، وتبعثروا هنا وهناك . وامتلأ بهم الأخضر واليابس . وعجت بهم الخضمات الشاسعة . . . فيم خرجوا ياترى . !!

ومن أجل من . . !؟

هناك . . . فى مكان خيالى ليس لعقل أن يصور موقعه . توجد ضالتهم . . . !

ضالتهم التى أفنوا زهرات الأعمار وما تبقى من سنين المشيب فى البحث عنها . . .

ساروا ، وساروا وضربوا فى المسير أعواماً وقروناً ولكن . . . هل وصلوا إليها . . . ؟ ! إن تلك الفاتنة التى تسكن كل قلب ، وتشغل كل عقل ؟ تلك الغادة التى يتمناها الطفل فى مهده ، والشاب فى ربيع عمره وزهرة حياته ، والكهل الذى قوست الأعوام ظهره وانحنت قامته تحت ارزاء الألم وأحداث الليالى . يريدها وهو يسير إلى مثواه الأخير . . . ؟ !

أين هى . . ؟ !

أين توجد مملكتها البللورية ذات الأضواء المختلفة الخلابة . ؟ أين توجد ؟

انها ترسل قبساً ضعيفاً من شعاعها السحرى فيملأ القلوب لحظة . . . وإذ ذاك يسير الكل على هداه ليصلوا إليها . . . ثم . . . لا تلبث أن تتركهم يتخبطون فى ظلام الواقع ،وفى دياجير الحقيقة . . . وتخب بهم المطايا بعد ذلك قروناً وقروناً دون أن يهتدوا إلى مستقرها . . . ؟

ويطول بهم المسير وكلما دب اليأس إلى نفوسهم . يبدو لهم الأمل الحلو فيجذبهم نحوه بنوره ويحدو البعض ويتخلف البعض الآخر . . . وهكذا يتلمسونها فى كل مكان . . . نعم فى كل مكان ؟

ياللعجب . . . أين أنت ياضالة العالم ؟ !

أفى حنايا القلوب تستقرين . . . ؟ !

أم فى قرارات النفوس . . ؟ !

أم فى صميم الأرواح . . ؟ !

أم فى أغوار العيون . . ؟ !

أم فى أهداب الجفون . . ؟ !

أنت فى كل مكان ! ! . . . وليس لك مكان ! !

ياضالة أفنت الدهور نفسها فى البحث عنك . . . ؟ وأفنى كل حىّ روحه وعقله فى العثور عليك . . . ولكن هيهات !

وأنت . . . ؟

أجل أنت . . . التى غمرت القرون بخيال منك . . . خيال من الضباب الذى تبدده أضواء الواقع . . . خيال من الظلمة يهرب مع مقدم النور . . .

أين أنت . . . ؟

ياضالة يرشدنا الأمل إليها . . . أين تعيشين ؟

إن الركب يسير إليك ، حمولته نفوس حيرى راغبة ، وأرواح عطشى كاد يقتلها الظمأ ، وقلوب كسيرة ، وعيون دامعة مقروحة ، ووجوه متجهمة ذليلة ، وأجساد مهدمة محطمة . . . إنه يسير ويسير وتمر الأعوام ، وتنقضى ، والركب ساع إليك . . . إلى دنياك الخيالية التى تحوطها الأحلام الغامضة ، والتى تقف دونها الأحزان والفشل والحقد والكبرياء والخديعة والجشع وسائر أكدار الحياة . . . ! !

ويظل الركب فى سيره طول نهاره يحدوه الأمل حتى ينشر الليل ألوية ظلامه ، ويتبعه ليل ثان وليل عام ثالث وقرن رابع ، وليل دهور ودهور . . . :

وتبيد شعوب وتتغير حضارات ويأتى إلى العالم أناس آخرون ولا يهدأ

لهم بال ولا يستقرون. بل يحاولون إتمام مابدأه الانسان الأول .. وهيهات ... ! ؟

الركب يسير هذه المرة وقد أقسم من فيه أن يتحدوا الموت والمقادير كى لايعوقهم شيء ليصلوا إليك ...

إليك أنت يامن تفيضين على الدنيا بطيوف ما تتمناه من إحساسك الهانىء ولذتك المقدسة ...

إنهم يسيرون إليك ... فطالعيهم واغمرى قلوبهم بنورك الخالد . أطلى عليهم لينعموا بك لحظة ... يذيبون خلال فتراتها الذاهلة أوصاب عمر طويل تقضى فى محن وشجون ولم يك غير ليل طويل متكاثف الظلمات ....

***

بدأت الطبيعة تغنى مرحبة بمقدم نهار جديد ... نهار مشرق بالأمانى مزدهر بروائع الأحلام ... وأطلت الشمس على عالمها الجديد ... دنيا مارأتها عين ولا سمعت بها أذن ... فقد انتشرت الأشعة الذهبية المتوهجة فانعكست على مدينة هناك ... تتموج فيها الخيالات والأبخرة المتلونة ...

هناك بعيدة عن العمران ... فى عالم آخر غير تلك العوالم الملموسة ... وفى مملكة نائية منعزلة يتوسطها قصر كبير على ربوة علوية .. شيدته الطبيعة من البللور والمرمر ... يتوهج الذهب على جنباته ويضىء الماس أعاليه ونكسو الفضة واليواقيت أرضه ... تحوطه جزيرة على شواطئها أشجار ونخيل يفوق ارتفاعها كبرياء الجبل ... تطل على نهر الجمال ... ويحوط القصر أسوار عاليه من الغاب كلما تخللتها النسمات يسمع لها حفيف عذب يغمر موسيقاه تلك المملكة ...

ومن داخل القصر كانت تشع أنوار مقدسة لو انعكس القليل منها على انسان لأحال حياته سلسلة متصلة الحلقات من الهناء والغبطة... وتساءلت الأرواح... أى مدينة هذه... وأى شعب يعيش فيها..؟!

إنها مدينة الخيال... حيث تحكم السعادة!!

السعادة...؟!

إذاً فقد عرفنا أرضها!؟

ياللركب السعيد... ستلقى به الأقدار إليها..؟!

أجل... هنا دنيا السعادة... ولكن... من يعرف مكانها؟ إنها تعيش هنا...

فى ذلك القصر الذى نسجت الأحلام مواده وأقامتها من البللور والمرمر والذهب والماس واليواقيت والفضة...

إنها تعيش هنا... ومن هذا المكان تنفذ أضواؤها لتنير ظلمات القلوب....

وتهامست الأرواح.... لم لاندخل القصر ونبحث عنها.... نريد أن نراها، وأن نفهم من هي؟ وكيف هى؟

ولكن... من أى باب. ندخل وللقصر بابان؟! لا بل ثلاثة... بل أربعة أبواب وكل باب يختلف عن الآخر...

انظروا.... فإن لكل باب إسماً خاصاً منقوشاً بالورود.... هيا نقرأ ما كتب على الباب الأول... وقرأوا...

« باب العقل » وكان الباب موصداً....

وساروا إلى الباب الثانى... وقرأوا:

« باب العاطفة » وكان أيضاً موصداً . . .

وساروا إلى الباب الثالث . . . وقرأوا :

« باب القوة » وكان الآخر موصداً . . .

ثم ساروا إلى الباب الرابع . . . وقرأوا :

« باب الخيال » وكان هذا الأخير مفتوحاً على مصراعيه ، وخلفه من الداخل كانت تطوف العذارى . . . ملائكة الآمال . . . فى ثياب تحاكى الثلج بياضاً . . . وهن ينشدن أغنية الحياة . . .

***

وعندما بدأت أضواء النهار توقظ الطبيعة من الوسن كانت هى — صاحبة الجلالة السعادة - تجلس على عرشها . . . عرش الخلود . . . المصنوع من السحب البيضاء ومن زبد المحيطات الصخابة وخضرة الأمواه وزرقة السماء وحمرة الورود وبياضها ، وكانت تحمل على رأسها تاجاً من النور وبين يديها قلب كبير ، وقد ارتدت ثوباً مزركشاً برسوم من الذهب الخالص . . .

وكان العرش يتأرجح بها على بساط من الزئبق . . . كانت تطيل إليه النظر مرات ومرات . لترى أضواء القلب الذى اختلطت فيه شتى ألوان العواطف ، وزانته جواهر لآمال ويواقيت الأمانى ، ومعادن الأحلام الغالية . . .

وكان لها ثغر جميل تلمع خلفه أسنان لؤلؤية وسحر عينين سوداوين كأنهما عينا سلطانة شرقية ، وجدائل شعرها مسترسله طويلة تضم بعضها إلى بعض أشرطة من الذهب والفضة . . . ظلت شاخصة ببصرها إلى الفضاء المجهول تطوف بعينيها فى البهو الرحيب الذى يتصدره عرشها . . . وإلى أرضه التى

كسيت ببساط أخضر انتثرت فوقه شتى الأزاهير ... إنه الدنيا على سعتها ، ولكنه كان يبدو ضيقاً أمام عينيها ...

نقلت بصرها وقد تولاها إحساس غريب لم تعرف كيف تحدده أو تصفه أو تضع له مسمى من عندها ... وأطالت النظر وهى حيرى .. إن الهدوء ليغمر هذا الاتساع الذى لا يحده بصر .. ! هى وحدها فى هذه المدينة ... ؟ !

أجل أنها تعيش فى عالم من الوحدة لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحد ... وأنها لوحدة قاتلة ! !

أنصتت قليلا إلى موسيقى غامضة تعزفها أيد غير منظورة .. إن أنغامها الشجية لتبعث إلى نفسها بعض الهدوء ...

.... وانفرجت شفتاها عن نداء ردد الصدى مقاطعه الراقصة ، فاهتزت الدنيا طرباً له ، وازداد إشراق الشمس ابتهاجاً به ، وازدهر كل ما فى الكون .. لما فى صوتها من عذوبة تملك السمع وتلهب العاطفة ... وكانت الأرواح تحسبها نشيداً ينبعث من كل مكان ، وكأن أغنية من السماوات رتلها الملائكة لاستقبال ملك كريم ...

من هذا الذى نادته ! ! ؟

إنه النور الذى يغمر القلوب الكسيرة ويبذر فيها القناعة والرضى ...

إنه الضوء الساطع الذى يدفع العالمين إلى التطلع إليه ورؤية دنياهم من خلال نوره لإجبارهم على حبها مهما بالغت فى تعذيبهم ...

إنه السد القوى الذى يحول بين عالم حىّ ... وبين آخـــر كل ما فيه موت وفناء ...

إنه الحبل المتين الذى يستمسك به صرعى الحياة ... يحاربون به ما اندفع إلى نفوسهم من يأس ...

إنه الملجأ الذى يحتمى به من صدمتهم الحقيقــة المفزعة... ويا سرعان مايثوبون...

إنه الأمل...

الأمل... هو الذى هتفت به ونادت... الأمل أنيسها الوحيد... ووزير مملكتها...

ولبى الأمل نداء السعادة... وسعى إليها يجيب سؤلها... جاءها، كعادته، متهللا مشرق الوجه... ترتسم على شفتيه ابتسامته الخالدة التى طالما ردت إلى الناس يقينهم المسلوب وأعادت إليهم ثقتهم الهاربة...

وقف أمام عرش مليكته. «السعادة» ينتظر... نظرت إليه نظرة عميقة متفحصة، خيل إليها مع طولهـــا أنها تراه للمرة الأولى... وردت عنه البصر شاردة مفكرة وقد ازدادت حيرتها... إنهما وحيدان هنا، وإنها لتحس وطأة الوحدة وسأمها... ولذا نادته... وهاهى ذى تراه يبتسم... ووجهه يفيض بالبشر والإيناس... وهكذا تراه دائماً... فهل يخفى سراً لاتعرفه؟ كان جديراً به، وهو وزيرها الأمين، أن يجعلها شريكته فى ابتساماته وسروره!!

ونظرت إليه ثانية وثالثة ومع تكرار النظرات وطولها كان يعبث بها العجب، وطغت عليها رغبة الكشف عن حقيقة أحاسيسه وكنه شعوره لعلها تهتدى إلى سر هذه الابتسامة الدائمة، فقالت:

السعادة: — ياصديقى... ألا ترى أنك غريب الطبع ... تضحك من لاشىء. وتفيض ابتساماتك بالنور فى كل مكان... إنى لأعجب إذ لا أعرف لضحكاتك سبباً ولا معنى... وانك لترانا نعيش هنا وحيدين. فلمن الضحك؟ وأى الأسرار تخفيها هذه الابتسامة

المشرقة !! ألا خبرني واصدقني القول ... أكشف لي عن السر في هذا الابتسام الدائم .. ؟

الأمل : — إنني أضحك وابتسم لهذه الوحدة التي تفردت بنا وتفردنا بها !

السعادة : — وهل فيها مايضحك ! أو هل تراها تستحق ابتساماتك .. ! أقسم لك أني برمت بها ، فهي دائماً ظلي الذي لايفارقني ... أراها تحيطني دائماً ، بل أراها أشبه الأشياء بسجن أبدي لي ... إذا ابتسمت ردت عليّ ابتسامتي ... وإذا ضحكت جعلت صدى الضحكة يرن في أذني ... إنها تسمعني نفسي ولا تريني سواي !!

الأمل : — أنني على العكس ... لا أرى إلا في الوحدة ... ومن خلال سكونها تبدو أطياف ابتساماتي ويتردد صدى ضحكاتي ... إنها رسولي الذي أحبه أحياناً وإن كنت أكرهه في بعض الأحايين .

السعادة : — بئس الرسول هذه الوحدة .. كم أكرهها ..

الأمل : — ذلك لأنك لاترينها كما أراها ... ولأنك ترين فيها سجناً أبدياً لك ... ولكني أرى فيها الممر القويم الذي يوصلني إلى عالمي ... إلى دنياي التي أطالع منها الناس ... وأهبهم ابتساماتي ونوري الباهر الذي يرفه عنهم قسوة الحياة ... ويعينهم على تحمل مسئولياتها ... ويبعث فيهم القوة ويجدد فيهم العزم والهمم .

السعادة : — عالمك !! .. دنياك !! .. أين دنياك هذه ؟ ومن هؤلاء الذين تتحدث عنهم ؟ وما سر هذا العالم الذي يحتاج إليك لتبعث القوة في أهله ... ويجعلك ترى في الوحده شيئاً هاماً ضرورياً لك ... محبباً إلى نفسك !؟

الأمل : — نعم . ان لى دنياى يامولاتى . . . عالم يزخر بالقلوب الكسيرة التى هدمتها تصاريف القدر . . . وبالنفوس التى حطمتها معاول مسئولية الحياة . . . فإن قلت لك ان الوحدة هى طريقى إن هذه القلوب . . وهى الممر الذى يقربنى إلى تلك النفوس . . . إن قلت لك هذا فلأن الأخيلة والأمانى لا تتوارد ولا تراود الأفكار إلا فى ساعات الوحدة . . حيث تتجرد النفوس من قيودها وتنساب إلى وادى أمانيها وخيالاتها . . . وقد تكون هناك فواجع وآلام وكوارث تجبر على الانفراد . . . وخلال هذه اللحظات ، التى قد تكون حاسمة فى حياة الفرد . . تبدو ابتسامتى . . . بل قد أغالى فى تصوير احساسهم بى حتى ليكاد يخيل إليهم انى معهم . . . يرانى المحزون فى وحدته ، واليائس فى يأسه ، والمنكوب بعد نكبته ، ومن فشل فى عمله أو تجارته ، ويستنجد بى من قعدت به همته ، وكل هؤلاء يتطلعون إلىّ . . . وأنا مطمحهم ومرمى أفكارهم ومنتهاها . بل أكاد أكون كل شىء لهم . .

السعادة : — أى قول عجيب ! ولماذا يهفون إليك ويرتجونك . . ؟

الأمل : — لأنى أحررهم من آلامهـــم . . . وأنتقل بهم إلى عالم سحرى غير عالمهم . . . أتفنن فى عرض أزهى الصور وأعذب الأخيلة التى تبعث فى نفوسهم السكينة والهدوء . . . أبدل أفكارهم القاتمة بأخرى مزدهرة ، أحبب إليهم الحياة فأعرض بين أيديهم فى خيالاتهم كل ما يتمنون ، فينسى كل منهم ما كبلته به الأيام من محن وما قاساه فى حياته من أشجان . . . أخفف عنه لوعته ويأسه وأفسح له ضيق الأمانى وأملأ روحه بقوة منى تعينه على المضى ليحقق ما رسمته له . . . أتنقل به خلال الرياض فيستنشق

عبير ورودها ، وأعرض عليه كل ما تتوق إليه نفسه من غنى أو جاه . . . أعلو به إلى النجوم وأجعله يعيش بين الملائكة والحور ، وأظل وإياه فى رحلتنا الخيالية فلا يرى إلا ما هو حبيب إلى روحه . . .

السعادة : — إذاً . . . فى هذا العالم الذى تتحدث عنه يعيش أناس كثيرون ؟

الأمل : — كثيرون ! ! أنهم ملايين تتكدس فوق ملايين . . . أناس لا حصر لهم ولا عد .

السعادة : — أتعنى أنهم ينكرون فضلك عليهم ولا يعترفون به ؟

الأمل : — كلا ! بل أعنى أنهم أحبوا ابتساماتى . . . فلأنهم يرون فى ما رأيت أنا فى الوحدة ، يرون فىّ الذى يوصلهم إلى ضالتهم . . . إلى ما هو أسمى منى علواً وقداسة . . . إلى صورة نورانية تطالعهم وهم مسلمون نفسهم إلىّ . . . أنهم يتخيلونها دائماً ويتوقون إلى رؤيتها . . .

السعادة : — ومن تكون ضالتهم هذه . . ؟ !

الأمل : — هى أنت يامولاتى . . . أنت ضالتهم التى أفنوا زهرات الأعمار فى البحث عنها . . . إنهم فى انتظار مقدمك يامولاتى . . .

فأجابته وهى دهشة بهمسة كرجع الصدى :

— أكاد لا أفهمك . . .

الأمل : — مادامت هذه الحجب الكثيفة تغطى نوافذ قصرك ومنافذه فلن تفهمى حديثى عن هؤلاء المساكين من صرعى البحث عنك ؟

السعادة : — وماذا تريد أن أفعل ! ؟

الأمل : — تنازلى عن عزلتك يامولاتى واتركى عرشك واتبعينى لحظات ... سأطلعك على كل شىء ... سترين موكباً يمر بالعالم لم أجمع ، وستشاهدين ركباً مختلف الأجناس متباين الأخلاق متفــاوت الأعمار ، ... ركبا صحب الدنيا وليدا وعاصرها شابا ، وهاهو ذا يسير إلى جانبها عجوزا دون أن يمل ... ركبا ما تطرق اليأس إلى من فيه لأننى هاديهم ومرشدهم ... إنهم يعرفونك يامولاتى تمـام المعرفة ويجهلونك كل الجهل ... يعرفونك لأنى رسولك إليهم ، ولأنهم منك يقبسون العزم والجلد ولأجلك يخاطرون فى الحياة ... ويجهلونك لأنهم لايدركون عالمك ... وأنت ... أنت يامليكتى لا تعرفينهم ! ؟

السعادة : — يعرفوننى ولا أعرفهم ! ياللقول العجيب . . أكاد لا أومن بقولك أو أصدقه حتى أرى بعينى وأسمع بأذنى ...

الأمــل : — إذن تعالى معى ...

السعادة — إلى أين ؟ أننى أرغب فى مشاهدة ماتريد أن تطلعنى عليه دون أن أفارق مكانى !

الأمل : — لا يمكنك يامولاتى أن ترى من مكانك شيئا ... ولن يصل إلى سمعك وأنت فوق العرش هتاف أو دعوات ... تعالى معى إلى العـالم الذى خلق لك ومن أجلك ... هو فى سبيلك يسعى ويجد ويستهتر بالكد ويستهين بالتعب ولا يعبأ بالأخطار ... تعالى ... تعالى .

وتبعته السعادة فاتنة الأجيال وهى شاردة مأخوذة بسحر حديثه ... وسارت على طنافس من المخمل الأحمر المحلى بالأزهار البيضاء وهى تفكر فى هذا

العالم الذى قيل أنه يعرفها وهى لاتعرفه وأنه يعشقها وهى لا تحس به . . . وأنه يستصغر الأحداث والأهوال ليفوز بها . . . وهى لاهية عنه لهوا جعل اليأس يكاد يسكن قلبه . . . ثم قالت :

السعادة : — إلى أين تسير بى .

الأمل : — إلى شرفة الحياة . . . إلى العالم المجهول . . .

السعادة : — أخشى عالمك هذا . . . أخافه وأرهبه .

الأمل : — ليس هناك يامولاتى سبب لهذا الإضطراب والخوف . . . تعالى . . . هذا منظار الأبد يسهل عليك رؤية دنيا الناس . . . دون أن يراك أحد . . . فانظرى به إلى عالمى من خلال ستائرك . . . ستشاهدين وجوهاً متباينة المشاعر مختلفة الأحاسيس ، وجوهاً مستبشرة وأخرى متجهمة . . . وستسمعين هتافات الفرح وآهات الألم . . . وما يقولون . . .

السعادة : — أحب قبل كل شىء أن تقص على قصة هذه البشرية

الأمل : — إن قصة البشرية هى . . . زواج ، وتناسل ، وموت . . . قوامها إثنان — رجل وامرأة . . . خلقا فى الأصل من طينة واحدة شطرتها الطبيعة إلى قسمين ، وفصلتهما انسانين كل منهما يكمل الآخر . . . فالرجل ، الشطر الأول منحته الطبيعة من القوة والخشونة ما يمكنه من استضعاف الشطر الثانى ليكون قواما عليه ، والشطر الثانى وهو المرأة ، وهبتها الطبيعة من الجمال والسحر والروعة ما يمكنها من استضعاف الرجل فسهل عليها أن تسلبه قلبه وأن تجذبه إليها وتخضعه لرغباتها . . . وكل منهما لا يطيب له العيش ولا يسعد إلا بالآخر . . ، ولكن القدر الساخر . . .

يأبى أن يجمع بين اثنين من طينة واحدة . . . وسرعان ما يدب الخلاف بينهما ، ويسير كل منهما فى طريق يحاول البحث فيه عن نصفه الآخر . . . ومن هنا ينفذ إليهما الشقاء ويتبين لهما أن كليهما لم يكن لصاحبه ، فنجد الرجل هائماً فى البحث عن نصفه المفقود . . . وقد تلتقى المرأة برجل آخر تميل إليه فتظنه نصفها الذى خلقت له . . . وهكذا تبدأ الحادثات . . .

والناس يامولاتى تنقسم إلى طوائف وعشائر فالأرض واسعة ومتجزئة وقد اختارت كل طائفة من الناس بقعة من الأرض تسكنها وتنظمها وتستغلها . . . واطلقوا عليها اسم الوطن . فنشأت بذلك الممالك أو الدول كما يسمونها . . . وقد تكون لإحداها من المنعة والقوة مايمكنها من غزو جارتها والسطو عليها لثأر قديم أو حقد أو غيرة ، وإن كانوا يتذرعون بأسباب تتضاءل كلها وتختفى أمام حب السيطرة وشهوة الاستعمار والرغبة فى التوسع والاستغلال والسيادة . . .

وإذا ما أعلنوا الحرب باسم الوطنية المظلومة والوطن البرىء هبوا مدفوعين بما يسمونه الواجب وزحفوا على الوطن الآخر وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ورملوا نساءه ويتموا أطفاله وسقوا الأرض دماء بنيها . . . وصاحوا بعد ذلك فرحين مهللين وهم يسيرون على أشلاء قتلاهم فخورين تغمرهم نشوة الفوز والانتصار . . .

فصاحت السعادة بألم :

ــ ياللقسوة والظلم . . .

وتابع الأمل حديثه يقول :

ــ ولو نظرت يامولاتى إلى كل من هؤلاء نظرة إمعان وتعمقت فيها إلى

قرارة أفكارهم لوجدت له قصـــة غريبة جديرة بالعطف
والإشفاق . . . قصة أبدية فى أوضاع وأشكال تختلف قليلا
ولـكنها تتحد فى هدف واحد وتسعى إلى غاية واحـدة . . . هى
السعادة . . . هى أنت يامولاتى . . ؟

السعادة : ــ أنا . . . ! ؟

الأمـل : - نعم أنت . . . وحتى هؤلاء الذين تتهمينهم بالقسوة والظلم هم أيضاً
ينشدونك وهم من أتباعك ومحبيك . . . ويعـدون انتصارهم فى
المعركة سعادة . . . وهم فى حروبهم إنما يبتغون الوصول إليك ،
وبفوزهم يحققون أحلامهم ورغباتهم . . .

وأمسكت فاتنة الأجيال منظار الأبد بين يديها وهى دهشة ،
وراحت تنظر فيه وهى تنصت إلى الأمل وهو يتحدث ويهمس
ويبتسم ويضحك . . . وقد رفع يده آمرا الركب بالمسير . . .
وتحرك الركب الصاخب الزاخر والناس بين مقتصد فى خطواته
أو مسرع فيها . . . وهمس الأمل وهو يشير إلى البشرية التى
تزخر بها الأرض فى كل مكان . . .

الأمـل : ــ أنظرى يامولاتى إلى هؤلاء البشر . . . وكيف تحملهم الحياة من
مكان إلى مكان . وتعبث بهم المقادير من لحظة إلى أخرى ،
وتتلاعب بهم اهواؤهم وكلهم لايرون ولا يحسون إلا بما يقف
عثرة فى سبيل سيرهم إليك . . . ولا يهتمون إلا بازالة هذه العثرة
وتحطيم العقبات التى تحول بينهم وبينك فيقضون الأيام والليالى
باحثين عنك . .

« أنظرى يامليكتى المحبوبة إلى أبالسة الشقاء وكيف يقيمون
ويقطنون فى كل مكان بين النـاس ويندسون بين الأسر . . بين

الوالد وولده والأم وابنتها ، والزوج وزوجه والأخت وأخيها ... وأنت هنا حبيسة هذا القصر بعيـدة عن هؤلاء المساكين الذين لايبغون من الحياة إلا الحصول عليك ... وأن أرشد الايمان أحـدهم إلى الطريق المؤدى لقصرك . حال دونه الشقاء وغالطه ...

« تأملي يامليكتي خفايا البشر .. وأنظرى إلى هذا العراك القائم بين أبالسة اليأس وملائكة الآمال ... ان هذه الآمال وحدها بابتساماتها تجمل الحياة لبنى الإنسان ...

« أنظرى يامولاتى إلى اليـأس الذى ما استضعف نفساً إلا وسكن إليها ...

« أنظرى أيضاً إلى هذه الحرب القـائمة فى قلوب البشر بين الحب والكراهية ...

« وأنظرى إلى هذا الصراع العنيف بين النـاس من أجلك ... أنك لن تحصى عدد من ذهبوا ضحية البحث عنك وفى سبيلك ... فقد ملكت القلوب واستعبدت النفوس وتركت الأرواح تهيم بين الحقيقة والخيال باحثة عنك ...

السعادة : — انى أرى الأرض منبسطة أمامنا كالصفحة وأرى الانسان لايحسن خطواته عليها ... فهو يسير فى طرق عدة ولا يستقيم فى سيرة ... فقد عميت بصيرته وساءت تصرفاته فهو لايرى الطريق الممهد ... بل يرى الطريق المعوج ويسير فيـه ... وهاهو ذا يسقط تارة ويصدم أخرى ..

الأمل : — وماذا يفعل وقد أعمى الشقاء بصيرته .. ؟!

السعادة : — ولِمَ يصاحبه ؟

الأمل : — لأنه لايرى منه إلا الطلاء الخارجى فيظنه أنت . . ؟ !

السعادة : — وماذا أفعل لهؤلاء . . .

الأمل : — أخرجى إليهم كى تكتحل أعينهم بنورك فيبصروا . . . لاتتركيهم يتخبطون فى ظلمات الحياة . . . انقذى البشرية المعذبة . . . طالعيهم بنورك وأبعثى إلى أرواحهم بقبس من أخيلتك ، واملأى الدنيا بصدى أغنيتك الغامضة . . . انك النور الطاهر الذى يبزغ من ضمير الغيب . . . فكونى ضيف خلود فى الأفئدة لتسمو بك فوق منازع الأهواء والرغائب التى تضطرم فى عقولهم وأجسادهم . . . يارسول السلوان من العالم المجهول بددّى دجنة حلت فى القلوب وانقذيها من الأكدار . . .

السعادة : — ألا تكفيهم أنت . . . ؟

الأمل : — أنا ؟ ؟ ؟

السعادة : — نعم أنت

الأمل : — ليس على يامولاتى سوى تحقيق بعض رغباتهم التى كثيراً ماتكون ضارة بهم ولكن ماذا أفعل . . . يروننى فيسيرون إلى . . . وهم لاينشدوننى إلا من أجل الوصول إليك . . . فهم يعلمون انى وزير مملكتك ويظنون أن فى استطاعتى ارشادهم إلى قصرك . . .

السعادة : — شد ما أخشاها دنياك هذه . . .

الأمل : — يالدنياى المسكينة التى يعيش من فيها وسط ظلمات يرقبون من خلالها قبساً من شعاعك السحرى . . . وآسفاه يامولاتى الضنينة سيطول بهم الإنتظار وسيظلون فى تلك الدياجير ينادونك ودون

جدوى .... ستحمل النسائم أصداء صرخاتهم التى لن تصل إليك مادمت متصامة ... لست أدرى كيف أستطيع أن أحرك العطف فى قلبك بعد أن عرضت عليك هذه الصور جمعاء ... هل أعرض عليك صوراً أخرى أشد تعاسة من سابقاتها وفى رؤياها ما يدمى القـلوب ويوقظها فتشعر بشعور البائسين وتحنو عليهم ... ؟!

هاك أنظرى ... هذه الكومة البشرية الملقاة فى إهمال لا يلتفت إليها أحد ولا يحس بوجودها إنسان ... إنهـا امرأة ... أجل امرأة لم ترض أن تعرض فى سوق الرقيق جمالها وفتنتها وآثرت أن تطعم صغارها مستجدية الناس ... جسدها الرقيق يرتعد من عبث برد الشتاء به وهى لاهية عما يصيبها لاتفكر إلا فى ذلك الصغير الذى ضمته إلى صدرها الشبه عارى تدفئه بوهج أنفاسها وحرارة حنانها ... إنها ترفع بين الفينة والفينة وجهها إلى السماء ضارعة فى الوقت الذى وقف فيه أمامها رجل ...

لجمالها فتنة يامولاتى استوقفت ذلك الرجل فاقترب منها وفى نفسه مافيها ... ها هو ذا يدفع ماجادت به نفسه الحيوانية فى يدها ثم ينحنى ليهمس فى أذنها بضع كلمات أثارتها فتنمرت وزاد التصاقها بالصغير النائم على صدرها ... الشرر يقدح فى عينيها وانها لتلقى فى عرض الطريق بما دفع الوحش الآدمى قائلة له ... إنها سعيدة فى شقائها لاترجو سوى رضاء الله

يامولاتى القاسية ... أليس فى هـذا المشهد ما يلين صخرية قلبك ويشعره ببعض الحنان من أجل شقية صرعتها المقادير العاتية فى ميدان الحياة ؟!

انك إذ تنفذين إلى روحها فانما تنتقلين بها من عالم إلى عالم . . .
خذى يدها وسيرى بها من دنيا يخيم فى سماؤها البؤس إلى حيث
عالمك البهيج لتسعد وتسعد أطفالها . . .

السعادة : — وبعد . . . ! !

الأمـل : — لا أدرى كيف أستثير إشفاقك وحنانك . . . أنظرى . . . هـذه
امرأة أخـــرى . . . من « طينة » تغاير السابقة . . . لا تغترى
بضحكات الألم التى ترسلها فتلعلع فى كل مكان ولا برقصات
الطائر المذبوح التى يهتز بهـــا جسدها الثائر الحانق على الرجال
. . . إن فى صدرها قلبـــا مليئاً بالـكراهية والحقد وانها لتحس
ثورة وطغياناً على بنى البشر الذين أجبروها على الوقوع فى
ذلك المنحدر الرهيب . .

إنها إحدى ضحاياك . . خرجت تبحث عنك فوقعت فى شرك
ذئاب البشر الذين زينوا لهـا السير فى طريق الغواية والضلال
لتتلاقى وإياك . . . إنها ترفع الـكأس لتشرب عصارة الـكروم
كى تحرق بنيرانهـا إحساس البشرية فى قلبها فتعيش وقد تخيلت
نفسها نمرة مفترسة ضارية . . . فقدت السعادة فـكرهت الدنيا
ومن فيها وراحت تتخيل نفسها برغم البؤس والشقاء . . سعيدة .
بتعاستها انهـا لا تتمنى الآن أكثر من أن تعيش ليلة واحدة فى
هدوء ودعة بعيدة عن الـكأس والرجال . . .
من قال يامولاتى ان الاستقرار فى الصخب والتنقل ؟ ! إنهـا
ضحية قدمت نفسها قربانا على مذبحك فلا تتركيها فى العراء تلوك
لحمها أنياب ذئاب الليل . ظلليها بعطفك وارتقى بها إلى الدنيا التى
كانت تحلم بها . . .

السعادة : — وشيء آخر ؟ !

الأمل : — بل أشياء وأشياء . . . صور رؤياها تذيب القلوب . . . ألك فى صورة ثالثة . . . لاتهتزى غضباً واشفاقاً وليست هـذه الشهقات التى تسمعين إلا صدى ضالا لشتى أحاسيس تضطرم فى قلوب متغطرسة تؤثر الكتمان على الحديث . . . يالدموع هذه الفتاة . . كانت عذراء يتلألأ على مفرقيها تاج العفة . . أنصتت فى جوف ليلة حالمة إلى همس منافق راح يسكب فى أذنيها ساحر لفظه ومعسول وعوده فتبعته . . وعادت التعسة يامولاتى من رحلتها العاشـــقة لتجد نفسها وقد فقدت كل شيء . . .

إنها الآن تبكى وترتد دموعها على القلب فتحرقه . بسيول من وهج الاستغفار والندم . . !

وانظرى أيضا . . هذا الشباب الحى . . هذه الرجولة مسرعة فى طريق الذبول . . هذا الذى يجد اللذة فى الانتحار البطىء ليخلص من حياته . . الكأس تلو الكأس . . . إنه تعس فليست هذه وسيلة النسيان بل هى الطريق الذى يسرع به إلى النهاية الأليمة . . أيها المسكين تسامى . . . تعالى عن الحاثادت . . ارتفع بنفسك فوق سياج البشرية وكن ملكا . . انه لايسمع يامولاتى فقد دهمه اليأس ولا أستطيع أن أنير ظلمات روحه . . مسكين فشل فى حبه فراح يقضى الوقت متلذذا ! وهو يقتـــل إحساسه فى كل لحظة آلاف المرات . . ما الذى يحتاجه هذا المسكين ؟

السعادة : — ستقول دون شك أنه فى حاجة الىّ ؟ ! لا ياصاحبى أننى أرفض . . . دعنى من صاحبك هذا . . هل من جديد . ! ؟

الأمـل : — انك لتجعلينى أكبر فى عينى هؤلاء الناس من صرعاك إذ يتحملون صابرين هذا الدلال الذى تبدينه دون أن يفـكر واحد منهم فى تحويل ناظريه عنك . . . ألم تجدى فى هذه الصور مايكفى ؟ ! كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يصلوا إليك أو يحركوا كـمين نفسك ؟

السعادة : — لا أدرى ما داموا دائبين على التمسك بهذه الصور الباهتة من صور الاستجداء . . . ياوزيرى الضاحك المنبسط الأسارير . . أليست لديك صور أخرى ؟ !

الأمـل : — أنظرى إلى غنىّ أتعسه المال وباعد بينه وبينك ؟ !

السعادة . — كيف ؟ ! سمعت فيمـا سمعت أن فى وسع هؤلاء الناس أن يشتروني بالمال ويحصلوا على عن طريقه ويحققوا به كل رغباتهم ، ومآربهم وبه يشترون الضمائر والأجساد والأقلام . فيمكنهم ذلك من التمتع بجاه براق ويسبغون على أنفسهم ألقاباً طنانة فيسيطرون على غيرهم ويذلـون من ضعف .

الأمـل : — هذه هى الأخيلة الكاذبة التى يتعزى بها الفاشلون . . . فلو عرفت الحقيقة لوجدت الغنى داء والمـال نقمة وان دولته لا تطول ولا تدوم ، وإن هناك من يكرهه . . . أنظرى إلى الذهب البراق وقد تـكدس . . . وهذه الضياع الواسعة وقد امتلأت بالخير وحلو الثمر . . . النخيل باسق والأنهار عند أقدام الحقول . . . أية حسرة تملأ قلب صاحب هـذه الجنـان الفسيحة والأموال المكدسة؟ رجـل هدمته السنون فهو فريسة من فرائس المرض والشيخوخة الرهيبة . . . أسبغ الله عليه نعمة المال وحرمه نعماً أخرى عديدة . . . لقـد فقد البصر فهو فى تيه من الظلمات

المتكاثفة البشعة لا يعرف أين هو . . . بل أنه ليرى فى الطفل الصغير الذى يأخذ بيده مخنوقاً أكثر منه سعادة لأنه يرى مباهج الدنيا بل . . . يرى واسع أملاكه وما حوته من خيرات دون أن يستطيع هو ذلك . . . وفوق هـذا فهو أقطـع لا ولد له ولا بنت . . أى تفكير رهيب ذلك الذى يشغله على الدوام . . . لا ولد ولا بنت ! ! لا وريث تؤول إليه هذه الممتلكات الشاسعة التى سيغتصبها من كرهوه من الفقراء من أهله وذويه . . أؤكد لك يامولاتى أن هذا الرجل يتنازل راضياً عما يمتلك لماء إحدى النعم التى فقـدها . . ويؤثر ألف مرة أن يعمل أجيرا فيأوى فى نهاية نهاره إلى كوخ عند طرف إحـدى الجداول ينام فيه ملء عينيه ولا يحب أن يبقى على الحال التى هو فيها . . أن كراهية الذهب قد نمت فى قلبه . . وأن حب ماحرم منه شاغله ومؤرقه ...

السعادة : — لا يمكن أن تجـد الوضع الكامل فى هذه الحياة . . . ويجب أن يسود الناس قانون الخير كما عليهم فى ذات الوقت ألا يكرهوا سيادة قانون الشر والبلاء . . . ماقيمة هذه الحيـاة ان لم يجدّوا فيها ويذوقوا المر قبل التفكير فى نوال الحلو ؟ ! ويل لطلاب السعادة هؤلاء يريدونها لقمة سائغة وهم غرقى فى أحلامهم البعيدة التحقيق . . . الله يعطى على قدر من يهب له ، وليس لنا أن نتدخل فى هذه الأوضاع . . . إن الصور التى تفننت فى عرضها صور باكية تثير الإشفاق والحزن ولكنى أرغب فى رؤية صور أخرى . . . وأود سماع أصواتهم من دون تعليق منك على ما أرى وما أسمع . . . انك تدافع عن عالمك وتدّعى أن الشقاء يهزمهم ويندس فى كل بقعة فيه . . . وتطالبنى بالخروج إليه وتعرض علىّ الصور

الحزينة ... بينما أرى المرح يملأ دنياهم ... والحدائق الزاهرة تزين طرقاتهم ... وأرى الصفاء والبشر والسرور يعلو وجوههم ... انك تطلعنى على ناحيـة البؤس والشقاء دون أن تطلعنى على ناحية المرح والسرور لأحيط بدنياك علماً .

الأمـل : ــ مولاتى ... إن هـذه الضحكات ... فى تجاويفها ورناتها الأسى والشجن !!

السعادة : ــ حتى الضحكات !!

الأمـل : ــ نعم ... إنها ضحكات كاذبة باهتة فقدت حيويتها وحياتها ... إن رنة الأسى تغلب رنات السرور ، وصيحات الفرح تعـــدل صرخات الشجن ... انصتى ياغادة الأجيال الرائعة الحسن يامن انقضت أعمار العالمين وهم يتغنون بك ويحلمون بيوم لقاك ... قلت يامليـكتى انك تريدين بعض الصـور الضاحكة السارة ؟! وإن شر البلاء مايضحك ... وما أقساها رقصـــة الطائر بعد مرور النصل على عنقه ... إضحكى معى سخرية وإشـفاقاً لهذه الجماعة الصغيرة ... إنها إحـــدى الأسر التى يطلق المجتمع على أفرادها « الطبقة العالية » أتسمعين ضحكاتهم المدوية ... إنها ضحكات الخداع والزيف ... أنا الذى يخرجها من صدورهم ويجبرهم على إرسالها طروبة رنانة ... أنا الذى أبدو أمامهم ببريقى وسط الظلمات فتبعث الفرحـــة فى نفوسهم السكرى بخدور مصائب الدهر ... إنهم يرددون أصداء ضحكاتى أنا ... نور ابتسامتى الإلهى هو المنعكس على وجوههم الشاحبة فيخيل لمن يراهم إنهم سعداء .. الأب يضحك والأم يغمرها السرور والفتاة

فى لجة من أحلامها . . . يافرحة الخديعة ألا يجود الزمن بيوم تصبحين فيه حقيقية لازيف فيك ولا طلاء يحجب حقيقتك ! !

السعادة : — ياجامع النقائض . . . أى حديث غريب هذا الذى تسوقه إلى سمعى ؟ ! إن القوم فى فرحتهم خاضعون لقانون السرور الأبدى وإن الناس لينظرون إليهم نظرات الغيرة . . . والحسد . . . فكيف تصور لى صورة غريبة عن تلك التى أراها . . . أهناك سر . . . وهل الواقع بخلاف مانراه ؟ !

الأمل : — بل أن الواقع لأشد ألماً مما تتصورين . . . قصة باكية . . . أسرة ماعرفت سوى النعيم . لعبت بها المقادير وعبثت بها الأيام وهى مازالت أشد ما تكون تمسكا بتقاليدها . . . ليس لها سوى هذه الإبنة التى ترين . . . فورثت الاسم العريض الطنان الذى كفل تكاثر طلاب المنافع وهواة الشهرة . . . ستتزوج الشابة الجميلة ذات الحسب ، والزوج الشاب طامع فى كل شىء . . . ولكن . . . الحقيقة الرهيبة تختبىء خلف هذه الضحكات . . . إنها الطلاء الزائف يخفى الحقيقة عن العيون . . . لقد تحرج مركز الأب فى سوق المضاربات المالية وكاد يفقد ما أورثته الأجيال إياه من ثراء ومجد وهاهو ذا يصطدم بصخرة الواقع المثير للبكاء . . .

« إن الشابة العزيزة فى طريقها إلى بيت رجل يتخيل أن الأسرة مازالت على قديم عهدها ، ومن واجب الأب أن يظهر بالمظهر الذى تخيله الزوج السعيد ، وأن الصغيرة العزيزة تتمنى وتحلم وتعتقد أن أباها على كل شىء قدير . . »

« ما العمل !! الأب ينزل عن بعض كرامته ويطرق باب المرابين . . . وتذهب الأم إلى بائع الجواهر فتستعيض عن

ماسها بآخر زائف ، ومن رهن العقار وبيت الأسرة وبيع جواهر الأم . . . تشترى مطالب العروس حتى إذا ذهبت إلى بيت الزوج لايجد المتقولون فى حاجياتها ومظاهرها ماينقص من كرامة الأسرة وجاهها . . . »

« وتم كل شىء يامولاتى وهاهم يضحكون . . يضحكون ليستروا آلامهم ويقنعوا الناس بأنهم سعداء . . . غارقون فى بحورك لايتمنون أكثر مماهم فيه . . .

هذه صورة ضاحكة يامولاتى . . . .

السعادة : — أى عجيب ! !

الأمل : — وسترين الآن أكثر من هذا وأعجب . . . سنقترب من الناس . . . وستسمعى أحاديثهم وترينهم عن قرب امسكى المنظار أنظرى منه واسمعى . . . ستمر عليك صور مختلفة من صميم الحياة . . .

***

« امرأة عجوز مسرفة فى زينتها وإلى جانبها شاب فى ريعان صباه »

الشاب — معبودتى . . .

المرأة — لم أعد أصدقك . .

الشاب — إذا فمن تصدقين يافاتنة . . . إن قلبى الذى أثمله خمر حبك ليخفق راجياً أن تذكرى بعاشقك رحيمة

المرأة — والأقاويل التى سمعتها . .

الشاب — انهم يكذبون . . . يغارون من سعادتنا . . . لا تعبسى فانى

أخشى أن أفقد البقية الباقية من نور الأمل ... انك السعادة بالنسبة إليّ ...

المرأة — أنك تخدعني ...

الشاب — أنا ... أنا الذى كنت ضالا فى مجاهل الحياة قبل أن أهتدى إليك ؟ .. أنا الذى أرى فيك دنياى الحبيبة ... أنا الذى ظللت هائماً أعواماً قاسية حتى عثرت على سعادتى فيك .. أنت سعادتى وسرورى .. أنت كل شيء ...

المرأة — أنت !! أنك لساحر تذيب « صخرية » الفؤاد ...

الشاب — عزيزتى ... تعالى بين ذراعى .. سأرتفع بك إلى عالم شباب تسعدين فيه ...

المرأة — إن سعادتى فى قربك أنت .. فتعال ولنهجر الناس لنعيش سوياً فى بقعة مهجورة لا أرى فيها غيرك ولا تقع عيناك على سواى ...

« يخرجان »

فتنظر السعادة الى الأمل تستفسره مارأت وتزداد ضحكته وهو يقول :

الأمل — انتظرى فانك لم تر البقية ...

*
* *

« يعود الشاب وفى يده قطع ذهبية عديدة »

الشاب — ويل لهذه العجوز المجنونة ... انها تصدق أقوالى وتظننى أحبها ... إن قلبى الفتى وما حواه من حب وهوى ، أدخره لفاتنتى الشابة لأهبه إياها فى الوقت الذى أحقق فيه آمالى ، وأظفر فيه بما تمنيت ... ما أسأم هذه الحياة وما أقسى أكدارها وما ألاقيه فيها ... متى ..

متى تسعدنى أيامى الظالمة ؟ متى استشعر السعادة فى قلبى التعس ؟ . . متى أتذوق طعمك المقدس أيتها السعادة . . . يخيل إلىّ أنى لن أظفر بك ولن أراك إلا فى بيت صغير يضمنى وملاكى المحبوب . . . سأراك ياسعادتى فى وجهها الملائكى وأسمع همساتك تنساب حالمة من بين شفتيها . . . أيتها السعادة . . . سأفنى العمر لأصل إليك . . . فهل سأظفر بك مرة وليكن بعدها مايكون ؟ !

***

« فتاتين فى الحلقة الثانية من عمرهما »

الأولى — ليس هناك مايدعو إلى الجزع ياصديقتى . . .

الثانية — كيف ! !

الأولى — أعنى أن تظهرى بمظهر القوية التى لاتهتم

الثانية — يالك من مجنونة . . . أو صدقت ما أبديته ؟

الأولى — إذاً . . . كنت تلعبين دوراً . . .

الثانية — وأظننى أجدته . . .

الأولى — كل الإجادة . . . لقد صدّق التعس انك تحبينه وذهب والدنيا تكاد لا تسعه من فرط سروره . . . انك جعلته يرى السعادة الحقة وأخذت بيده إلى مروجها الخضراء . . .

الثانية — ولو فكر قليلا لردّه تفكيره إلى الواقع الأليم . . . ما أجمل الخديعة . . . أننى أرى فيها أسرع الوسائل لنيل ما أبغى . . . سعادتى لا وصول إليها إلا بالخديعة . فهى سلاحى وعدتى . . . أنظرى أنت

مثلا اننا نختلف بعض الشيء فى نظرتنا إلى السعادة ... أنك ترين الكبرياء طريق يوصل إليها أما أنا فأؤكد لك أن طريقى أكثر أمناً وسلاماً ...

الأولى — ولكن لاننسى أن للكبرياء لذة عجيبة ... يجعلنى أشعر فى صميم نفسى بأنه هو الطريق الحق للسعادة ... ماجدوى أن أخادع رجلى الحبيب؟ وما دمت أحبه فيجب إلا أخدعه .. فالحب لايعرف هذا الشعور ولا يحيا به ... بل أن طريقتك هذه تقتله ، أما الكبرياء فيغذيه وأنا أحب وأعمل على أن يزداد حبي ولذا أغذيه دائماً بالكبرياء لأنال السعادة التامة ...

***

« ويستمر الركب فى مسيره حتى يقف عند رجال حول منضدة »

الأول — هذه المرة فقط وبعدها لاداع للاستمرار

الثانى — ولكنى أريد أن أعوض ما خسرته

الثالث — يالك من غارق فى أحلامك ! !

الثانى — أيها الجشع الذى لايهمه إلا امتصاص دماء الناس أتظن أنى أتركك تذهب بمالى دون محاولة إرجاعه

الأول — ولكنك ستخسر أيضاً

الثانى — وماذا يهم ...

الثالث — أيهما الجشع ياصاحبي .. أنا الذى قنع بما ربح أم أنت الذى لم ترضه الخسارة ؟!

الثانى — سأستمر وعليك طاعتى ... لاتسلبنى سرورى ... إن سعادتى فى الاستمرار . فسواء ربحت أم خسرت فسيان عندى ... أطلق على

ذلك جشعاً منى أو غير هذا فلن أهتم ما دمت أجد فى ذلك مايسعدنى ... هيا وأبدأو اللعب مرة ثانية ...

***

« يستمر الركب إلى أن يقف برجلين »

الأول — يالك من طيب القلب تخدعه الظواهر !!

الثانى — ليس إلى هذا الحد ... المسألة تتلخص فى أنى لم ألاحظ ذلك ...

الأول — لم تلاحظ !! إن اللوم كله يقع على رأسك .. لو أنك تزن الرجال بموازينهم الحقيقية ما كان حدث لك ذلك .

الثانى — أنا لا أرى فى ذلك أى حادث ...

الأول — تؤكد لى مرة أخرى إنك مازلت أبلهاً لم تحنكك التجارب ... كيف تترك خصمك فى وقت تستطيع فيه أن تسحقه .

الثانى — خصمى !! لم أعرف عنه خصما لى فى يوم من الأيام .

الأول — وكيف كان لك أن تعرف ذلك ؟

الثانى — كنت ألاحظ فيه ما ينبهنى .

الأول — إن صاحبنا ذكى فطن ... لقد أجاد حبك مؤامرته وإنه ليجذبك إلى الشرك وأنت راض سعيد .. إن حديثه عنك لا يفرغ فهو دائماً ينالك بالمساوى، ويذمك فى غيبتك ويعلن جهاراً أنه يحتقرك ... ولعلك نسيت حادثة الإنتخاب فى النادى ؟! .

الثانى — كيف أنساها ؟ وهل ينسى الإنسان أيام فشله .

الأول — إذاً ... فهل عرفت سبب فشلك ؟ لقد كان هـذا بدسائس منه .. راح يروج لخصومك ويدعو إلى عدم انتخابك . لقد خدم من

حاربوك اليوم ليردّوا جميله فى الغد . . . أنه يرتفع ويعلو على كتفيك وأنت لا تدرى . . .

الثانى — يا للنذل السافل ؟!

الأول — أعمل به كما عمل بك .

الثانى — لا . . . بل سأرد له الصاع صاعين . . . سأقف حجر عثرة فى سبيله وسأعلن للناس حقيقته . . . سأقول ما أعرفه عنه ويجهله الناس . . . سأقول لهم كل ما أعرفه عن ماضى حياته وكيف ارتفع على اشلاء الضحايا ممن كان يقرضهم بفاحش الربا . . سأقول . .

الأول — خفف عن نفسك الآن وعندما تواجهه دبر شأنك معه ولكن بينكما موقعة فاصلة . . . فالسعادة ياصديقى فى الانتصار عليه . . . أتمنى لك التوفيق . . .

***

« يمر الركب حتى يقف بأم وطفلها »

الأم — يانور عينى وبهجة حيــاتى . . . لقد جفت دموعى وتلاشت آلامى عندما سمعت لأول مرة صوتك وأنت تخرج إلى العالم الجديد منك . . . أنت النور الذى أطلعنى على أسرار الوجود والذى غمر قلبى بالأمانى . . . أنت الأمل العذب والأمنة التى حققتها الايام لى . . . ياسر سعادتى فى الوجــود . . . أنت كل مالىَّ من رجاء . . . أت السعادة التى تركت دنيـا النـاس واستقرت فى روحك وجسدك الطاهر . . أنى أسمع « مناغاتها » فى صوتك ، وأرى أطيافها كامنة فى عينيك . . . إن ضحكتك البريئة تطهر عالم الدنيا من أخطائه وتنتقل بالناس إلى دنيا من الطهر والعفاف . . . ياسر سعادتى ونعمة وجودى .

« يختفيان ويستمر الركب حتى يقف عند شابين »

الأصغر — أكاد لا أصدقك . . .

الأكبر — أقسم لك على صدق قولى . . . ان الدم وحده هو الذى يطهر هذه الآثام . . .

الأصغر — أجل الدم . . . دم ذلك التعس الذى لم يرع حرمتى وحاول تلويث شرفى

الأكبر — وياليته ارتدع . . . لقد نصحته أكثر من مرة فلم يستمع إلىّ . . . قلت له انك فى منزلة شقيقه الأصغر ويجب أن يحترم غيبتك ولا يحاول أن يتخذ من احتياج أختك ذريعة للفتك بعفافها ! !

الأصغر — كفى . . . أن الكلام يخترق أحشائى . وسوف أقتله اليوم فان منظر الدماء يشفى صدرى ويطفىء غليلى . . . فكلما تمثلتها وهى ضجيعة هذا الوغد الأثيم تجسمت الإهانة . . . اتركنى الآن ياصديقى ولا تتبعنى بعد ذلك . . . سأذهب إليه وأغمد خنجرى فى قلبه الآثم عسى ذلك يمحو عاراً ألبسنى إياه . . .

ويجرى الصغير وبيده خنجره والآخر يتبعه بناظريه وهو يضحك سخرية ويقول : لقد انتصرت . . . ولن أرى غريمى بعد اليوم . . . وسأتزوج بها . . .

***

« يستمر الركب حتى يصل إلى رجل مهدم »

الرجل — ويل لهذه الدنيا منى وويل لى منها . . . لقد تبددت أحلامى الذهبية التى قضيت العمر فى تخيلها ومحاولة إخراجها إلى عالم النور . . ان اليأس يدب فى نفسى وعما قليل أتلاشى . . . لست أعبأ بالمبلغ الجسيم

الذى خسرته . كما لن أهتم بالضربة القاسية التى أصابت تجارتى . . .
لست مهتما بهذا ولا بذاك . ولكنى أخاف أن أفقدها هى . . .
وأصبح فريسة للأوهام والحزن . . . قضيت أيام شبابى فى الجهاد
وعملت فى كهولتى للرفعة وجمع المال وظننت أن كل شىء فى متناول
يدى . . . وأخيراً بحثت عن المرأة . . . وقبل أن أنالها . . قالت لى
. . . لقد فات الوقت الذى تُحب فيه . . وولىّ شبابك . . فاختر
لنفسك عجوزاً مثلك . . .

يانور الأمل البسّام . لكن قلبى طعاما لنيرانك المقدسة ولأ كن فى
وحدتى الأليمة ملحوظاً منك تواقا إلى ضحكاتك لتملأ يقينى وتبدد
مايحيطنى من أسى وآلام . . . ياضحكة الأمل الرنانة رجعى بصوتك
العذب فى جوانب خيالى المكتئب وخذى بيدى إلى دنيا السعادة التى
أتوق إليها . . .

***

« يظل الركب فى مسيره حتى يصل إلى رجل وابنه الشاب »

الرجل ــ رحماك أيها المجنون الذى سيودى بشبابه . . ألا تعرف انك إن لم
تدخر الآن من شبابك لشيخوختك المقبلة ستندم ولات ساعة مندم
. . لاتعبث ياولدى وإلا انتقم منك المشيب . . .

الشاب ــ يا أبى . . . انك تغالى فى تصوراتك . . . يجب أن أرشف من لذاذات
حياتى وشبابى . . وأنعم بجمال هذه السنوات النضرة من سنين
الشباب . . . انها دقائق من الذهول تذوب السعادة خلالها أفليس من
التعقل أن نسرع برشف هذا الشراب الأبدى . . . ان السعادة
اغتنام لحظات الشباب يا أبى ، فاتركنى إلى بضع سنين أخرى وبعدها
افعل بى ماتريد .

الرجل — يابنى . . . انك تتكلم عن السعادة كلمات غر لايفهم ما يقول وانك لتقضى على سعادتى عندما تظن أن تفكيرك الطائش سيهديك إليها . . . إنه أنا . . . أنا الذى يرشدك إلى السعادة . . . أنا الذى قضى العمر باحثاً عن السعادة لك ، موفراً أسباب هنائك . . أنا أكثر منك دراية بنفسك . . . لاتسرف فى لذائذك ياولدى ولئن واتتك مرة فاقبل عليها فى هدوء الفليسوف ورزانة الحكيم . . . قف لنفسك بالمرصاد وإحم روحك منها . . . لاتندفع وراء الأخيلة فتفقد المال والقوة والشباب . . لا تسرف فى أحلامك . . وإذا أردت اللذة فلتكن بمقدار قليل لايجعلك عبدها الأبدى . . . لو فعلت هذا لنلت السعادة . . . ولظلت السعادة أبدية البقاء فى نفسك . .

***

« يختفيان ويسير الركب حتى يصل بفتى وفتاة »

الفتى — من عصارات القلب وسيل الدموع سأصنع لك شراباً يثمل روحك بخمره الأبدى فلا ترين إلا دنيا من الجمـــال وعالما من الهوى والنجوى . . .

الفتاة — ياغرامى المعبود وددت لو يطول أثر هذا الشراب حقاً لأظل منتشية بشراب حبك إلى الأبد . . .

الفتى — وسأصحبك إلى المروج الخضراء لأقطف لك أجمل زهورها وأنضرها . . . سأقيم لك بيتاً صغيراً من ضفائر الياسمين وأجمع حواليه البلابل والطيور الغرّيدة . . . ستنامين على تراجيع الكروان ، وتستيقظين على تغريدة البلبل . . وسيغنى خرير ماء القنـــوات عند قدميك الصغيرتين وهى تداعبها ، وسينطبع ظلك على الصفحات الرقراقة من

الخضرة والمياه ... ستوقظين الطبيعة بحلو همساتك ويصحو الفجر على حلو صوتك ... ستهبين الكائنات سعادة ورضى ولذة القنوع ... وستستحيل الدنيا أغرودة حلوة دائمة الترديد فى أذنيك ...

الفتاة — وأنت ياغرامى ...

الفتى — سأظل كالسادن الخاشع ببابك قانعاً من دنياى بأنى تملكت السعادة ونلتها ... فيك أنت !!

***

« يمر الركب حتى يصل مكانا منعزلا يجلس فيه المتعبدين »

المتعبد رافعاً بصره إلى السماء ثم ينقل عينيه فيما يحيطه :

المتعبد — ما أصغر هذا الجرم الدنيوى الذى يطلقون عليه اسم « العالم » وما أحقر شأن هذه الدواب التى تسير فوقه ... ان هذه الدنيا على سعتها قد حملتها فى هذه الجعبة التى أحفظ فيها فضلات الطعام والتى ظللت أطوف بها زمناً طويلا حتى سئمتها فألقيت بها لمن تكاثروا عليها فأعماهم الجشع عن رؤية الحقائق ... أنا سيد هذه البقاع الصامتة وواحدها الذى لاثانى له إلا ظلّه المنطبع ... أنا وحدى الذى أنعم بهذه البرية وانشق عبيرها الطاهر وأنعم بكل مافيها من مباهج ليس لغير عينى أن تراها ...

أيتها الطبيعة المغرّدة بألحان السرمد والخلود .. لأنت رفيق وحدتى ومؤنستى طوال ساعات أتفرغ فيها للتأمل والتخيل .. ما أبسط رحابك يانفسى .. أنت يامن طويت المحيطات والأراضى فى رقعة متواضعة ورحت تتأملينهم بعيون التبصر والتروى ... أيتها السماء

المليئة بزاهر النجوم ... أنت التى أحبها وأديم التطلع إليها فهى نظرات الله ...

يانفسى الخاشعة التى ملأها نور خالق السموات والأرض ما أفسح رحابك ... ان نور الله يملأ جوانبك ولا أسمعك ترددين سوى تسابيح علوية لايفهمها إلا أهل السماء ... باعدت الدنيا وكرهتها واندفعت نحو حياة من التصوف السامى .. احتقرت الدنيا وزخارفها وشهواتها وكلما هممت بالصلاة شعرت بخشوع عميق يملأ كل نفسى ويسيطر على مشاعرى .. وتعلو نفسى إلى أسمى طبقات الإيمان والصفاء والزهد ... أصبحت سعادتى مركزة فى يوم أغادر فيه الدنيا وانتقل إلى عالم الحياة الأبدية حيث السعادة الخالدة ... السعادة التى أحببتها وتمنيتها كائنا ملائكى الطهر ينتظر مقــدمى هناك ... هناك فى الآخرة !!

***

« يظل الركب فى مسيره حتى يقف بشاب ضرير »

الأعمى : ربى ... أما لهــذه الظلمات من نهاية ... متى أرى اشراقتك ضاحكة يابسمة الحياة ... ويل للخيال هو الآخر يبخل علىّ بتصورك ويأبى أن أقضى العمر وهذا السواد يجلل القلب والروح والعاطفة .

يا للصور التى تمر بخيالى ... انها بدورها أشباح لامعة السواد يرتد وقعها على اليقين فيطمس معالم الفرح وقد فكر القلب فى حيازتها ...

من أنا يانهرا صاخبا بدموع الضحايا .. من أكون فيك من بنى البشر .؟! حملتنى أمواجك وجرى بى تيارك حتى هذه المرحلة من مراحل العمر ؟!

لمَ لم تهبط بى إلى النباع منذ أمد بعيد بدلاً من البقاء وسط هذه الضلالات وَالآلام ؟!

من أنا ؟ !

تعس فقد نور العين . . . أعمى حرمته الطبيعة نعمة البصر ضرير أراد الله له حياة أبدية فى ظلام لانهاية له ولا آخر . . . ولكنى سأضحك . . سأضحك سخرية منك يادنيا الناس . . ولم لا ؟! ألا يجد المكروب شيئاً من التسلية فى سخرية بمن نالوا مالم يعرف له مدلولا ولا رسماً

أنا فى الواقع سعيد بوحدتى . . . سعيد بهذه الظلمة التى تحيطنى . . . سعيد سعادة لا يعرفها المبصرون ولكن . . .

ولكن . . . أهذه هى الحقيقة ؟!

لا أظن . . .

أين منى هذا الجمال الذى يتحدثون عنه والفتنة التى تذهل أرواحهم وتغرقها فى محيطات أبدية من الهناءة ؟!

أنهم يرون هذه الدنيا وأنا اكتفى بالسمع ، وروحى تتعذب لهذا الحرمان الممض الأليم . . .

لِمَ هذا يارب ؟!

وإذا تلمس تعس مثلى طريق السعادة فهل يستعين بعكازته ؟! وهل تراها موصلته إليها ؟!

مرة أخرى . . . لا أظن . . .

إذن . . . أين منى السعادة ؟!

هل أستطيع الاستعاضة عن الحقيقة بصورة لا أثر للروح فيها . . . ولكنى واجدك ياسعادتى . . .

أجل سأجدك . . . سأجدك دون شك فى هدوئى ورضائى وقناعتى ، وفى فزعى إلى الله وترديدى كلماته المحكمة التنزيل . . . نعم سأجدك . . . سأجدك فى وحدتى و تعبدى وبعدى عن شرور المجتمع وجهلى بما يضطرم فى نفوس أهله من مطامع وشهوات . .

أنا سعيد لأنى عرفت السبيل إلى السعادة . . . السعادة فى التعامى عن كل زخرف وبريق كاذب ، وان الإلتجاء إلى الإرادة العليا والخضوع لأحكامها والرضاء به هو عين السعادة . . .

ليست السعادة فى بصر نرى به مايغضب الله أو يسير بنا متتبعين معصية ... ولكن سعادة البصر ونعمته الكبرى فى أن تكون الروح بصيرة وأن يغمر القلب ضوء ربانى مقدس . . .

وانى لأجد ذلك فى صميم نفسى . . . يغمر قلبى نور سماوى استعضت به عن البصيرة وانه لمرشدى إلى شاطىء السعادة . .

اعصفى ياحياة واسخر ياقدر فأنا سعيد بوجودى وبأنى ضرير لايرى مما حواليه شيئاً قد يثيره ويسخطه على دنياه . . . رباه . . .

***

وظل الركب فى مسيره بمن فيه من أشكال وأجناس وشعوب مختلفة ومدنيات متباينة بينما كانت السعادة إلى جانب الأمل ترقب هذا الحشد الغريب وهى حيرى . . . كلهم ينادونها ، والكل يريدها ويتمناها ويترنم باسمها . . . ولكل منهم رأيه الخاص فيها . . وكل يراها بالعين التى تروقه . . .

والتفتت إلى الأمل والركب مازال فى مسيره وقد روعتها شكايات المساكين وأنات البائسين ودعوات من يبتهلون و و . . .

الأمـل : ــ أرايت ؟!

السعادة : ــ وسمعت . . . يالغرائب الحياة !! الـكل يناديني وليس بينهم أحد يعرفني . . . لا يعرفون مني سوى اسمى فقط . . .

الأمـل : ــ لندع هـذا المنظار . . . اتركيه مرة أخرى ولنكف من مشاهدة الركب الحزين وتعـالى . . . سأحدثك عن الفـكرة المثالية فى الإنسان عنك قبل أن تشاهدى « المعرض الأكبر » وفى هذه المرة لن أدعك تنصتى لغير صوت القـــدر وهو يعرض عليك صوراً فريدة فى غرابتها . . . صوت يحدثك عن نفسك وسيكون صادقا فى حديثه حتى لتعجبين للاطارات الذهبيـة التى تفنن فى وضعك فيها . . .

انك رائعة الفتنة عبقرية الحسن ، وان القدر الصامت الذى يسير بالناس ويحدد منازلهم فى الحياة عنـــدما يصفك فانما يضعك فى موضع سيثير مناحى الغرور والغرابة فيك . . . استمعى إليه وهو يعرض عليك صورة الحياة من المهد إلى اللحد . . . .

يحدثك عن التطور الانسانى وأحلام المتسابقين فى ميدان العمر وتطور نظراتهم مع الزمن . . .

سترين الحقيقة كاملة وستعرفين ماقد تجهلينه عن نفسك وسترين انك كائن متغير لدى الناس . . . وصوره الحبيبة لها فى كل رأس موضع وفى كل خيال صفة . . . .

***

« سعادة الطفولة »

ان الطفل الساذج تحلق فوق رأسه الصغير باسمات الأمانى وروائع الأحلام وتظلله سعادة فى جلسته البريئة . ترى أهناك أفكار تداعب خياله الهانىء ؟!

أم تراه وهو فى غمرة من تصوراته العـــذبة يفكر فى شىء ؟ ! مادام قد نال السعادة فأى شىء يشاغله ؟ !

السعادة ؟ !

ماهى السعادة فى نظر الطفل ؟ !

إن السعادة ليست فى نظر الطفل أكثر من شىء لم تـكتمل صورته . . . أنها فكرة بوصفها المعروف شىء لا يمكن لخيال الطفل أن يحدده ولا لعقله أن يدركه . فهو لا يعرف عن السعادة إلا لمحات وقتيـة من سرور يداخل روحه الساذجة بأحاسيس هائلة

وإذن فللسعادة صور شتى تتغير مع الوقت . . . فرؤياه لها وقت الصباح غيرها ساعة المساء . واضمحلال هذه الصـــورة سريع بوجود أى مؤثر من المؤثرات التى تطغى على أحد أفكار الطفل الخاصة . . .

هاك طفلة تلاعب دميتها فى ركن بعيد من أركان البيت . . إن سعادة هذه المخلوقة الساذجة هو فى خلقها جو من الأمومة الرحيمة تغمر به الدمية وتدللها وترتع بها هنا وهنـاك وتتفنن فى مرضاتها والسرور ظاهر على وجهها ، فإذا اعتدى طفل على الدمية ثارت وبكت . وهنا تتغير نظرتها . . . فاذا أعيدت لها الدميه لا تعود إلى حالها الأولى من الهدوء والسعادة . . . بل تتمادى فى العويل أحياناً . . . إذن ماذا تريد ؟ !

تريد إيذاء ذلك المشاغب الذى سرقها دميتها وبدد سعادتها فالإنتقام منه يكون مصدر سعادة أخرى . . .

***

« لنترك الطفولة مسرعين إلى الشباب »

الشباب ثورة . . . والسعادة الـكاملة فى نظر الثوار يجب أن تـكون من معدنهم . . . سعادة مشبوبه هى الغـاية لمطامح عديدة ، وآمال عظام تداعب

صورها أخيلتهم . . . وإذن . . . فالسعادة فى نظر الشباب تتفرع إلى عدة صور ولا تقف عند صورة واحـدة . . وانها تعلو فى الأولى علواً كبيراً لتهبط فى الأخرى إلى حد يثير الإشفاق ، وهى هنا تمثل فكرة تحتل رؤوسا مريضة من التى ترى السعادة فى غيبوبة أحلام المخدرات أو فى الارتماء بين أحضان الغوانى أو فى سفك الدماء ونهب الأعراض . . ولـكن . . . جدير بالانسان أن يرتفع بالسعادة ويقدسها فهذه صور بشعة لايمكن أن تستقيم والمدلول القدسى لـكلمة « السعادة »

فالسعادة كما تخيلت وجود صورها عنـد الشباب تتلخص فى أفـكار عالية يعمل الشباب جاهداً لتحقيقها ، فالشاب فى دراسته والشابة اليوم فى دراستها مثله يعملان على تحقيق الغاية من العـلم ونوال الأجازة الدراسية بتفوق . . . تلك هى سعادة الشباب فى مراحل الدراسة ثم . . . .

هاهما هذين قد حصلا على الأجازة الدراسـية وبتفوق . . . فهل تحققت لديهما فـكرة السعادة ؟ !

الجواب عن ذلك لا . . . لأن الخيال يتفتح على صور جديدة للسعادة . . . صور لها قداسة تفوق سابقتها . . . فالسعادة فى نظر كل من الشابة والشاب هى أن يحققا رسالتهما فى الحياة وأن يصل كل منهما إلى غايته . . . .

وما هى هذه الغاية ؟ !

أنها بطبيعة الحال تختلف فقـد يجد الشاب الذى استقرت حياته فى العمل الحـكومى أو أى عمل كان يطمح إليه . السعادة فى بيت صغير يضع فيـه بذور أسرة يحيا فى ظلالها الوارفة سعيداً راضـياً وهو يرى فلذات أكباده حوله . ويعمل هو جادا ليوفر لها نوال السعادة

تلك هى سعادة الرضى والقنوع . .

والشابة بدورها . . . مهما نالت من نجاح فى معترك الحياة ومهما يعلو اسمها بين الخافقين . . . فسعادتها فى ظل بيت تقوم فيه بالدور الذى هيأتها له الطبيعه . . . دور الأمومة الخالدة الساهرة العين ، ترعى مملكة صغيرة وتهيء شبابها وشبانها لحياة قادمة وجيل جديد

وعلى عكس هذين نجد أنواعا أخرى من الشباب والشابات لكل أفكاره الخاصة ونظراته الخاصة إلى السعادة . . ولكنى أرجح الكفتين اللتين أوردت صورتهما المثالية السابقة

فسعادة الاستقرار البيتى سعادة لاتفوقها إلا سعادة العيش فى جنة الخلد حيث لا أفكار ولا أحلام ولا خيالات لأن البشر جميعاً خالدون فى محيط من السرور أبدى السعادة والهناءة



« سعادة الرجولة »

ويسير الشباب مجتازاً هذه المرحلة من مراحل العمر حتى يصل إلى مرحلة الرجولة . . . إنها مرحلة الرزانة والتعقل والتؤدة . . . ، والسعادة فى هذه الحقبة سعادة واسعة الأفق ليس من السهل تحديدها كما أنه من العسير تحقيقها . . . لقد أصبح الشاب رجلا أثمرت البذور الحبيبة التى وضعها فنمت وترعرعت ريانة مفعمة بحلو الأمانى وجميل الآمال . . .

ماهى إذاً سعادة الرجل والمرأة فى هذا الدور من أدوار الحياة ؟!

إنها سعادة متشعبة بل أقول إنها سعادة أكثر من « السعادة الشخصيه » . . . سعادة الايثار . . سعادة إسعاد الغير والعمل على تحقيق آمالهم وتوفير راحاتهم . .

هذه هى السعادة العلوية التى ينسى الانسان سعادته أمامها . . . إن الرجل لينسى نفسه ومطالبها ولذاتها أمام مطلب من مطالب حبات روحه وفلذات

كبده فاذا حقق لهم هذه المطالب وشاهد امارات الرضى على وجوههم غمرته الفرحة الهانئة ورضى عن نفسه ورضيت عنـــه وتلك هى السعادة الحقة . . . سعادة الرضى بالحياة وعنها

***

« ســـعادة الشيخوخة »

وإذا اجتزنا هذه المرحلة . . . مرحلة الرجولة . . إلى مرحلة الشيخوخة وجدنا السعادة تتغير فتأخذ صورة جديدة . . .

لقد كبر الأبناء وأصبحت الثمرة الصغيرة شجرة كبيرة متفرعة وإذن . . إن الرضى والاستسلام هو الطريق إلى السعادة . . . هدوء النفس وراحة البال واستقرار الضمير . .

ماهى سعادة الاثنين فى هـــذا الدور . . . ان صور السعادة السابقة التى حققوها أو فشلوا فى تحقيقها خلال تلك المراحل المتعاقبة قد بدأت تتلاشى أو أنها بدأت تأخذ تكويناً جديداً . . وإن تلك الصورة السابقة كانت مرآة عاكسة لأحلام الشباب وثوراته وطموح الرجولة ورزانتها

أما اليوم . . . وفى هذه الحقبة بالذات تتلاشى الأمانى وتنحصر الأحلام فى حيز محدود فنراها طوراً متئدة متعقلة وهذه هى الغالبية وطوراً ثائرة نقمة غير عابئة بالتقاليد وهذه تكاد تكون فى حكم الندرة

وفى هذه الحالة نستطيع أن نقول عن السعادة فى دور الشيخوخة إنها سعادة الرضى والقنوع والانتظار . . . انتظار النهاية . . . إن هذه المرحلة من مراحل الحياة هى المرحلة النهائية . . . المرحلة التى ينتهى عندها كل شىء ليبدأ الشىء الأسمى . . . فنهاية النهاية هى السعادة . . . ونهاية الشقاء هو دون شك السعادة . . .

إن الرجل ليذهب إلى المساجد وحلقات العلم ، وكذلك المرأة نراها متعبدة قانعة ورعة . . . . ماذا حدث ؟ !

إنهم وبعد هذا العراك طوال هذه السنين المتعاقبة عرفوا معنى السعادة . . . عرفوها على صورتها الحقيقية . . . عرفوها فى الدنيا زينة ، قال تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فمن لم يؤت المال وأوتى البنون فقد نال نصيباً من سعادة وعد بها ومن نال النصيبين فقد وصل إلى ولوج الطريق إلى السعادة . . . أما السعادة الأبدية الحقة . . . فانهم يذكرون الآن قوله تعالى « ومن خاف مقام ربه جنتان »

جنتان من أعناب ونخيـــل قطوفها دانية تجوس المياه خلالها . . . أى سعادة تلك ؟ !

وإنها السعادة . . . إنها الدار الآخرة فلنعمل لها . . . فالسعادة مثل أعلا والمثل العليا لا تتحقق فى الدنيا وإلا كانت الدنيا آخرة . .

وتفسيراً لذلك . أترانا نستطيع القول بأن السعادة نوع من أنواع الطمع رقت معانيه وعلت أغراضه فارتفع عن مطامع البشر واتخذ هذه الصورة القدسية التى لم نستطيع أن نجد لها اسماً فاطلقنا عليها لفظة السعادة ؟ !

إن السعادة نهاية النهايات

والموت نهايه النهايات

إذن فالسعادة دون شك فى الموت . . .

« سعادة الموت »

الموت ! !

أجل الموت هو القارب الذى تمتطيه الروح فى طريقها إلى محيط السعادة الأبدى لتغرق فى بحوره وتروى ظمأها الذى طالت به الأجيال من مياهه العلوية . . .

إذن . . . فكل هؤلاء يحلمون بالموت

ياللحلم الجميل الذى يضع الحد لكل شيء وينتقل بالأرواح المعذبة من عالم أشقاها إلى عالم ستجد فيه ضالتها التى كانت بعيدة المنال فى عالمها الأول

وانتقل الشيخ والكهل من العالم المادى إلى العالم « الغامض » أو الفانى . . فهل انتهت بذلك روائع الأحلام . . كلا . . . هناك سعادة مجهولة . . سعادة غريبة المبنى . . . إنها سعادة الموتى . . .

أجل سعادة الموتى ؟ ! إنها السعادة فى صورتها التى لايحدها العقل ويعجز الفكر عن تصويرها . . . الموت هو النهاية . . . نهايه حياة وبدء حياة جديدة . . . دور انتقال من عالم إلى عالم ، وجدير بالمنتقلين أن يرتقوا بأفكارهم ويحملوها وهم فى طريقهم إلى دنياهم الجديدة

لقد علت الكتب السماوية بأفكارنا وصورت لنا هذه الدنيا الجديدة التى طمعنا فيها وتمنينا الموت لننالها . . . إذن فنحن نعرف هــــذه الدنيا وصورها الزاهية تحتل أفكارنا وتلوح لنا حتى ونحن فى أعظم أدوار حياتنا اشتغالا وجلبـــة . . .

هل يحلم الموتى ؟ !

أجل إنهم يحلمون بالسعادة . . .

يحلمون بالبعث

ما أكثر طمع بنى البشر . . . حتى أحلامهم الثائرة . . . أحلامهم المشبوبة تستقر صورها وتكمن أصداؤها الداوية فى قرارات العيون عندما يكحلها الموت بمروده الأسود ليغلقها حتى يوم الصحوة الأخرى . .

هذه الأحلام وتلك الأصداء وهاتيك الصور . . . كلها تستقر فى قرارات العيون منتظرة يوم البعث لتحيا مرة أخرى حياة جديدة . . .

وهذه الصور . . وتلك الأحلام . . . وهاتيك الأصداء . . إنها تبدو . . . وتلوح . . . وتدوى . . . فى أفق خيال الميت ساعة الاحتضار لتكون مؤنسته فى رحلته الطويلة . . .

وأسكت الموت صخب الحياة ومحا ضوضاءها وجلبتها وقضى على كل ما شابها من محن وآلام وبؤس . . .

ياللسعادة ! ! إنه الآن يسير بها فى ركابه المقدس ليطهرها أولا ثم يدخل بها باب العالم الآخر الذى تجلس السعادة بساحته الكبرى فتمنح أنوارها للجميع دون تفرقة ودون تمييز . . .

واذا احتوت ظالمة القبر ذلك الميت تبدأ صور الخلود التى نامت فى أغوار عينيه والتى احتبسها فى ركن قلبه المتوقف عن النبض . . إن هذه الظلمة الشاملة تدفع به إلى النور الذى وعد به . . .

« جنة عرضها السموات والأرض . . . جنات تجرى من تحتها الأنهار . . . يحلون فيها بأساور من فضة ويلبسون ثياباً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا . . . . أنهار من خمر وعسل مصفى لذة للشاربين . . . . »

تلك هى الحياة . . . إنها نهاية البدء لولوج عالم السعادة والسرور . . . ما أغبانا ونحن نجالد ونقاتل ونكافح . . . تغلبنا الظروف وتتغلب على الأمن . . نملأ صدورنا بالحقد ونفوسنا بالكراهية . . يقتل الإبن أبيه ويسطو على عرض أقرب الناس إليه . . . لم هذا . . ؟ !

أجل لم هذا . . . لنشبع نهم نفوس مليئة بالشر ترى السعادة الحقة فى الاقدام على فعل الشر . . . .

ولكن . . .

إذا تدبرنا الحياة . . . نظرنا إليها بالمنظار الذى يراها به مشرف على الموت . . . . أو مؤمن ملأ القنـــوع والرضا قلبه لوجدنا سبيلا إلى ضالتنا السعادة والآن . . .

أين السعادة ؟ !

أنها فى العالم الآخر . . . فى دنيا وعد بها المتقون من عباد الله . . .

***

الأمـل : — أسمعت يامولاتى ؟ !

السعادة : — سمعت ! ولـكن . . . ياللنهاية الأليمة ! ! ألا يمكن أن تنتهى الحياة على غير هذه الصورة . . . أية أفـكار تطوف الآن برأسى وأنا أصور نفسى وقد أصبحت ملـكا لأولئك الذين وصل بهم قارب العمر إلى نهاية المرحلة . . . والآن . . . ماذا تبقى لديك . . .

لأمـل : — صور أ كثر طرافة مما رأيت . . . تعالى . . . تعالى إلى « المعرض الأكبر » لأريك على مسرح الحياة قصصاً واقعية لايمكن للعقل أن يتصور حقيقتها ! ! أنصتى . . . خذى مقعدك . . . هاهى ذى الدقات التقليـــدية . . . الستار ترفعه يد القدر ، لتعرض عليك القصة الأولى . . . . .



الباحثة عن السعادة

كانت فى العشرين من عمرها ... طويلة القامة ... دقيقة التقاطيع ... لها وجه جميل تحيط به هالة من شعر ذهبى ... وعينان ناعستان فيهما براءة وطهر ... وفيهما حيوية وثورة ...

جلست إلى مكتبها ... وأمامها عود من البخور يحترق ، تعودت أن تطلقه كلما تهيأت للكتابة ... فيطاق فى الجو المحيط بها أريجاً طالما هيأ لها العيش فى جو خيالى ساحر ... وكان يسعدها أن تكتب فيه ...

هذه الفتاة الصغيرة لها قصة تمثل لنا صورة من صور الحياة ... تضم بين حوادثها قصص عديدة ...

لقد تخيلت فتاتنا للسعادة صوراً أربع ... ففى بدء حياتها وهى طفلة . تمثلت السعادة فى إتمام تعليمها المدرسى ...

وفى الصورة الثانية وقد أصبحت فتاة فى بدء اكتمال الأنوثة تمثلت السعادة فى الحب ...

وفى الصورة الثالثة تمثلت السعادة فى أن تصبح زوجة .. لها بيت .. وأبناء ..

وفى الصورة الرابعة تمثلت السعادة فى المجد ... المجد الأدبى ... وهذه الصورة الأخيرة التى كرست لها زهرة شبابها لإطعام أحلامها الجائعة للعلم والأدب ... وذلك بعد أن تلاشت الصور الثلاث الأولى للسعادة ... وبعد أن أثبتت لها ظروفها القاسية أن السعادة وهم كاذب وخيال لا حقيقة له .. وكاد

اليأس يتملكها لولا نور الأمل الذى لاح لها أخـيراً وكوّن لها من آلامها الصورة الرابعة . وأخذ يجمّل لها طريقها الجديد وهو يغمرها بابتساماته كلما تفردت بها الوحدة وهو يقودها إلى المجد على أشلاء أحلامها الماضية التى بددها الزمن وبعثرتها الأيام . . .

أنها تجلس الآن وحيدة فى مكتبها . . والوحدة طالما أوحت إليها بأسمى العواطف والأفكار التى تنمقها فى شبه عرض وتخرج به إلى ميدان الأدب فى بعض المؤلفات

ياللفتاة المسكينة . . . إن لها عينان فى بريقهما سيل من الغوامض ولكنها البراءة الكاملة . . . وهذه الشفاة الرقيقة الباسمة التى تتردد فى جوانبها أسمى الأحاسيس ، تخفى فى أعماقها ثورات النفس الحزينة . . . ولكنها مع هذا تبدو فى هيئة رزينة متعقلة . . . إن كل مافيها يجبر على التفكير فى أمرها حتى ليشعر كل من تأثروا بها حيرة يسائلون أنفسهم خلال لحظاتها عن كنهها وحقيقتها ولكن . . . ماهى إلا البساطة والصدق وكل ماهو إلى النفس محبب . . . . .

***

فى بيت من بيوت المجد كان القدر يتمادى فى مداعبته عندما ولدت « هى » فلم يضع فى فمها ملعقة من الذهب ؟ بل كانت ملعقة من خالص الماس الذى انعكس بريقه على وجهها فأكسبه لمعاناً وروعة ، أما الذهب فقد توج به رأسها فكانت أعجوبة ! !

نعم أعجوبة أن ترزق إحدى سيدات هـذه الأسرة الصعيدية طفلة ذهبية الشعر بيضاء البشرة . . . .

ومرت بها السنين أو جاوزت هى تعداد هذه الأعوام حتى بلغت السادسة وكانت الفرحـة الكبرى . . . فى ذلك اليوم من أيام الشتاء . . وفى إحدى

العواصم الكبرى بالصعيد كان « الفيتون » يقف أمام باب هذه الأسرة ليحمل الصغيرة « سانى » مع والدها إلى إحدى مدارس الإرساليات . . .

واختلطت الصغيرة هناك بوسط جديد ما كانت تعرف عنه أى شيء . . . ووجدت فيه من التسلية مالم تجده فى بيت ذويها هذا البيت الذى تظلله التقاليد والتى لا يسمح لها فيه بمثل هذه الحرية التى تنعم بها فى جوها الجديد . . . لقد قاست الصغيرة وهى لم تتخط مرحلة الطفولة قسوة هذه التقاليد التى تفرض على الصغيرات أن يخضعن لنظم باليه سنها أجيال مضت . . . كان إن علا صوتها أرغمت على الصمت ، وإن ضحكت فياللطامة الكبرى . . . .

وبدأت « سانى » تقارن بين هذه الفرحات الهائتة التى تغمر المدرسة ومن فيها ، وبين ذلك الصمت الموحش الذى كان يخيم على البيت . . . وخيل إليها انها كانت تعيش هناك داخل سجن ممقوت . . . وارتاحت نفسها إلى حياتها الجديدة السعيدة الهادئة حتى لقد كانت تسائل نفسها عن السر الذى يحول بين إلتحاق والدها وسائر أفراد الأسرة بمثل هذه المدرسة ليروا الحياة كما أصبحت تراها ! ؟

وتعلمت هناك الموسيقى ! !

موسيقى ! !

وهذه كانت بدعة أخرى لم يرض مشرع التقاليد فى هذه الأسرة أن يقرها ، وحرم عليها الانصات إلى وساوس الشياطين التى تنبعث من هذه النغمات ! ولكنها أصرت على إتقان هذا الفن الذى تعشقته ووجدت فيه صدى لمشاعر كانت تختلج فى خيالها الطفل . . . ولكن أنى لها هذا . . .

أعوام أخرى مرت . . . وتلتها سنون قليـــلة وبدأت الهمسات تدور فى جوانب البيت الكبير . . وتقاربت الرؤوس . . وعقدت المجالس الاستشارية ؟ !

لم هذه الحركة ؟ !

وما سر هذه الجلسات ؟ !

أنها مشكلة جديدة بأن تشغل الجميع ... نعم ... إنها هى ... هى هذه الصغيرة « سانى » التى سارت بها الأعوام فى طريق الزمن أربعة عشر عاماً ؟

إذاً ... فلتغلق دونها الأبواب ولتظل سجينة الجدران الأربع حتى يأتيها الطارق المجهول لتسير إلى جانبه معصوبة العينين نحو حياة جديدة لاتعرف عنها شيئاً ....

وكانت « سانى » قد نمت حقاً وأصبحت فارهة العود بديعة التقاطيع تملأها روح الأنوثة البادىء الجذاب ... وقد استدار جسمها وبرز صدرها متعاليا فى نوع من الكبرياء المحبوب ...

وفى ذات ليلة وقد اجتمع مجلس الأسرة .. ناداها والدها ... فأتت والبشر يغمر محياها الفاتن والسعادة تكاد تطل من عينيها الجميلتين ...

كان صوته هادئاً هدوءاً لم تعهده ، وكانت نبراته غريبة المقاطع فيها الحنان وفيها قداسة الأبوة . الأمر الذى جعلها فى حيرة لهذا التغير الفجائى ...

وجلست فى ذلك الجو الصامت الذى كانت تتبادل فيه عينا والدها مع أمها نظرات لم تفهمها ... ومرت الدقائق بطيئة متكاسلة وهى تنقل بصرها بين هذا وذاك حتى سعل الأب فأنصتت

لوالد — يا ابنتى ....

سانى — نعم يا أبى ...

الوالد — تعرفين أنك بلغت الرابعة عشر من عمرك ، وأرى انك نلت من التعليم المدرسى مافيه الكفاية ، وليس هناك بعد ذلك إلا أن تتلقى الرسالة التى خلقت من أجلها . وهى العمل فى البيت ...

سانى — أبى ... أتقصد ...

الوالد — أجل ... أقصد أن تتركى المدرسة وتظلىّ فى البيت لدراسة شئونه وتدبيره ...

سانى — ولكن يا أبى ...

الوالد — أنا لم أكمل حديثى بعد ... قلت لك إن لا « مدرسة » بعد اليوم .. وباب البيت محرم عليك الاقتراب منه إلا إذا كنت بصحبة والدتك أما هذه النوافذ فستظل كعهدك بها ... مغلقة دائماً ... لا زيارات بعد اليوم ولا مصادقة مع أية فتاة . بل يجب أن تشغلى نفسك بعمل البيت وتتلقى كل مايهم البيت من التدبير الذى خلقت وغيرك لممارسته إلى أن يهيء الله لك بيتاً تكرسى حياتك لخدمته وخدمة سيده ، وإن كان ثمة بد من التسلية ، فلديك مكتبتى مليئة بشتى المصنفات الدينية تخيرى منها ماتشائين ...

سانى — ولكنى لم أتم دراستى بعد ...

الوالد — دراستك !! من أفهمك هذا ؟! هل داخل الشيطان روحك ، أم تراك أنصت إلى غوايته ... ما ارسلناك المدرسة لإتمام تعليم ... ولكن لإعدادك للبيت ... وقد نلت من الثقافة ما يهيء لك حياة سعيدة فى مستقبلك ... وليس هناك مستقبل آخر دون البيت ... ولا أحب أن تعيدى على سمعى مثل هذه الخرافات ... الساعة الآن الثامنة فاذهبى إلى فراشك ...

وخرجت « سانى » من الغرفة بعكس ما دخلت ... فقد امتلأت عيناها بالدموع التى سرعان ما انسكبت على فراشها وقد ألقت بنفسها عليه واستسلمت للبكاء ...

وإذاً ... فقد انقضى أول حلم جميل ... ؟!

***

وراحت « سانى » تروض نفسها على الحياة الجـديدة . . . إلى أن بلغت السادسة عشر ونضجت مع نضوج جسدها خيالاتهـا العديدة وأحست بأن شيئاً ما . ينقصها ، وإن كانت لاتعرفه . . . تاقت إلى الحرية . . . إلى النور . . . إلى الهواء . . . إلى سماع أصوات جديدة وإلى رؤية وجوه جـديدة . . . فقد برمت بهذه الوجوه التى تلازمها دائماً والتى لا تتغير ! ! وملّت هذه الكلمات التى لاتسمع سواها والتى تجبر على سماعها . . .

ورأت « سانى » إحـدى جاراتها تقرأ كتاب صغير له غلاف لامع . . . ولاحظت أنه من نوع آخر يخالف نوع الكتب التى اعتادت هى قراءتهـا . . . ودهشت إذ كان الكتاب لايفارق يد هذه الصديقة . . . فهل تراها تقرأ كتباً كتلك التى أوصاها الوالد بقراءتها ! . . . وفكرت أخيراً فى استعارة بعض كتب هذه الصديقة . . .

إن هذه التسلية الجديدة رائعة . . . فقـد قرأت بعض القصص وأصبحت تتعشقها . . . ففيها حديث جذاب عن إحساس غريب بالنسبة إليها . . .

إنها قصص حب ! !

حب ! !

وبدأت تسائل نفسها عن كنه ذلك الشعور ، رهل هو إحساس خاص بطبقة معينة من الناس ؟ أم أنه إحساس شائع الملكية . . .

وراحت تقضى جلّ وقتها فى قراءة هذا النوع من الكتب والمجلات . . . وكانت صديقتها ترسلها إليهـا خلسة كما أن « سانى » كانت تقرأها خلسة أيضاً مستترة بها داخل بعض الكتب العلمية أو الدينية

وتركت « سانى » كتاباً كانت تقرأ فيـه وراحت تفكر فى الحب . . . ولكنها عجبت من نفسها إذ كيف تفكر فيما يسمونه حب وهى فى ذلك الوسط

الذى تحجرت قلوب من فيه .... انها لم تعهد سماع شيء ترتاح إليه النفس ... ولم تسمع سوى « العرف يقضي بكذا » ، « ونامى مبكرة لتكونى نشيطة فى الصباح » ، ستزورنا اليوم إحدى السيدات فاغلقى الباب دونك » ، « اسدلى النقاب الأسود على وجهك جيداً إذا ما خطوت من البـاب داخل العربة » ، « لاتطيلى النظر فى المرآة » ....

هذه هى الـكلمات التى حفظتها عن ظهر قلب ... فهل فيها ما يشعر انساناً بالعاطفة ... ؟

وساءلت نفسها ... إن الحب كما قرأت يتولد من نظرة تتآلف إثرها القلوب بين « شاب وفتاة » إذاً فلن تتذوق هى طعم هذه العاطفة ... فهى لم تر داخل هذا البيت منذ عامين مضيا وجه شاب !! .. ولـكن إذا تصادف ورأت فى يوم من الأيام ... فعلى أى صورة سيكون ؟!

إن الفتى المعشوق كما رسمته هذه القصص صورة للفتنة ... طويل القامة ، ساحر العينين ، أجش الصوت عصبى الحركات وسيم المنظر .... وشباب هذه الأسرة لاتستقيم معهم هذه الأوصاف إذ تربوا تربية دينية فى المعاهد ، وذلك لـكي يحتلوا مراكز الآباء والأجداد فى القضاء الشرعى والافتاء والوعظ !!

وشغلت هذه العاطفة خيالها ... حتى كادت تؤمن بأن السعادة فى الحب ... وإن لاخير فى الحيـاة بدون حب ... ولـكن لـكى تحب ... يجب أن يكون بالقرب منها رجل ... وعلى هـــذا راحت ترسم « لرجلها » صوراً من نسج خيالها وأحلامها ...

صورته فى بادىء الأمر مارداً متغطرساً عميق الصوت قاسى النظرات .. ارتجف هولا لسماعه ... ولـكنها تمتمت :

— أوه ... لا ... إن هذه الصورة منفرة !!

وعادت من جديد . . . إذاً فليكن شاباً رقيقاً ناعم الصوت يتحدث هامساً فتعبث كلماته بقلبها كما تعزف أصابع عازف ماهر بأوتار « كمانه » ولكنها تمتمت مرة أخرى تقول :

— لا . . . ولا هذا أيضاً . . .

ورأت أن يكون شاباً جميلا رشيقاً راحت تصوره هى ، وتتفنن فى رسم تقاطيعه وتضفى عليه صورة شاعرية . . . فهو مرة فارس جميل رقيق الصوت يأتيها والناس نيام ليحدثها عن حبه ، وعن مايختلج فى فؤاده من غرام . . .

ومرة أخرى تراه رجلا وسيما ولكنه قاسياً . . . يهوى على وجهها بيده الغليظة فيصور للحب للصفعة نغماً ترتاح إليه أعصابها الفتية . . .

ثم تراه مرة أخرى مارداً لاتقحمه العين وتشعر بضآلتها إلى جانبه ، وإذا أرادت التحدث معه . . . رفعت إليه وجهها فى ضراعة وكأنها عابدة ترفع وجهها نحو معبود جامد لاتصل إلى مسامعه الدعوات . . .

واستفاقت من خيالاتها وراحت تضحك حتى علا صوتها . . . انها ضحكات هستيرية ثائرة !! لم ؟! لأنها فكرت فى هذا الشعور الغريب الذى لايمكن أن يطرق باب بيتهم الضخم . . . ذلك البيت الذى تجثم عنده أفكار بالية !!

وكلما راودت هذه الصور خيالها . . . راحت تقنعها إن ما تطالعه أوهام لايمكن أن توجد فى عالم مادى تعترف الحقائق بوجوده . . . ولكن . . . .

ولكن صديقتها ظلت ترسل لها هذا النوع من القصص حتى كانت لكثرتها وكثرة ترديد كلمات الحب بين سطورها وفى صلب حوادثها أن اعتقدت بوجود هذه العاطفة . . . ورأت أن فيها جميع سعادات الوجود . . . وراحت تؤكد لنفسها بأن الحب وحده هو الذى يجب أن تبحث عنه . . . ومن أجله يجب تحارب الرجعية والحجاب الذى يحول دونها والحب ، ويقيد

حريتها بقيوده الثقيلة ... بل يجب أن تثور وتتمرد على هـذه النظم البالية ، وأن تعمل على تحطيم الأغلال بكل ما أوتيت من قوة وما تحس به من رغبة نحو العالم الجديد .. لتخرج من هذه الدار أو هذا السجن أو المعتقل الممقوت التى أصبحت تحس أن بينها وبينه عداء غريزى ..... لماذا ؟! للبحث عن السعادة ... ؟!

إذاً .. فقد أصبحت « سانى » ترى أن الرجل هو دعامة السعادة لكل فتاة فى مثل هذا السن ... وبالعثور عليه يوجد الحب !! وبالحب تكون السعادة ....

وعادت تهيم فى ظل هـذه الخيالات محاولة أن تسعد بها نفسها وهى تناجى حبيبها الخيالى هاتفة من أعماق قلبها المتعطش الى الحب .... الثائر على القيود ...

« ترى أين أنت ياحبيبى !

« يامن لا أعرف من أنت ؟!

« ولا أين تعيش ...

« ولا كيف أجـدك ...

« إن روحى تهيم إذا ما أتى الليل بين الأجواء ...

« باحثة عنك .. ؟

« منادية ... ياحبيبى

« انها تناديك فى الليل ، وقبيل الفجر مؤملة أن تعثر عليك

« بين أجنحة الأحلام لتقبلك

« ثم ... تعود إلىّ

« حبيبى ... تعال إلىّ

« إبحث عنى كما أبحث عنك

« حتى نلتقى ...

« وعندها . . . أعرف من أنت . . .
« تعال إلىّ . . . يامن لا أعرفك . . ولم أرك !
« ولكنى أشعر بك . . . وبحاجتى إليك . .
« يامكملى . . .
« تعال وابحث عنى . . . أنا فى انتظارك
« لأهبك نفسى وقلبى وماتريد . . .
« تعال لتحطم معى هذه الأغلال . . . التى تحول بين قلبينا
« كى نتلاقى . . . وعندما تكون بقربى
« لن أتوانى عن كشف كل محاسنى لك . . .
« فقد أدخرت لك كل شىء
« فتعال . . . تعال وأنظر إلىّ
« إن كل ماستراه فىّ . . . لم يره انسان قبلك
« فتعال ياحبيبى . . .
« أرنى وجهك الجميل . .
« اهمس فى أذنى . . . كلمة الحب . .
« كى تهبنى القوة وأحطم كل مايحول بيننا
« واتبعك أينما سرت . . .
« وأكون لك . . . لك وحدك
« إلى الأبد . . . ياحبيبى . . . ؟

***

وظلت « سانى » تكرر هـذا النداء . . . وقد فتحت ذراعيها وراحت تضمهما فى الهواء وهى مغمضة العينين محاولة إقناع نفسها بأن الحبيب قد أقبل . . . وأنه لبىّ النداء . . .

وأخذت تضم ساعديها إلى صدرها فتتلاعب على شفتيها حرارة القبل . . . وتبعث بقبلاتها فى الهواء زاعمة أنها تقبله هو . . .

وهكذا تظل تعبث بالخيال والخيال يعبث بها حتى تخور قواها وتلقى بنفسها بين أحضان فراشها متعبة . . .

وبعد أن تهدأ أنفاسها المضطربة . . تعود فتستيقظ من أحلامها وتطوف بعينيها فلا تجد أحداً يشاركها الغرفة . . فتهتف أخيراً وعيناها مبللتان بدموع الحرمان :

— رباه . . . لم أنا وحدى . . . أريد حبيباً . . ؟!

* * *

فى ليلة من ليالى الصيف التى لم تفلح نسائم الغروب فى تخفيف حرارة النهار الذى ولىّ . . . ليلة محمومة النسائم تكاد فى هبوبها أن تلفح الوجوه بشواظ من نيران « الصعيد » فى شهور الصيف . . جلست « سانى » فى حجرتها بعد أن أحكمت أغلاق الأبواب كعادتها كلما انفردت للقراءة . . . وراحت تقرأ قصة ظهرت حديثاً فى سوق الأدب لمؤلف شاب أورد فيها ضروباً جديدة اكتسبها من قراءاته فى مختلف آداب الأمم التى وجه كبار أدبائها عنايتهم بالقصة . .

كانت قصة غريبة من القصص الواقعية ترويها بطلتها وهى فى الثلاثين من عمرها أحبت شاباً فى مثل سنها عندما تلاقيا ذات مساء فى بهو أحد الفنادق الكبيرة بإحدى مدن الإصطياف . وتمادت تلك الفتاة فى علاقتها حتى نسيت كل شىء من أجل حبها له ، وظهرت وإلى جانبها رجلها المختار فى كل مكان كما لو كانا خطيبين . . .

لم تفكر العاشقة فى شىء سوى إسعاد فتاها . . . فهذا رداء يحبه ، وتلك « تصفيفه » شعر طالما أعجب بها وهذا لون يروق فى عينيه كثيراً !! وهذه

طريقة فى الحديث ترضيه . . و و . . . دون أن تفكر يوماً فى أن رجلها كان كغيره من الرجال . . . ممثل موهوب أجاد دوره معها كما أجاده مع الكثيرات من أمثالها . .

وتوقفت « سانى » عندما وصلت إلى حادثة أزعجتها فى القصة . . . إذ كانت البطلة تسير ذات صباح مبكر على الشاطىء . . . فى غير مكان لقائهما ، وإذ بها تلمحه . . ! أجل رأت بعينيها مثلها الأعلى ورجلها المحبوب وقد أحاط خصر شابة شقراء بذراعه القوى وراح يهمس فى أذنيها كما اعتاد أن يفعل كلما تلاقيا . . .

وألقت « سانى » القصة جانباً وأخذت تسائل نفسها . . أيمكن أن يفعل ذلك رجل فى الوجود ؟ ! لئن وجد الرجل المخادع فإن ما أرجوه من الله أن يبعده عن طريقى ، وألا يجعل بيننا لقاء . . .

وبينما كانت مسترسلة فى أحلامها تلك . . . انتبهت على صوت عذب يردد عن بعد أغنية صعيديه غريبـــة . . . أنصتت إليها بشغف وكأنى بها قد انتشت بسحر النغم الهادىء الذى كان صاحبه يتحدث أيضاً عن الحب ! ! إذ سمعت :

« بعـــدك عن العين حرمنى الراحة والراحات »
« أسـأل عليك النجوم الغـــاديات والرايحات »
« لا الجفن نعسان سلب نومى وطار من ناى »
« وجدك الغض حين صوتك طروب بالنـاى »
« ندر علىّ فى يوم عيـــد اللقا والنـاى »
« لأجدد العهـــد وأشرب فى هواك راحات »

***

وأطلت من النافذة المطلة على الطريق المقفر وقد دفعها الفضول إلى رؤية ذلك الشادى . . . . كان قروياً صغيراً يكبرها سناً . . .

وعجبت . . . إذن فالحب يعرف هؤلاء الناس . . . ولكن أتراهم أيضاً يعرفونه ؟! وهل يقرؤون قصص حب كتلك التي ألفت بها منذ لحظات ؟!

واختفى الشادى الصغير فى جوف الظلمة بينما ظلت هى مكانها ملقية ببصرها بعيداً . . . بعيداً جـداً . . . عند أقصى الأفق حيث يلتحم الظلام بالظلام ، وحيث تعزف الطبيعة على أرغن الليل أناشيد الغموض التى تسكر العالمين . . .

ما الذى كانت ترقبه « سانى » فى الظلام ؟

لاشىء ! . . . ولا أحداً !!

إنها تسأل الظلمة أن تسفر لها عن وجه الغيب عساها تستطيع أن تراه !!

أن ترى رجلها المجهول !!

***

سادت البيت ذات يوم جلبـة وهرج . . . ما الذى حدث ؟! وسمعت « سانى » أن ابن عمها أتى لزيارتهم . . .

ابن عمها ؟!

وتذكرت ذلك العم الوقور الذى يحتل منصباً كبيراً فى القضاء الشرعى ، وكيف قام بينه وبين والدها سوء تفاهم قديم بسبب زوجاتيهما . . .

تذكرت ذلك العم وعـدد السنين التى مضت دون أن تتزاور الأسرتان ، ودون أن يعرف أحـد الشقيقين عن الآخر شيئاً . . . وعجبت فى نفسها لهذه الزيارة الغريبة . . . وما سرها ؟! أهو مشروع صلح قريب بين الأخوين ؟!

يالرجالنا فى مصر من مخلوقات سهلة الانقياد لنسائهم . . .

وتركت التفكير فى أمر عمها ولم ترض أن تشغل ذهنها فى تصور ابنه الذى لاتعرفه . . . وقالت تحدث نفسها :

« أنه لن يفترق عن بقيـة رجال الأسرة . . . شيخ معمم شاب . . . قضى جلّ حياته في أحـد أروقة الأزهر أو في كليـة من كلياته الجديدة أو في مدرسة القضاء الشرعي أو دار العلوم . . . »

وضحكت لهذه الأفـكار وحلا لها أن تصور هذا الشاب . . . شاب في حوالى الثلاثين أو أقل . . . يرتدي الملابس التقليدية « للمشايخ » عمامته مرتفعة قليلا وقد أطلق لحيتـه السوداء وشاربه الكث . . . صوته هادىء عميق يسعل بين الـكلمة والـكلمة . . . ويهز رأسه باستمرار ودون تعب . . . متربع في جلسته أمام والدها . . . أمام عمـــه الذي تقضي التقاليد بأن يخفض الصوت والرأس والعينين في حضرته !!

وشغلتها بعض مهام البيت عن ذلك السرد الغريب من التفكير فراحت تباشر عملها وهي تردد بصوت خافت إحدى الأغاني . . .

مرّ وقت طويل والبيت على عهده من الكآبة والصمت ، والزائر ما زال محتليا بعمه و « سامي » منهمكة في عملها حتى سئمته فتركته وسارت مجتازة البهو الموصل الى غرفتها . . .

ووجدت نفسها تتوقف لحظة . إذ كان باب غرفة الاستقبال قـد انفرج قليلا . . . ودفعها الفضول إلى رؤية من بالغرفة . فرأت أباها وشاب آخر . . . شـــاب يرتدي الزي العصري . . . نعم شـــاب كأولئك الذين قرأت عنهم في القصص . . .

وأسرعت نحو أمها والدهشة آخـذة منها كل مأخذ وهي تسائل نفسها عمن يكون هذا الزائر الشاب . . . وسألتها بقولها :

— أماه . . . من الذي يجلس مع أبي ؟!

— ابن عمـك « سعيد »

— ابن عمى أم زائر آخر ؟

— زائر آخر . . . ان ابن عمك لم يزل معه وانى لأعجب لِمَ تأخرا طوال هذا الوقت ؟!

— أظنه انصرف . . . وأن زائراً آخر مع أبى . . .

— كيف . . . ؟!

— منذ لحظة كنت أجتاز البهو فى طريقى الى غرفتى وكان باب غرفة الاستقبال منفرجا بعض الشىء فلمحت من فرجته شابا يرتدى الزى العصرى يجلس مع أبى . . . ولا أظنه ابن عمى . . .

— لاتظنين . . ؟! بل هو ابن عمك . . .

— أماه . . . أكاد لا أصدق . . . وكيف سمح له عمى أن يقلد الأجانب وأن يخرج على تقاليد البيت العريق ، وأن يستبدل العمامة بالطربوش والجبة والقفطان بالبذلة الافرنجية ؟!

— لقد تغير الزمن ياحبيبتى وابن عمك يتلقى العلم فى الجامعة المصرية ولزاماً عليه أن يرتدى هذا الزى كزملائه . . . أيعجبك هذا الزى « ياسانى »

— وكيف لا . . . أننى فخورة به أيضا . . . فخورة بأن فى عائلتى شاب يقال عنه « افندى » فقد مللت سماع « عمك الشيخ فلان ، وابن عمك الشيخ فلان » ، « والدك الشيخ فلان » ولم أسمع قط « فلان افندى » . . . ما أعذب هذه الكلمة . . . بل ما أجمل الرجال بهذا الزى الافرنجى الرشيق . . . أريد أن أرى ابن عمى يا أماه . . .

— ماذا أسمع . . . تريدين الظهور على ابن عمك . . . مجنونة أنت ؟!

— قلت الآن منذ لحظات أن الزمن قد تغير ؟! إذا لماذا لاتسمحون لى أنا أيضا بأن أساير هذا التغير . . .

ــ ماذا تقولين . . .

ــ أقول أن التقاليد التى سمحت للإبن أن يخالف أباه فى اتجاهه التعليمى . . . وأن يغير الزى الذى أورثتنا إياه القرون . . . تسمح بأن تتركنى أنا الأخرى أنعم بحرية تتمتع بها زميلاتى : مادمت قد تعلمت فى مدارس لاتعرفينها أنت . ولم تكن موجودة أيام طفولتك ؟!

ــ يا للداهية !! أكاد لا أصدق ما أسمعه . . . ابنتى أنا تنطق بمثل هذا الحديث الجنونى ؟! تريد تقليد المتفرنجات !! والظهور على ابن عمها ! أين تظنينا نعيش ؟!

ــ نعيش ؟ أن مصر قد ارتقت وتحضرت وتغير كل شىء فيها . . فلم .

ــ يا ابنتى . . . إياك والمجاهرة بمثل هذه الآراء فانك صغيرة ولا تعرفين ما ترمى إليه من معانى قد تجر علينا ما يشقينا . . .

ــ ليس إلى هذا الحد يا أماه . . . أننى أطالب بحق أراه طبيعياً بالنسبة إلىّ . . . أو ليس من حقى أن أعيش ؟ وأن أتمتع بالحياة الحقة كما سنتها لنا الشرائع والقوانين ؟ أظن أن الرق قدحرمته البشرية ، ولكننى أرانى لم أزل أعامل كما لو كنت من الرقيق . . . أعيش فى سجن تحوطه أفكار غريبة ونظم بالية . . . وماذا بعد ذلك . . .

ــ أنسيت أنك عذراء ولا يحق لك أن تنالى شيئاً من الحرية

ــ لم أنس قط يا أماه . . كما لم أنس انى التاج الناصع الذى سيكون حليتكم على مدى الايام . بل وأشعر بأنى مالكة لنفسى وانى أستطيع أن أوجهها التوجيه الصحيح الذى لا يتنافى وماترمون إليه . . .

ــ من علمك هذا الحديث الغريب ؟

ــ المعاملة الغريبة هى التى أوحت إلىّ ماقلت . . .

— يا صغيرتى الطائشة . . . انك لاتزالين بعد صغيرة . . . وسيأت اليوم الذى تعرفين فيه انك لم تكونى على حق . . . ستكونين فى يوم ما . ربة أسرة وستخافين أن تتسرب مثل هذه الأقوال إلى بيتك وترددها بناتك كالببغاوات التى تلتقط الألفاظ وتقولها دون أن تفهم معناها . . .

— لن أجعل بناتى ينطقن بمثل هذه الأحاديث لأنى لن أترك لهن فرصة لتداخل عقولهن أفكار كتلك التى شغلت خيالى . . . سأعلمهن الصراحة ، وأطلعهن على وجه الحياة الحقيقى لاطمئن إلى أن الزيف لايؤثر فيهن

— أصغى إلىّ . . . دعى هذا الحديث . . . لقد مر أكثر من عامين منذ تركت المدرسة وليس عليك إلا أن تنتظرى قليلا . . أنه قريب ذلك اليوم الذى يطرق فيه بابنا رجلك الذى تصحبينه إلى بيت آخر . . فاجتهدى أن تضعى هناك أسس البيت الذى تحبين . . . أما هنا فلدينا ميراث أسلمتنا إياه أجيال مضت فلا تحاولين المستحيل . إنك تعرفين كم أحبك ولذا سأغفر لك ماقلت على ألا تعودى مرة أخرى لإشغال نفسك بمثل هذه الخرافات . . . سأتركك الآن لحظة إذ طالت زيارة ابن عمك وأرى على الرغم مما بينى وبين أمه أن أذهب لتحيته . . . .

وخرجت الأم تاركه ابنتها وحدها فى الغرفة . . . وما أن اختلت « سانى » بنفسها حتى أخذت تنقل بصرها فى كل مكان وقد أحست بثورة نفسية تكاد تطغى عليها . . . ولم يكن فى استطاعتها أن تهدأ بعد أن فاضت لأمها بما اعتبرته منها جنوناً وخرافات . . .

وتبعت أمها بناظريها وهى سائرة إلى غرفة الاستقبال وأخذت تفكر . . . لم لاتذهب هى الأخرى ؟!

ودفعتها يد خفية إلى السير فى أثر أمها . . . وسارت حتى أصبحت على قيد خطوات من الباب . . . كان الصوت مسموعاً ، فتوقفت لتنصت ، وسمعت أمها تقول :

— إنه والدك « ياسعيد » ويجب أن تنفذ إرادته . .

— وإذا كان مخطئاً فى تقديره ؟

— الأب لايمكن أن يخطىء نحو ولده . .

— لاتقولى هذا عن رجل يزن الأمور اليوم بميزان الماضى . . إنه لايرى فىّ شاباً نال قسطاً من التعليم العالى واختلط بطبقات مثقفة وقرأ كثيراً وأطلع على أشياء وأفكار لايعرفها هو . . . يريد أن يفرض علىّ اليوم ماسبق أن فرضه والده عليه منذ نصف قرن ! !

ووجدت « سانى » للكلمات الثائرة التى نطق بها ابن العم صــدى حنوناً تجاوبته نفسها فتقدمت أكثر . . . وسمعت أباها يقول :

— أنا شخصياً أقرك على رأيك فلك أفكارك الخاصة . . أما فيما يتعلق بأمر مستقبلك فهذا مالن يوافقك عليه إنسان . . والصواب فيما يراه ولدك . . . لك أن تلهو مع من تشاء . . . واترك التفكير فى أمر الزواج له وإياك والمظاهر فانها خادعة وستجد بعد ذلك أن اباك أحسن منك اختياراً وأصدق نظراً . . .

— عمى . . . المسألة مسألة شركة أبدية . . . حياة مزدوجة . . . أأستطيع أن أرغمك على قبول شىء لاترضاه نفسك ؟ لو أن المسألة خاصة به لرضخت . أما أن يرفض موافقتى على الزواج ممن أريد فهذا مالن يرضاه أحد . . . ولا أظنك راضياً أنت عن هذا بينك وبين نفسك . . فارجوك ياعمى أن توفق بين رأيى ورأيه . . وأن تجعله يتنازل عن

اصراره ، وأن يترك لى حرية اجراء هذه التجربة . . فان فشلت فعلى اللوم وسأعود نادما وليفعل بى بعد ذلك مايريد . . .

ــ ولكن . . .

ــ تصافيا من أجلى . . . وتنازل عن حقك . واذهب إليه . . . فليس لدى ما أشكو له إلا أنت . . . ولن يصلح بيننا سواك ؟ !

ودهشت « سانى » إذ ماهذا ؟ !

شاب ليس إلى جانبه من ينصره ، أمام والد قاس يريد أن يقضى على عواطفه ويقتل قلبه . . . أن من حقها أن تدافع عنه . . . بل يجب أن تسمع هذه الأسرة صرختها المشتركة . . . لقد كانت منذ لحظات تجادل أمها ، وهاهى ذى تسمع ابن عمها يجادل أباها . . . أين يعيش هؤلاء الناس . . ومن أى مادة ركبت عقولهم ؟ !

ودفعتها اليد الخفية مرة أخرى إلى داخل غرفة الاستقبال . . . . كانت مفاجأة غريبة . . . مفاجأة تصاعد الدم فيها إلى وجه الأب وشحب منها وجه الأم ، وتولى ابن العم وجوم غريب . . .

وأمام هذا الموقف المحير لم يجد الأب سوى أن يقدم ابنته لابن أخيه . . . . نظر الشاب إلى ابنة عمه نظرة هدمت أفكاره ودكت صرحها . . .

« إنه ملاك لم يكن يتصور إنه ملاقيه فى بيت من بيوت الأسرة ! ! »

لم يرض الأب أن يطول المدى بذلك الموقف المثير ، فطلب من ابنته أن تتركهم إذ لديهم أمراً عائلياً يبحثونه وليس من اللائق بصغيرة مثلها أن تسمع مثل هذه المناقشات . . . .

وكادت تتكلم . . . كادت تقول أنها لم تدخل إلا لتعلن إنضمامها إلى رأى هذا الشاب الذى يريدون قتل قلبه فى ربيع حياته . . . أرادت هذا ولكنها

خشيت ثورة والدها وقد بدى الغضب واضحاً فى عينيه واخذ الشر يطل منهما عندما انتهكت حرمة جلستهم . . .

وسارت صامتة إلى الخارج وبعد برهة سمعت ابن عمها يقول لأبيها :

— عمى العزيز . . . أخشى أن أقول انى غيرت رأيى . . . وسأذهب الآن إلى أبى وأخبره بأن الفضل عائد إليك . . . وبأنه كان محقاً فى رغبته بتزويجى من بنات أسرتنا . . .

— استغفر الله ياولدى . . . بلغ الجميع تحياتى . . .

***

انصرف الضيف وعادت للبيت وحشته وسار الأب تتبعه الأم الوجلة إلى غرفة « سانى » وكانت ثورة عاصفة طأطأت لها الفتاة رأسها لتمر بسلام . . .

***

عاد « سعيد » إلى بيت والده نادما مستغفراً مما زاد فى دهشة الرجل ، وراح يقص عليه ما كان لعمه أمين بك من الفضل فى تحويله عن عزمه والرضوخ لأمره . . . وبعد أن فكر الشيخ طويلا لم يجد سوى أن يصرح لولده برغبته فى زيارة شقيقه لشكره ، ولإعادة المياه إلى مسيرها الطبيعى بين البيتين . . .

***

كانت مفاجأة سارة لأمين بك أن يرى شقيقه الأكبر يأتى لزيارته فى منزله بعد القطيعة والخصام . وعدّه شرفاً عظيما له . . . وتجاوبت فى تحيتهما صدى العاطفة التى ربطت بينهما طفلين وعادت من جديد ، وبللت محاجر أعينهما

بدموع الصفاء كى تزيل من أنفسهما ماعلق بها من جفاء ، ورأيا للدم الذى يربط بينهما حق عليهما وجدير بهما ألا يكفرا بهذه الرابطة المقدسة

ومرت فترة صمت كان جلال الأخوة الصادق يسيطر فيها على الأخوين ، وأخيراً سعل « سعيد » متعمداً ليبدد الصمت الذى إحتواهم . . . وانتبها ، وراح اكبرهما يعلن لأخيه رضاه التام ويشكره على ما أسداه إليه من جميل وما أصابه من نجاح فى إقناع ولده بعدم الزواج من فتاة غريبة عن الأسرة بعيدة عن تقاليدهم كل البعد . . .

ودخلت إليه زوجة أخيه وابنتها « سانى » التى انحنت باحترام على يد عمها الشيخ تقبلها فى رشاقة وأدب . .

وتبادلوا بعض الأحاديث التى لم تكن تخلو من العتاب الرقيق دون أن ينتبه أحداً منهم إلى أعين الحبيبان التى كانت لها أحاديثها الخاصة وآذانا تصغى للغة الأرواح السابحة فى فضاء الغرفة التى حوتهما وسط ضجيج هؤلاء الشيوخ الذى لم يفهما منه شيئاً . . .

واتفق الشقيقان على أن يعملا لإزاله الخلاف الذى بين زوجتيهما . . .

***

أخذ « سعيد » بعد عودته إلى بيته يقنع نفسه بأن أباه على حق فى إصراره بتزويجه إحدى بنات أسرتهم . . . ومادام الأمر كذلك فسوف يتزوج بابنة عمه « سانى » خصوصاً وإن الشقيقيان قد تم بينهما الصلح بعد قطيعة أعوام . . . وراح يفكر والبشر يعلو وجهه

أنه لم يكن يظن أن فى بنات الأسرة ابنة على هذا الجانب من الجمال . . . وكان يميل للشقراوات وهذا النوع يكاد يكون معدوماً فى هذه الأسرة الصعيدية . . ولكنه عاد ففكر فى أمها التى تنحدر من أصل تونسى . . . وفرح بعمه الذى

رزقه الله بابنة شقراء حالمة النظرات فى عينيها السحر ، والفتنة الحية تتمثل فى انسجام جسمها وبداعة تكوينه

***

كثر تردد « سعيد » على بيت عمه . . . فقد أحب « سانى » بكل عواطفه ونفسى إلى جوارها عالماً كان مليئاً أمام عينيه بالحسان والغادات . . . رأى فيها دنياه التى يجب أن يخلد فى رحابها . . . وزاده تعلقاً بها واطمئناناً إليها شعوره بصدى إحساسه المستقر فى أعماق قلبها ، وكان يرى دائماً خيال عواطفه فى أغوار عينيها . . .

وأحبته هى . . . وخيل إليها أنها وجدت الحب ممثلا فى شخصه . . . وأنه هو وحده الذى سيسعدها ويفتح أمامها أبواب الخيالات والأحلام ، ويبادلها عواطف الحب الكامل المطلق المنشود . . .

أجل . . . أحبته حبا قضت أنضر زهرات ربيعها فى تخيله . . . ووهبته عواطف كانت مدخرة فى أعماق قلبها طوال أعوام شاغلتها فيها صورة الرجل الذى سنحب . . . وطالما سألت الغيب أن يسفر لها عن وجهه لتنعم بطيفه فى ليالى الوحدة . . . ولكنها الآن تراه . . . لم يسفر الغيب عن وجهه بل أرسله إليها بروحه وجسده . . . وها هى الآن تسمع صوته ، وتطيل النظر إليه لترى جمال صورتها الخاشعة وهى منعكسة فى قرارتى عينيه !!

أحست بحياة جديدة تدب فى جسدها مع كلمات رجلها المحبوب ، كما رأى هو بدوره أبواب عالم جديد أرشدته إليه الأضواء الصارخة فى عينيها . . . ولم يكن أحدهما فى حاجة الى لغة الحديث بل كانت العيون تترجم مايودان قوله الى لغة أخرى تتدنى الشفاة ان تحملها الى الشفاة . . . انها لغة سامية وفى لقاء الشفاه ما يضمن بقاء سحرها الموسيقى العذب . . .

وبدأت الهمسات تدور فى البيت . . . وانتهت بمنع « سانى » من مقابلة ابن عمها ومشاركتهم الجلوس معه . . .

لم يتحمل « سعيد » فراقها على هذا النحو فخطبها من عمه « أبيها » وما أن أعلن عن القبول حتى توسل إليه أن يحدد موعد لعقد قرانهما ، وابتسم الشيخ وبعد برهة قال :

— أنت واثق ياسعيد بأنى أرحب بك ، ولكن ألا ترى معي أن الكلمة لوالدك ؟!

— وأنت تعلم ياعمي العزيز . . . كم يسعده هـذا النبأ السار . . . فلنحدد موعدا لعقد القران لتكون المفاجأة تامة . . .

— لاتكن طائشا الى هـذا الحد . . . وعلى والدك تحديد الموعد واجراء كل شيء . . .

— شكرا . . . شكرا . . . سأذهب اليه الآن . . . الى اللقاء . . .

***

وإذا . . . فقد نالت « سانى » طلبتها العزيزة ، وهاهى ذى ستصبح زوجة رجل أحلامها وجرت بها الأفكار مسرعة كمن تود تعجيل يوم الزفاف لتعيش مع فتاها فى ذلك العش الذى طالما تخيلتـه بينما كانا يبنيان من الآمال قصورا ذهبية . . . ولكن . . . ؟

ماكاد « سعيد » يزف النبأ الى والده ويقص عليه ما دار من الحديث بينه وبين عمه وهو يكاد يطير من الفرح حتى بدى له عكس سروره منطبعا فى وجه الشيخ . . . ومرت فترة صمت قاتمة . . . وراحت عينى الرجل تحملق فى ولده . . وأخيرا . ثارت ثائرته وأصبح وكأنه ليث جريح يزأر من فرط الغضب . . . وصاح مزمجرا :

ـــ ويلك . . . . .

أنه الآن فى موقف حرج وضعه فيه ولده الذىلم يفاتحه برغبته من قبل لكى يردّه عن عزمه . . . نعم . . ولكن الآن . . . وبعد أن تحدث الفتى مع عمه . . . ماذا يقول ؟ وماذا يفعل مع هذا الابن العاق الذى تصرف دون استئذانه . . .

وتحدث « سعيد » فقال :

ـــ أتراها جريمة لا تستحق عفوك يا أبى ؟

ـــ لاتسألنى العفو . فقلبى وربى غاضبان عليك

ـــ ولكنى لم أفعل ما يستحق غضبك

ـــ وماذا كنت تريد أن تفعل أكثر من أن تخطب دون إذن منى ؟

ـــ ومن خطبت ؟ أليست « سانى » ابنة عمى ؟ فما الغريب فى هذا

ـــ أجل . . ما الغريب فى هذا . . . ولكن . . . هل خطبتها لك أنا . . . هل باركت خطوبتكما ؟ !

ـــ لم يتم للان شىء . . . ونحن فى انتظار كلمتك بتحديد يوم لعقد القران . . . فالعروس ابنتك كما أنا ابنك . . .

ـــ نعم ابنى . . . انك حقــاً ابنى الذى حطم فى لحظة ما أدخرته له من مشروعات تسعده . . . لقد أعددت لك شيئاً غير هذا . . .أعددت لك عروس مثرية تملك عقــاراً ومنقولا وأرضاً وليست عروس كتلك التى تخيرتها . . . عروس لا ثروة لها ؟ !

ـــ المال وحده لايسعد قلبين ، ولا ينير دجنة حيــاة تعسة . . إن الحب وحده يا أبى . . .

ـــ كفى . . . حب ! ! الحب هو نفخة الشيطان فى أرواحكم . . . أهو الحب الذى يدفعك للزواج من فتاة فقيرة . . .

ـــ انها ابنة شقيقك وليس الذنب ذنبها فى ذلك . .

ــ وما ذنبي أنا كي يتزوج ولدى من فقيرة ... ألأنها إبنة أخي ...؟ ومالى وأخى ... لقــد كانت عودة مشئومة تلك التى أرجعنا فيها علاقتنا ...

ــ والآن يا أبى وقد أعطيته كلمة ... وأصبحت خطيب « سانى » أمام أسرتها ماذا عساك صانع ؟

ــ كنت أريد أن أسألك أنت هــذا السؤال .. أما وقد سألتنى فانى آمرك أن تصلح فى التو واللحظة هذه الغلطة ...

ــ ولكن ... كيف ؟

ــ صرح لعمك بأنك عدلت عن فكرة الزواج من ابنته ...

ــ ماذا ..؟! فكر لحظة يا أبى ... لقد غدوت اليوم رجلا وأعرف كيف أحافظ على كلمتى ... وفوق ذلك أنى أحبها ولا يمكن أن تكون لسواى ... أنها لى وسأتم عقد قرانى بها فى أقرب فرصة ... وسيان لدىّ قبلت ذلك أم رفضته ...

ــ سعيد ... أجننت ؟! أعيد عليك القول للمرة الثانية ... اذهب إلى عمك واخبره بما أمرتك به ... ثم عد إلى أزوجك بأخرى ...

ــ أبى .. أتظننى قطعة من منقولات بيتك تغيرها كلما أردت وتبدلها إذا حلا لك ذلك ؟!

ــ إن لم تطعنى فستندم ..

ــ لقد صممت يا أبى ... فافعل ماتراه

ــ سأحرمك من الميراث ، وسأجعلهم يضطهدونك فى عملك ، وسأسعى لنقلك إلى مكان بعيد ... سأرهقك وسأجعل الحياة أمامك جحيما ...

ــ أنا راضى بكل شىء ... فافعل ماتريد ...

***

خرج « سعيد » والدنيا مسودة فى عينيه فذهب إلى بيت عمه وهناك استقبله العم بابتسامة تنم عن الطيبة ورقة الشعور . . . وقبل أن يجلس قبالته ابتدره « سعيد » بقوله :

ـــ عمى . . . أترضى بى زوجا لابنتك فى حالة إذا كنت لا أملك سوى مرتبى ؟ !

وعلت وجه عمه الدهشة وهو يقول له :

ـــ بالطبع ياولدى . . . ولكن لم هذا السؤال الغريب . . . أنى ألاحظ فى عينيك ثورة مكبوته . . وفى رنة صوتك ألم . . فاخبرنى ماذا حدث . . .

ـــ لاشىء . . . فقط كنت أريد أن أطمئن على ما سألتك عنه . . .

ـــ أنك ابن أخى ياسعيد . . . ويكفينى هذا فخراً . . ومادمت تحب ابنتى . . فانى أرحب بك من كل قلبى حتى ولو كنت مجرداً من مرتبك . . فأنت ولدى والعروس ابنتى . . .

وجالت الدموع فى عينى « سعيد » تأثراً وآلمه أن يرى عمه أكثر عطفاً وحناناً من أبيه وراح يقص له كل ماحدث . .

وبدى الألم واضحاً على جبين الشيخ وبعد لحظة قال له :

ـــ ياسعيد . . . حقاً أننى بالنسبة لثروة أخى والدك . . . فقير ، ولكنى ثرى بالنسبة إلى أناس آخرين . . . وأحمد الله كثيراً على هذه النعمة . . . فلم احتاج قط لانسان . . ولن يحتاج أحد من أبنائى انشاء الله لأحد . . . لن يرثوا من بعدى ثروة طائلة ، ولكنهم سوف يستطيعون العيش سعداء . . . وخير المال مايكفى لقضاء الحاجة . . حمداً لله وشكراً

ـــ عمى العزيز . . . أتقبلنى إذاً . . ؟

ـــ أود ذلك من صميم قلبى . . . ولكن ؟ !

ـــ ولكن ماذا . . . أفصح

ـــ والدك . . .

ـــ مالى ووالدى . . . لقد افترقنا وانتهى الأمر . . ولن يرانى مرة أخرى . .

ـــ ومن أجل ذلك يجب أن أرفض . . . لتعود إليه . .

ـــ لا . . . لن أعود إليه أبداً . . .

ـــ تعقل ياسعيد . . . ولا ينسيك غرامك فضل الوالد على ولده وما يجب أن تكون عليه من الطاعة له . . والعمل على رضاه . .

ـــ وهل يسرك أنت أن أشقى فى سبيل رضاه . . .

ـــ ليس هناك شقاء ياولدى . . . الأمر بسيط . تزوج بمن يختارها لك

ـــ محال هذا . . . انك تحطم الأمل الباقى لدىّ . .

وفجأة دق باب الغرفة وإذا بالخادم يعلن قدوم الشيخ والد سعيد . . . استقبله أخوه مرحباً ، وما كاد يرى الوالد ولده حتى بدى عليه الغضب وراح يناقش أخاه فى أسلوب جاف قاسى وهو يشترط عليه كأساس لموافقته أن يهب كل مايملكه لابنته « سانى » وحدها إن أراد إتمام الزواج . . ليضمن بذلك مستقبل ولده . . .

ورفض والد « العروس » كما رفض « سعيد » هذا الشرط . . فانصرف الشيخ غاضباً . . . وبكى « سعيد » بين يدى عمه وأخيراً وعده باتمام كل معدات الزواج على نفقته الخاصة . . وبعد أيام عقد قرانهما . . . وتحدد موعد الزفاف

***

دعت أسرة « سانى » الأقارب والأصدقاء والأحباب لحضور حفل زفاف ابنتهم . . . وإزدان البيت بالأعلام الملونة وفرشت الأرض بالرمال وبدأت العروس تعد نفسها لاستقبال حياتها الجديدة التى لم يتبق عليها أكثر من يومين . .

دق الباب صباح ذلك اليـــوم وإذا بالطارق يطلبها . . . هى بالذات . . . باسمها . . . ويسلمها مظروفا . . . وجف قلبها عنـــدما أمسكته . . . وبأصابع مرتجفة فتحته . . وإذا به يحتوى على ورقة « طلاقها » ! !

الصك المشئوم الذى هدّ صرح حياتها ودكه دكاً ثم أسلمه للريح فعبثت به وبددته مع هبوبها القاسى . . .

وقرأته فاذا به . . . هو . . . رجلها المعبود قد وقعه وسرّحها بلا رجعة . . . طلاق بائنة . . .

« يا أعاصير القدر الثائر اقتلعى اليقين من النفوس ولا يزد به عبثك القاسى . فماذا تبقين للناس بعد ذلك ! ! »

وبعد وقت قصير أتى إليها . . . هو « سعيد » وأذهلتـه النظرات الغريبة الموجهة إليه . . . وحده دون الجميع . . وقف أمامهم مشدوها وكان يحمل بين يديه هدية لعروسه . لم يجرؤ على تقديمها . . . وبعـد لحظة . . . انفرجت شفتيه عن كلمة كانت غريبة على الأسماع :

ـــ ماذا حدث ؟ !

ودوت كلمته فى المـكان فأيقظت عواطف « سانى » وصرخت فيه قائلة :

ـــ ألا تدرى ماذا حدث . وكانت لك الجرأة على الحضور رغم ذلك . . . أى جرم وإى نفاق ! !

ـــ سانى

ـــ لا تنطق باسمى

ـــ ألست زوجك ؟

ـــ زوجى ! ! وقرار « الإعدام » الذى رسلته إلى اليوم ؟ ! خذ واقرأ إن كنت قد نسيت ؟ !

وفى عصبية وثورة أعطته « الصك المشئوم » الذى تسلمته ... فراح يقرأه وهو مكذباً عينيه ...

وتخاذل « سعيد » مكانه وقد عرف من أين هب الأعصار المدمر فاقتلع سعادته وعصف بها ...

انه والده القاسى وقد أتقن « تزوير » جرمه ووضع بهذه « الورقة » ابنه أمام الواقع الأليم .. فإما الرضــا به وإما فضيحة يفقد فيها الأب مكانته والأسرة مركزها الرفيع ...

إذن .. ما العمل ؟!

يجب أن نجد حلا لهذه المشكلة وليكن بعدها ما يكون .. وقالت له :

— يجب أن نعمل سريعاً ياسعيد ؟!

— أنا مشلول الحركة لا أستطيع عمل أى شىء ... فكرى ... اذهبى إلى الوحش الذى إلتهم سعادتنا ... توسلى إليه بدموعك ... بآصرة القرابة ... برباط الدم ... بكرامة أسرتك ... بحرج مركز أبيك ... إذهبى إليه ياسالى علّ دموعك النقية تلين قلبه الصخرى ... وتوقظ ضميره ، وأما أنا .. فذاهب إلى أمى .. علهــا تصفح أو تساعدنى ...

***

وسارت الفتــاة فى اليوم الثانى بقلب كسير إلى عمها ... إلى الجانى الذى أبىَ عليها منحة السعادة ...

كان فى عمله تحف به مهابة وظيفته ويحوطه سلطانها ... توسلت إليه ولكن دون جدوى ... بكت دون أن يرحم ... بل تجاسر فصرح لها بأنه « سجن » ابنه فى البيت ليجبره بالقسوة والتعذيب على نسيانها والبعد عنها ...

ذعرت التعسه أمام هـــذا التصريح الجرىء ووجدت نفسها أمام مأساة أخرى جديدة . . .

إذاً . . . ما العمل ؟!

وحفل القران !!

ووجدت نفسها وقد انحنت على يد الأب القاسى تقبلها وقد تجمعت الدموع فى عينيها . متوسلة أن يتركه لها بضع ساعات فقط . . . بضع ساعات « يمثل » فيها « دوره » فى مأساة حياتها !!

ولكنه أبىَ . . . رفض أن يمثل ابنــه دوره الحقيقى . . . فانفجر بركان غضبها وثارت وعـلا صوتها وتجمهر الموظفون وسمعوا قصـة التعسة وكلهم فى دهشة لم يرضى معها أن يصدقوا أن فى الحيـاة حيواناً مثل هـذا الرجل فى صورة الآدميين !!

وأعلنته بأنهـا ستلجأ إلى . . « القانون » لتحقيق هـــذا « التزوير » وأخيراً . . . وعدها . . .

***

كانت الأنوار تلمع فى جوانب الليـل والموسيقى تصـدح بأنغامها العذاب والمنشدات ينشدن بأعذب الأغانى . . . وهى

يا للحائرة الضـالة بين جموع المدعوات . . . كانت بين الفينه والفينه تسأل عنه . . . وهل أتى كوعد أبيه أم . . . ودون أن تظفر بجواب . . .

كيف ؟!

هل حنث الرجل فى وعده ؟!

أجل . . .

« فى اللحظة التى كان كل شىء فيها قد تم للزفاف كان المسكين داخل غرفة أغلقت عليه، وخيّر بين الخروج منها أو طلاق أمه وتشريد إخوته !! »

وارتدت العروس ثوب الزفاف ... الثوب الأبيض الناصع الذى تتمثل فيه براءة العذارى وطهارتهن، وحلت رأسها بأكاليل الياسمين الشاحب شحوب وجهها وتوسلت إلى من حولها من الصديقات والأهل أن يتركنها وحدها لحظات ...

أيتها الوحـــدة القاتلة انك ماغذيت نفساً إلا بأبشع الأخيلة وأفظع الصور .. ؟!

وجعلت التعسه تنقل بصرها فى الغرفة المزينة وفى قرارة نفسها تتردد ضحكة ساخرة كان القـــدر يرسلها وقد أثملته فرحة التشفى والانتصار !! وأطالت النظر إلى خيالها الذى انعكس فى مرآة كانت أمامها ...

ملاك برىء سلبوه جناحيه فأصبح عاجزاً عن الطيران الى عالمه المقدس !!

لقد أحبت فى نفسها صورتها وأحست من أجلها بالرثاء ... عروس فى ثوب عرسها وقد شارفت ساعة الزفاف ... واختفى رجلها .. ولن تراه !!

وضحكت ضحكة باهته غريبة ونظرت حواليها وهى لاتكاد تصدق ... وراحت صور غرامها القصير وسعادتها التى ولت تتوارد أمام ناظريها ...

وأحست بدموعها تنهمر على وجهها فى حين افترت شفتيها عن ضحكة عريضة ... ياغرائب القدر ! أهكذا ترغمينا على الضحك والبكاء فى وقت واحد ! ؟ أما كان يجدر بك أن تجعلى من هذه الدموع تراجيع عذبة من السرور والغبطة ... !!

ياقلوب البشر التى تحجرت وباتت لاتلين إلا للمادة ... ولا تخضع إلا لقانون الزوال ... أتراك تجردت من كل عاطفة نبيلة ؟! وهل أعمى الذهب

الناس وجعلهم لا يرون ما يفعلون . . . يقطعون صلة الرحم ويقبرون القلوب ولا يعبئون بالعواطف السامية ! !

ياليلة ظننت أن السعادة فيها ضيفاً أبدىّ البقاء فى قلبى . . . ياليلة ظننت أننى نلت فيها كل شىء . . . أنك الفاصل بين عهـــد تولى ، وبداءة لعمر جديد من الهم والأحزان . . .

عمر جديد ! ! كيف !

أما زلت أحلم بالحياة وبريقها ؟ !

لا . . . يجب أن أقرر النهاية وأضع الحد النهائى لهذه المهزلة . . . أيتها الحياة التى ضحكت لى طويلا ثم عبست عبوساً قاسياً سأفارقك ؟ !

ماهذا ؟ ! أيبلغ بى التفكير حتى أتصور الموت ؟ !

لا . . . هذا لن يكون . . . أأموت والجانى الآثم مازال حياً ؟ أأقضى على زهرة شبابى من أجل عجوز مخرف ؟ !

سأعيش . . . .

أجل أعيش . . .

أتسمعينى أيتها الجدران التى طالما رددت همساته ؟ أتسمعينى . . . إذاً . . . اجعلى هذا الحديث دائم الترديد بين جنباتك وإياك وأن ينقطع صداه . . . سأعيش أجل . . . سأعيش . . .

لا تسخرى منى أيتها الكائنات الخفية وأنت من حولى . . لست مجنونة أنا . أنا فى تمام عقلى ولكن . . . سأعيش أجل سأعيش

أأحرم من الحياة ؟ لا . . . انها حق اكتسبته ولن أفرط فيـه . . سأبقى وسأغلق القلب دون العواطف . . . سأسمو بك يا أفكارى نحو عالم آخر غير ذلك الذى أعدتنى الأسرة له . . . والآن . . . ماذا أفعل ؟!

« عروس تنتظر بملابس الزفاف رجلها الذى لن يأت . . . ولكنى سأعمل على انقاذ الموقف . . . . »

كانت المدعوات يصخبن ضاحكات سعيدات عندما خرجت هى من غرفتها ثم . . . بدأت بدورها تضحك وتضحك حتى امتلأ البيت بضحكاتها الهستيرية الثائرة . . .

وظلت تضحك حتى سقطت على أقرب مقعد ونظرت حواليها . . . كانت أمها تبكى وأباها يغالب أساه كرجل . . . وعندها قالت :

— لقد نجحت فى مفاجأتى . . . الليلة عيد ميلادى السادس عشر وقد أردت أن أحتفل به على طريقة جديدة . . . فكانت مفاجأة اعلان زواجى الخرافى . . . هيا . . . ولنقضى سهرتنا سعداء كما أردت

وأسرعت « سانى » كالمجنونة إلى الأبواب التى تفصل النساء عن الرجال ففحتها على مصرعيها وهى مازالت تضحك . . . وتقول :

— تعالوا . . . تعالوا أنتم أيضاً وشاركونا هذه السعادة . . . إننا نحتفل بعيد ميلادى وليس من اللائق أن نترككم وحدكم . . .

وكانت حفلة ممتعة تملأها البهجة وظل مدعووها حتى مطالع الفجر وقد أسلموا أنفسهم للسعادة والسرور دون أن يعرف واحداً منهم أو واحدة . . . السر الغريب القاتل . . .

***

وعندما استردت « سانى » صحتها بعد مرض طويل وعاد إليها هدوءها كان والدها يقف بمقربة منها مواسياً . . أما الأم فقد تقرحت عيناها أثر البكاء . . . ونظرت اليهما الفتاة وهى تقول :

— لاتبكيا ؟ . . . لقد نفذت إرادتكما فاتركانى . . . لقد أردت السعادة

فى الزواج . . وها أنتما تريان انى فشلت فى طلبتى . . اتركانى . . سأنشد السلوى فى شىء آخر . . . وسأطالع من الكتب العلميـــة والفلسفية ما أشاء . . .

***

وظهرت فى كبريات الصحف قصصاً واقعيـة بقلم آنسة . . كان لظهورها فى ميدان الأدب هزة إعجاب وسرور . . .

واشتهر اسمها وعلا صيتها وبدأت تكتب وتكتب مستمدة الوحى من قصتها الدامية . . .

وانها الآن لتضحك . . . كانت من مدمنات قراءة القصص فأصبحت زعيمة كتابهن . . وانها الآن لتحس السعادة فى سلواها الجديدة بعد أن غير القدر مجرى حياتها ووجهها إلى ناحية تحس الآن فى صميم روحها انها خلقت من أجلها . . . من أجل حمل مشعل من نور الفن الأدبى تطالع به على دنيا من العالمين ترقب نفثاتها بشوق عظيم . . .



وهبط الستار فى مسرح الحياة دون أن تشعر السعادة بملل أو فتور بل أحست أنها عاشت مع فتاة فيها كل معان الطموح وقد رسمت لها غاية وهدفا آلت أن تحققها مهما عاندتها الحياة

والتفتت فاتنة الأجيال إلى وزيرها الضاحك كأن تسأله المزيد . .

أى عرض ناجح !!

وصفق الأمل بيديه إيذانا ببدء قصة ثانية . .

ورفع الستار عن . . .



انحدرت الشمس آفلة نحو المغيب ، وألقت بأشعتها الواهيــة وهى تنظر نظرتها الأخيرة مودعة تلك القرية الصغيرة الهادئة وقد كثرت الحركة ، فهؤلاء عائدون إلى أكواخهم ، وهؤلاء أطفال يهرعون إلى أحضان أمهاتهم ... فغروب الشمس هو موعد رهبة ودعة ... فلا تسمع سوى همهمة الأشجار التى تترنح وتتمايل كلما داعبها الهواء وزقزقة طير افتقد عشه أو غاب عنه أليفه ... وحيث ترى فتيات القــرية يحملن جراتهن وأوانيهن وهن جماعات متجهات نحو الترعة ...

ولكنك كنت ترى على بعد من هذه الجماعة فتاة فى ريعان شبابها وقد ارتدت ثياباً متهدلة ، وآثرت أن تذهب لتملأ وحدها .. لم تكن تلك الفتاة سوى « سلمى » التى لم تكن تخالط أهل القرية فى شىء .. إذ كانت تعد نفسها أكثر ثقافة منهن . فهى تعرف القراءة والكتابة إذ كانت فى إحدى المدارس بالمنيــا إلى أن مات أبوها وهى فى الحادية عشرة من عمرها فعادت وأمها إلى مزارعهم فى قرية صغيرة ليعيشا مع جدها العجوز ...

وفى ليلة من ليالى مايو الحارة وكان البــدر مكتملا وقد انتشرت أشعته الشاحبة على الطريق المنساب بين الحقول فعكس ظل الفاتنــة الريفية « سلمى » وهى فى طريقها إلى الترعة لتملأ جرتها ، وإذ كان الليل صافياً والجو جميلا وكل

ماحولها فضاء وسكون وأرض خضراء ممتدة فسيحة . . . ومجرى رقراق انعكست على صفحته أشعة القمر . . .

وضعت « سلمى » جرتها وألقت بنفسها على العشب وراحت تحدق فيما حوالها وكأنها ترى ذلك لأول مرة فى حياتها . . .

أي جمال ؟!

ووجدت نفسها وقد تخلصت من كل مظاهر الحياة واعترتها هزة من الرضى والقناعة . . . ارضى بما كتبه الله لها . . . والقناعة بما جادت عليها الحياة به . . . غير أنها أحست بدبيب غريب من سعادة تحوم حولها . . . وانتبهت من أحلامها على صوت علا بها عن العالم المادى إلى دنيا من الجمال والموسيقى . . . صوت كان يسرى مع النسائم المستكينة لصمت الليل فهز جسدها وجعل القلب منها يضطرب وكأنى بالمنشد يوقع على أوتار فؤادها الحساس وهو يقول :

« من حسن طبعك وطبع الحسن حبيتك »
« شفتك عشقتك من الأول وحبيتك »
« ياما ناديتك وابتنى ولبيتك »
« فيه اتفاق ياجميل بينى وبين روحك »
« قلبى دليلى وعنيك بتقول لى حبيتك »

أي نغم !!

وإلى أى عالم سرت بها هذه الكلمات الموسيقية التى اهتزت لها وحشة الليل ورقت ظلمته ؟!

وأحست بتراقص قلبها مع موسيقى النغم الهادىء الذى أفصح عن عاطفة ثائرة تضطرم حباً وغراماً . . .

أية أغنية !!

إنه يتحدث عن الحب . . . يتغنى بالحسن . . . يشدو بالعشق والتدله . . .

وأحست بقلبها يثور . كالطائر الظامىء يتوق إلى شربة من منهل الخلد يروى بها روحه العطشى . . .

وراح الصوت يزداد قوة واقتراباً . . . ونظرت فاذا بمركب كبير يلوح لها فى النيل . . . ودفعها الفضول إلى رؤية ذلك الشادى . . . وإن قلبها ليخفق حتى لتخال راحتها فى رؤيته . . .

أجل فى رؤية ذلك الذى يتغنى بالحب ويشدو بحديث الهوى . . . وإذا بها تقوم متمايلة تتثنى وكأنها فى حلم . إلى شاطىء النيل لترى المركب وهى قادمة نحوها . . . فلمحت شاباً يدير شراعها وهو يواصل غناءه حتى استكنت المركب بين أحضان الشاطىء . . .

وخشيت أن يراها الشاب فاسرعت إلى بيتها المتواضع . . . لم يتطارق النوم إلى عينيها فقد ظلت طيلة الليل تترنم بتلك الأغنية وكأنها مازالت تتردد فى أذنيها . . . حتى تبددت خيوط الليل أمام شروق الفجر ، فقامت إلى عملها وكل عقلها وتفكيرها فى ليلة الأمس الجميلة . . . .

مرّ اليوم الثانى متثاقلا بطيئاً أو أن « سلمى » أحست بأنه بطىء فى مسيره . إذ كانت بلا شك تنتظر المساء لتنعم بجماله وبسماع الأغنية . . . .

انتظرت حتى عادت فتيات القرية وخلا الطريق وسارت إلى الترعة . . . غير أنها لم تشعر هذه الليلة بجمال القمر الذى كان يفيض بنوره الفضى على القرية فيزيد من سحرها ، ولم تشعر بروعة الليل الهادىء الذى هبت النسمات فيه تداعب سيقان الأرز الرخوة وشجيرات القطن الصغيرة . . . فقد كانت لاهية عن كل هذا بانتظار سماع الأغنية . . . وكانت كلما مرت الدقائق تزداد ألماً ومللا من هول الانتظار حتى كادت تيأس من عودته . . . . وأخيراً سمعت الصوت

على بعد . . . فوقفت . . وظلت واقفة حتى أقبلت المركب وهى منتشية من سحر النغم . . . ورآها الفتى . . . وما كادت أعينهما تتلاقى حتى غلبها الحياء وأسرعت تعدو إلى بيتها وقلبها يكاد يطير فرحاً . . . فقد كان الفتى جميلا . . . .

وفى الليلة الثالثة ذهبت كعادتها وراحت تنتظر عودته . . . ولم يكن يدفعها لانتظاره فى هذه المرة سماع صوته فقط . . . بل لرؤيته هو أيضاً . . . وراحت تحملق بعينيها نحو النيل تارة وترهف بأذنيها تارة أخرى . . . علها تراه أو تسمع صوته . . . ولكنها لم تسمعه . . بل رأته قادماً نحو الشاطىء . . وكان صامتاً . . . فدهشت واكتأبت ونظرت إليه وقد علت وجهها دلائل الانزعاج . . . أخذت ترقبـه وهى تسائل نفسها . . . لماذا لا يغنى . . . أحزين هو . . . أمتألم . . . ومن ماذا ؟ !

وأخذت تحدث نفسها وهى قلقة وقد خيل إليها إنه مهموم . . ورآها هو فسار نحوها فى خطوات متثاقلة . . . ودهش إذ رآها ثابتة فى مكانها لاتحاول الفرار من أمامه كالليلة السابقة . . . ودفعها الفضول إلى التحدث إليه لتعلم منه سبب صمته ، وما يشغله ويحزنه ولم يعد للحياء مكان أمام القلق الذى ساورها لصمته هذه الليلة فظلت مكانها إلى أن حياها الفتى :

ــ مساء الخير . .

فارتجفت وتلعثم لسانها وكادت تفقد شجاعتها ولكنها تمالكت نفسا وقالت بصوت خافت يفيض رقة وحياء :

ــ مابك . . . لم لا تغنى ؟ !

ورآها الفتى تزداد ارتعاشاً وارتجافاً وقد شعرت الفتاة بضعف وخارت قواها وتولاها الحياء من جديد وهمت بالانصراف بل أرادت أن تطلق لساقيها العنان . . . وقبل أن تخطو خطوة رأته يمسك بها بلطف . . . ونظرت إليه فتلاقت أعينهما متسائلة . . . ثم تفاهما . . دون أن يتكلما . . . .

وعدها الفتى « محمود » بأن يغنى لها كل ليـــلة عند عودته مادامت تريد سماعه ... وبعد أن تمتعا بلحظات غرام ... عادت « سلمى » إلى بيتها وهى لاتكاد تصدق ماحدث ، وكأنها كانت سابحة فى حلم جميل ... وتكررت مقابلتهما كل ليلة تحت جنح الليل البهيم وسمع النيل أحاديث غرام طاهر لفتى ساحر قوى ممتلىء صحة وسعادة وقناعة لم ير أكثر من مركبه ونيله وشاطئيه ... وبين فتاة طاهرة لم تعرف شاباً من قبل ... وشهد الربيع غراماً كان من نوع جديد ...

***

فى ليلة من ليالى الشتاء ، وفى ضاحية من ضواحى القاهرة حيث أمعن الليل فى طغيانه ونشر الهدوء ألويته على العالم ... كنت لاتسمع بين السكون المطبق إلا دوى الرعد يعصف بين الفينة والأخرى ... ورنات المطر وهو يصطدم بالزجاج المغلق ، ولا ترى إلا بضع مصابيح متناثرة هنا وهنـاك يشع منها نور ضئيل وقد آوى الناس إلى مساكنهم يحتمون بها من موجات البرد القارس والمطر المنهمر .. وكنت إذا أمعنت النظر فى قصر هناك تطل من بين جنباته دلائل النعمة ... رأيت فى نافذة أزيحت ستائرها عينين ترقبان الطريق فى لهفة ... وحنين ... هما عينا أم ... فقد قارب الليل على الانتصاف ولم يعد ابنها بعد ...

كانت الأم فى مكانها إلى جوار النـــافذة وكلها آذان تصغى وعيون ترقب عودة ابنها ووحيدها « عادل » ... وما كادت ترى سيارته الـكبيرة وهى تتجه نحو القصر حتى علت شفتيها ابتسامة الاطمئنان التى غمرت نفسها الهالعة بقبس من سعادة وهدوء كانت تتوق إليهما ..

وما كاد « عادل » يدخل غرفته حتى سمع وقع خطوات أمه تتجه نحوه .. ودخلت الأم ، والتفت إليها عادل وقال :

ـــ عجباً يا أماه ... أما زلت مستيقظة .. أم تراك كنت نائمة فأقلقك ؟

فأجابت وهى تجلس على أحد المقاعد :

— وهل تظننى أستطيع النوم قبل عودتك فى ليلة ممطرة كهذه ؟ خصوصاً وأنك تقود سيارتك بنفسك . . .

— آسف جداً . . . فما كنت أظن أنك تنتظرين عودتى . . . ليتنى بكرت فى العودة . . . أكرر أسفى يا أماه . . .

— شكراً ياولدى . . لقد اطمأن قلبى الآن ، وأحس بأنك أحسن حالا منك فى الصباح . . أليس كذلك ؟ !

فاطرق برأسه قليلا ولم يجب ، فأردفت تقول بحنان :

— وددت لو تحدثنى عما يشغلك . . . عسى أن أتمكن من الترفيه عنك . . ولكن أتركك الآن لتنام . . . وليرعك الله . . .

— أظن أنى ضايقتك صـــباح اليوم . . . فعذرة . . . إذ كنت مضطرباً قليلا . . .

— عادل . . . لقـد تغيرت كثيراً ياولدى حتى لأشعر بالقلق من أجلك هذه الأيام . . . فأنت تميـل إلى العزلة على غير عادتك . . . وتفكر كثيراً وكلما سألتك . . قلت لاشىء . . هذه الكلمة تزيدنى حزناً . . . وكأنى لست أمك التى يهمها كل ما يهمك . . . بل كأنى لست جديرة بأن أعلم مابنفس ولدى ووحيدى — وأنت تعلم أننى لست ككل أم . . فلك وحدك كل مابين جنبى من حب وحنان ولا أعمل إلا لسعادتك . .

— ليس هناك مايحزننى مطلقاً يا أماه . . .

— لاتحاول خداعى وقد عودتك على الصراحة والصدق . . . شعور الأم صادق دائماً . . . وأنى لأحس فى أعماق نفسى وقلبى بأنك مهموم . . . ومن واجبى أن أشاطرك همومك لأرفه عنك وأخفف مابك بقـدر

ما أستطيع . . . ومن واجبك أنت أيضاً أن تطلعني على كل شيء . . . لمن تشكو إذاً . . . ومن في هذا العالم يهمه أمرك سواي . . . لقد نلت ثقافة عالية كفيلة لأن تلقنك مقدار ما تكنه الأم لولدها . . . وأنت وحيدي وليس لي سواك . . بل ليس لي رجل يحميني ويحمي شيخوختي إلا أنت . . . ولقد جعلت منك رجلي الذي أعتمد عليه بعد وفاة والدك . . . وعنيت بك وبتعليمك وتثقيفك ، وها أنت قد نلت أجازتك وغدوت رجلاً أفخر به أمام نفسي وأمام الناس . . . فاكشف لي ما بنفسك ياولدي . . .

ظل عادل مطرقاً دون أن ينبث ببنت شفه وأخيراً قالت له :

— عادل . . . قل لي بربك . . . ما الذي ينقصك حتى تجلس هكذا حزيناً مكتئباً . . لقد ترك لك والدك ثروة لايستهان بها ، ولم تشته شيئاً إلا وأجيب طلبك . . وصحتك والحمد لله جيدة فماذا ينقصك إذن . . المرأة ؟! تكلم وكن صريحاً . .

— أبداً ياأماه لاشيء . . .

— أعاشق أنت ؟

— كلا . . كلا مطلقاً . .

— وهل هذا عار على شاب في مثل سنك ؟

— ولكني أقسم لك . . . لم أكن عاشقاً يوماً . . .

— كيف . . . أنا لا أرضى أن يكون ولدي في هذا السن ولا يكون عاشقاً . . . نعم . . أنك عاشق ولا شك . . .

وضحكت وراحت تداعبه وهي تقول :

— إذاً . . فيجب أن تتزوجها . . . كم أكون سعيدة عندما أرى لك زوجة . . وأبقاني الله حتى أرى لك ولداً . . .

ـ ليست هناك امرأة قط . . .

ـ لا ياولدى . . . لا يسرنى مطلقاً أن تكون هكذا . . وما قيمة الحياة إذا كانت خالية من الحب ومغامراته . . . إنه سعادة الشباب . . . وكل ما أريده لك . . ان تتزوج ممن تحب . . . وثق تماماً بأنى لن أعارضك فى الزواج من أية فتاة تريد . . . لأنى واثقة من حسن اختيارك للزوجة التى ترضيك وترضينى

ـ أقسم لك بأنى أختر بعد . . ربما فكرت فى فتيات كثيرات ولكن فكرة الزواج منهن قد فشلت . . فلم أجد بينهن من أنشد فيها الزوجة التى أريد . . .

ـ كيف . . . ما أكثر الفتيات . . . من كل نوع تجد . . . فكر فى الزواج جيداً . . فأنت فى سن يجب أن تكون بجانبك امرأة . . تفكر فيها ، تحبها وتحبك ، ترضيك وتغضبك ، تحنو عليك وتقسو . . . تملأ فراغ قلبك ونفسك وحياتك . . . هيا نبحث عنها معاً أو أبحث عنها وحدك . . . عن فتاة لتكون زوجة . لا لتكون ملهاة تلهو بها . . . هاقد فهمتك . . . ابتسم إذن . . .

ـ أنا سعيد بك يا أماه . . ولست فى حاجة إلى عطف أخرى . .

ـ لاتخدعنى وتخدع نفسك . . أنا أم فقط . . ويجب أن تكون هناك زوجة . . وإلا فالنقص يسود حياتك ولا تشعر لها ببهجة مادام ظل المرأة لايرفرف حواليها . .

ـ ولكن أين تلك الفتاة التى أجد فيها ما أرغب . .

ـ كثيرات ياعزيزى . . . إبحث تجد . . .

ـ بحثت كثيراً ولم أجد . . . وان ما يؤلمنى وينغص علىّ حياتى هو عدم

توفيقى إلى الزوجة التى أحلم بها . . . نعم . . . أنا أنشد السعادة فى فتاة اشترط فيها شرطاً قلّ أن يتوفر فى هذه الأيام . . .

— ماهو . . . ؟

— تسألينى ماهو . . . سوف تسخرين منى يا أماه وتعجبين . . . ولكن هذا لا يمنع من التصريح لك به . . . أن السعادة يا أماه بالنسبة إلىّ هى التوفيق إلى فتاة متوسطة الجمال . . من طبقة متوسطة أيضاً ولا أشترط أن تكون كريمة صاحب دولة أو معالى أو سعادة أو عزة . . . بل أريدها من أسرة طيبة ... فتاة ساذجة طاهرة أكون أنا أول رجل تلتقى به وتتعرف عليه . . . هذا هو ما أبحث عنه . . . نعم . . أريد فتاة ليس لها ماضى . . . فتاة أكون أنا أول من طرق قلبها . . . وتكون شفتاى أول مايطبع على ثغرها ، وتكون يداى أول ما تمد إليها . . . أريدها جسداً طاهراً لم يضمه سواى ، وقلباً خالياً أكون أول من يشغله . . . وروحاً صافية تشارك روحى الهناءة والغبطة وتملأ نفسى اطمئناناً ودعة . . . أريد فتاتى التى خلقت من أجلى وخلقت من أجلها . . . لتكون لى وحدى . . . هذه سعادتى . . وهــذا هو ما أبحث عنه . . . ومن المؤلم انى بحثت طويلا ولكن وأسفاه . . أماه . . . أصغ إلىّ . . . فهذا هو سر كآبتى . . صدقينى إذاً إن قلت لك أنى حزين من لاشىء لأنى لا أجد ما أبحث عنــه . . . وقد أعيانى طول البحث ولازمنى سوء الحظ . . ولم يوفقنى الله إلى ما أرغب . . ويخيل إلىّ بأن من الصعب تحقيق ما أنشده . . ولكنى أريده . . وسأظل أبحث عنه . . . أماه لا تسخرى من رأيى هذا . .

وسرّ الأم أن يفيض ولدها بما بين جنبيه وقد تركته ينطلق فى الحديث دون أن تقاطعه كى تفهم مكنونات صدره وأخيراً قالت له فى لهجة متزنة :

ـ إن ماتنشده فى متناول يدك . . وهناك كثيرات جداً لم يتعرفن إلى رجال ولم يتقرب منهن أحد . . . ولكنك لم تعثر على واحدة منهن لإحتجابهن ولأنك تبحث فى وسط محدود من الطبقة الأورستقراطية التى لو تعرفت إلى واحدة منهن وكنت أنت أول رجل صادفته هى ان تثق أنت بحقيقة هذا . . . ومن هنا يخيل إليك أنك ان تعثر على فتاة أحلامك . . . بينما تجدها قريبة منك وفى متناول يدك . . . هذا إذا كان ماقلته الآن حقاً لامبالغة فيـــه ، وإذا كانت شروطك كما عرضتها علىّ الآن . . .

ـ كدت ايأس يا أماه . .

ـ ولم اليأس إذا كنت لاتشترط أن تكون فتاتك ثرية ومثل أعلا للجمال . . . ولديك ابنة خالتك اريفية الساذجة « سلمى » وأنت تعلم كيف نشأت وكيف تعيش ، وهى على قسط من التعليم وجميلة أيضاً . .

ـ لا أماه . . . أنى مافكرت فى الزواج بفتاة ريفية فطرية إلى هذا الحد . .

ـ انها ليست كما تظن . . فقط تعيش فى الريف وهذا أفضل للفتيات من حياة المدن الصاخبة . . ومن السهل ترويضها على ماتريد . . . وأظنك تذكرها عندما كانت فى العاشرة من عمرها . . كانت طفلة ورغم ذلك فقد تذكر أنها جميلة التقاطيع جذابة . . . انى أعرض عليك فكرة فقط . . . ولك رأيك . . ولست أريد إلا أن أذكرك بها لأنك تجد فيها أكثريه شروطك . . فهى على قسط وافر من الجمال . . . والجو الذى تعيش فيه لايسمح لها بالتعرف أو التقرب من الرجال . . أو قل أن الحياة هناك تختلف اختلافا كبيراً عن حياة المدن . . وفوق ذلك فأنت تعلم أنها تعيش مع والدتها وجدها الشيخ . .

— ولكنها لا تتفق وميولى . . . وليس من السهل تثقيفها كما أريد . . .
وسوف ترهقنى وتضايقنى كثيراً . . لا . . هذا محال . . .

— اسمعنى ياعادل . . . مارأيك فى أسبوع تقضيه هناك على زعم إنك أردت زيارة خالتك . . . وسوف تكون زيارتك لها مصدر سعادة وسرور كبير لاهتمامك بها . . وهناك تكون قريباً من « سلمى » وربما راقبتك . . ولن تندم على ذلك مادمت لن تظهر لهم السبب فى هذه الزيارة . . وفى سفرك تسلية ونوع محبوب من الرياضة خصوصاً وإنك تميل إلى الجو الهادىء والمناظر الطبيعية . . .

واستمرت الأم فى حديثها ليقوم معها بهذه الرحلة البسيطة وليرى على الأقل مزارعه التى مافكر فى المرور فيها منذ سنوات . . . وراحت تجمل له هذه الفكرة وجمال الريف وسحره وسكينته التى سوف تؤثران على أعصابه الثائرة فتهدأ وعندها تأخذ بيده إلى باب الحياة التى يريد

***

ضحكت « سلمى » وهى تلقى بشعرها الغزير إلى الخلف أثناء انهماكها فى العمل المنزلى فى ذلك الصباح الذى وردت فيه رسالة « مسجلة » من خالتها الثرية التى تعيش فى القاهرة . . تخبرهم فيها أنها قررت الحضور مع وحيدها عادل لقضاء بضع أيام فى الريف للنزهة والترفيه عن النفس من ضوضاء المدينة وجلبتها . . .
ضحكت سلمى وهى تقول لأمها :

— زيارة « عزيزة » على ما ظن . . .

— دون شك ياسلمى . . . أنك تعرفين أنى لم أرها منذ وفاة المرحوم والدك . . .

— منذ ستة أعوام . . .

ـــ أجل . . . هكذا تفرق الحياة بين النـاس ياصغيرتى . . ولا تنسى أن معها عادل . . . وهو « بك » له مركزه ويجب أن نظهر أمامه بما يجب . . .

ـــ « بيك » ! ! شاب من أهل المدن أليس كذلك ؟ ! أوه ! سيضايقنا كثيراً يا أمى بانتقاداته وسخريته من الريف وأهله . . .

ـــ على أية حال ياسلمى يجب عمل اللازم . . .

***

وفعلا صدقت فراسة « سلمى » إذ ضايقها حضور « عادل » فى الليلة الأولى لأنها لم تستطع الخروج إلى مرج غرامها وجنـة لقياها الشاعرية وقضت ليلتها فى الحديث مع خالتها وابنها عادل الذى كان يبـدو منقبض الصدر كمن يشكو علة نفسية أرهقته . . .

وانتصف الليل وأسلموا أنفسهم إلى النوم إلا هى . . . ظلت فى النـافذة وبصرها متجه إلى ناحية بعيدة . . . ناحية كانت تشعر أن روحها قد استقرت هناك مع روح أخرى تحن إلى لقياها . . .

وفى الصباح غادر « عادل » بيت خالتـه ليجول فى الحقول الممتدة التى امتلأت بجموع الفلاحين . . . ووجد فى تنقله ومشاهداته مناظر هـذه الحياة الفطرية الساذجة ما أنساه المدينـة وما فيها . . . ولذا لم يشعر بانقضاء الوقت ولا مرور الساعات . . .

وعاد إلى البيت وقت الظهيرة وإذ بصوت عذب يملأ البيت بترتيله ويأخذ على القلب مجامعه . . . ظل ساهما مصغياً إلى ذلك الصوت الساحر . . . ووقف

مكانه والدهشة تعبث به فلم يكن هذا الصوت سوى صوت سلمى تردد أغنية حبيبها « محمود » التي مطلعها :

« من حسن طبعك وطبع الحسن حبيتك »

وتقدم « عادل » ليراها ... ليرى تلك التي أحالت الدنيا أغرودة راقصة ... وانتبهت على صوته وهو يقول :

ــ صوتك بديع ياسلمى ...

ــ أوه ...

ــ وأغنية رائعة ... لم أكن أعرف أن لك مثل هذا الصوت الساحر ..

ــ .....

ــ أخجلتك المفاجأة ؟ إذاً ... سأعود على أن تظلين فى شدوك ... هيا أنني أتركك ...

ــ لم أقصد هذا ولكن ...

ــ أعرف ... انه خفر العذارى ولكن لماذا ... ألست ابن خالتك ؟!

ــ نعم ...

ــ إذاً ... فسأسمعك مرة أخرى ... بل .. ومرة ثالثة فى الليل ... عندما نجتمع بعد العشاء .. يكون جميلا أن تملىء الدنيا بشدوك .. سنسمعك هذه الليلة ... أليس كذلك ؟!

وسكتت « سلمى » ولم تعرف بماذا تجيب ... إذ ستمر ليلة أخرى كئيبة مملة دون أن تراه أو تسمعه ... ومن يدرى ؟!

وفى ساعة الغروب غادر البيت مرة أخرى ... تلك ساعة لها سحرها الذى حرك كمين نفسه وجعله يعيد القصة التى من أجلها حضر إلى القريه بعد إلحاح أمه . .

وظل « عادل » فى مسيره وقد خيل إليه أنه بطل إحــدى مسرحيات « دوريه » التى تدور وقائعهــا فى الريف . . . وإرتاح إلى هذه الصورة التى اختارها لنفسه . . .

وتبدت له صورة « سلمى » ودوى فى خياله صوتها العذب وتذكر تواعدهما على الاجتماع ليلا ليسمع صوتها وهى تغنيه فأسرع فى طريق العودة . . .

وكانت ليلة . . . .

ليلة اضطرمت فيها مشاعر وثارت أخرى ولاحت دنيا من الآمال لثالثة بينما جعلت الرابعة ترقب وقد غلبتها أحلامها الناعمة . . .

إن عادل سعيد . . . وقد خيل إليه أنه تحرر من قيــد المدينة ومن فيها وأنه ليرى الآن فى « سلمى » مطمحاً يجب أن يناله . . .

سلمى فى حيرة من أمر نفسها . . . شعورها غريب . . . مرة يطفى قرى « محمود » فتاها الذى سحرها صوته . . . ثم لايلبث هــذا الشعور أن يتراخى لتحل صورة ابن خالتها مكانه . . . إنهــا الآن تغنى وهى حيرى بين الفرح والرغبة الملحة فى البكاء . . .

الأم ترقب ابنها وقد تغير . . فيتفتح قلبهــا للفرح وترفع إلى السماء أرسها داعية شاكرة . تسأل الله أن يبعد عنــــه أشباح الليالى الـكئيبة التى مرت والتجارب القاسية التى إجتازها والتىقاستها من أجله . . . وعلت شفتيها ابتسامة ملؤها الاطمئنان . . . فهاهو ذا الآن فى القرية وأنه ليبدو سعيداً ناعم البال . . . بل أن عين الأم اليقظة بدأت تلحظ ناحية التغير فى ابنها . . . أنه ينظر إلى سلمى نظرة أكثر من نظرة الإعجاب . . . نظرة الرغبة فى التملك . . .

وأما أمها فقد شعرت بدورها بأن ثمـــة شىء سيعتور بيتها الصغير وأن « عادل » يريد أن يتـكلم ولـكنه ينتظر الفرصة السانحة . . .

تلك كانت حالتهم وقد جلسوا جميعاً يتحدثون حتى غلب النعاس والدتهما فقامتا إلى الفراش . . . واقترب عادل من سلمى وهمس وقد أمسك بيدها المرتعدة بين راحتى يده وهو يقول لها :

— أنسيت ؟ !

— أى شى ؟ !

— وعدك . . .

— لا أفهم . .

— بأن تغنى لى الليلة . . . أنا منصت فهيا . . .

— ولكنى لا أجيد الغناء . . و . . .

— بل السحر فى نبراتك . . . إن حديثك يذهل الروح وانه من الجنون أن تقضى حياتك فى هذه الوحدة . . . هذه الزهرة النضرة جدير بها أن تتضوع فى روض جميل بدل بقائها فى روض برى العشب مهمل حتى من أصحابه . . .

— ماذا تقصد؟ !

— أقول . . . لم لا تأت معنا إلى القاهرة ؟

— لا تنس أنى ريفية لا تناسبها حياة المدن

— دلال الغانيات . . .

— أقسم لك . .

— أن تأت معى . . ووالدتك أيضاً

— ولم ؟ !

— لنعيش فى بيت واحد

— ولكنى قانعة ببيتى هذا . . ولا . . .

— سلمى . . . تسعدنى الحياة بقربك . . . فلا تحرمينى السعادة

— أنك تبالغ . . .

ـــ بل هى الحقيقة . .
ـــ وإذا ذهبت معك وأمى ، وأحسست بهول الخطأ الذى ارتكبته ؟!
ـــ بل قولى أحسست بالزهو . . .
ـــ إنها نشوة اللحظة . . . وسلطان الوحدة هو الذى يجبرك على التكلم . .
لأننا وحيدين الآن . . أما هناك فى المدينة فهن كثيرات وبينهن تنس
فى لحظة واحدة الريف ومن فيه . .
ـــ وإذا كان الصدق ما أقول ؟!
ـــ برهانك . .
ـــ رغبتى الأكيدة فى الزواج منك . .
ـــ أنا . . . ؟!
وجرت سلمى فتبعها وأمسك بيدها فجذبتها لتخفى بها دمعة انحدرت
على ووجهها . . .
دموع !!
لِمَ تبكين !!
أهى دموع الفرح ؟!
ولكن . . . هى نفسها لم تكن تدرى . . .

***

استيقظت القرية ذات صباح وقد سرى فيها نبأ زواج « سلمى » من
ابن خالتها « عادل بك » مسرى الكهرباء فأثار الدهشة والحسد . . .
بكت « سلمى » كثيراً وهى تودع أهل قريتها بقلب ملىء بالأسى والحزن . .
وراحت تبحث بينهم عن حبيبها « محمود » ولكنها لم تجده فضاعف هذا من ألمها ..

ولم يكن محمود يرغب فى الإختفاء عنها قسوة منه .. بل أنه لم يجد فى نفسه القوة ليأتى لتوديعها . . . وهى فى طريقها إلى بيت رجل سواه . . .

* * *

أية حياة تحياها الآن سلمى ؟!

انها حياة السيدة المترفة المحوطة بعناية الزوج وحبه وعطف أمه ورعايتها ... ولكن . . .

ولكن الأيام تمر وسلمى تحس فى نفسها نوعا من عدم الاطمئنان إلى هذا النوع من أنواع الحياة . . . فإن ربة البيت تكاد تكون زائرة فى بيتها . . .

لم ترض عن ذلك وراحت تشرف بنفسها على شئون الدار ومن فيها لأن هذا اللون المخنث من ألوان الحياة العصرية لايروقها فهى تعرف أن المرأة شريكة الرجل فى كل شىء وأنها قوامة على شئون البيت وحاجياته . . .

إن الأم الآن سعيدة لاتكاد الدنيا تسعها . . . والزوج يخيل إليه أن يوزع على الدنيا جزءاً من سعادته . . . وهى . . . ؟

صحبت زوجها ذات ليلة لمشاهدة مسرحية جديدة فى « الأوبرا » وكان ضمن مشاهدها مشهد ريفى . . . شاب جالس بمزماره إلى حافة ساقية تشرف على غدير جار وقد راح يوقع على المزمار ويغنى أغانى حركت فى نفسها ماظنت أنه نام نومة الأبد . . .

وعادت إلى البيت وخلت إلى نفسها وراحت تذكر عهداً تولى أحست بالحنين إليه . . . ودوت فى خيالها أصداء أغنية أسكرت ذات ليلة روحها وجعلت قلبها يهفو إلى لقاء عذب حنون . . .

وأغمضت عينيها لتنعم بحلم اليقظة الهنىء وخيل إليها أنها تسمعه . . . تسمع

تلك الأغنية التى كانت فاتحة عهد الهوى . . . وراحت تنصت بروحها وعواطفها ثم . . . راحت تبكى سعادة ولـت . . .

ولاحظ « عادل » الوجوم الكئيب الذى استولى على « سلمى » فظن أن فى الأمر شىء أراد استيضاحه . .

— مابك ياسلمى ؟

— لا أعرف

— وهم دون شك . . . إنها السعادة وقد طغت على مشاعرك فأحسست بالذهول . . . فنحن إذا شعرنا بغمرات السعادة وبأنها فى متناول أيدينا أحسسنا بحاجتنا إلى ماهو أسمى وأكثر علواً . . .

— سعادة ! ! أين دنياها ياعادل ؟ !

— ألسنا نعيش فى ربوعها ياسلمى . . . قد تكونين جاحدة . . . أما أنا فلا أجـــد إلا لذة الاعتراف بالسعادة . . . عالم ضاحك هانىء . . . بيت ترفرف فى سمائه الفرحة . . . أنا سعيد . . . سعيد ياغرامى إلى أبعد حدود السعادة

— عادل . . .

— وددت لو أعرف مم تشكين ؟ !

— هموم النفس عديدة يازوجى العزيز

— ولم نسلم أنفسنا إليها ؟ !

— تجبرنا الحياة على تحمل مالا طاقة لنا به . . .

— ولم لاتلقيها بابتسامة مرحة ؟ !

— سأحاول . . .

— ابتسمى إذن . . . هيا . . . لاتعبسى بربك . . . ابتسمى دائماً . . انا أسعد أهل الأرض جميعاً . . . نعم . . ومن فرط سعادتنا يخيل إلينا

أن هناك شيء ينقصنا . . . ولكننا إذا تعمقنا فى البحث عما نريده وجدنا أن كل مانريد هو أن نستوثق من السعادة التى تغمرنا ونحن فى نشوة الفرح . . . فنحن نشعر بها ولا نحس بوجودها إلا بعد أن ترحل . . . بعد اغترابها نحس بأننا فقدنا السعادة . ولن نفقدها مادمنا معاً . . .

— السعادة ياعادل . . . لاوجود لها . .

— أنك لاتعلمين بعد شيئاً . . . لقد كنت أتعس الناس قبل أن أرك . ولم أشعر بلذة الطعام ولا بجمال الحياة إلا بعد أن وجدتك . . فالسعادة كانت أنت بالنسبة إلىّ . . نعم فقد كنت أنشدها فى فتاة طاهرة مثلك . . . لم يطرق قلبها سواى ولم يمسسها إنسان قبلى . . . وهاقد وجدتك يازهرتى المحبوبة واقتطفتك قبل أن تمتد إليك يد وقبل أن تلوثى بأنفاس رجل آخر . . تكون له الأولوية فى قطفك والاستمتاع بشذى عطرك العبق . . . يالها من سعادة . . . وتقولين بعد ذلك إن السعادة لاجود لها . . . كم أنا سعيد . . .

وراح يضمها إليه بحرارة وهى ترتجف بين ذراعيه متمتماً :

— حبيبتى . . . ألست سعيدة أنت أيضاً . . .

— ولكن . . هل كنت أنا أول من إلتقيت بها أنت ؟

— لا . . . لا أكذب عليك . . . فقد عرفت كثيرات . . . ولكن لا لأشاركهن الحياة . . بل لساعات اللهو فقط . . . ولا تكونى قاسية إلى الحد الذى تجبرين الرجل على الزواج بأول من يلتقى بها . . ولكن فخر للفتاة أن تتزوج من أول رجل تلتقى به

— نعم . . . أن ماتقوله الحق . . . بل ويجب أن تتزوج الفتاة من أول رجل تتعرف إليه . . . لتكون سعيدة هى أيضاً . . .

وعادت تقول :

— مارأيك ياعادل . . .

— فيم ؟ !

— نسافر إلى القرية بضع أيام عساى مستطعية هنـاك أن أسترد بعض سعادتى . . . هناك فى قريتى الصغيرة . . .

— ألست سعيدة هنـا . . . بالقاهرة . . وبى . . وبهذا القصر التى أنت سيدته . . وبتلك الراحة بعد العناء فى الريف والعمل المتواصل الذى كنت تقومين به ليل نهار . . ولا تنسى أن جمال الريف ليس كاملا . . كم كان يخفينى الليل هنـاك . . فله وحشة غريبة . . سكون مطبق يبعث الرعب فى قلب الانسان . . حيث لايبدده سوى نعيق الضفـادع وغيرها من الحيوانات . . وهمهمة الأشجار كلما هب الهواء . . . وكثرة البعوض . . والفرق شاسع بين هنا وهناك . . . أنك الآن تنصتى إلى الموسيقى العـــذبة والأنغام الشجية . . . وتترددين على الملاهى ودور السينما وغيرها . . . و

— كنت أود أن أظل هنـاك إلى الأبد . . فلم أكن تعبة ياعادل . . بل كنت أعمل بلذة طول النهار فى انتظار المساء . . فجمال الليل هناك . . . بجانب الترعة كنت أجلس ومعى جرتى قبيل الغروب . . . وأسبح فى جو بديع كان يحوطنى . . . وأسمع أصواتاً حلوة صافية تغنى . . . كم كنت سعيدة ياعادل . . .

— مادمت تريدين ذلك ، ومادام فيه مايسعدك فلنرحل من الغد . . .

***

وسافر الزوجان إلى القرية وعادت « سلمى » مرة أخرى إلى بيئتها الأولى فألقت بنفسها بين أحضان الطبيعة تتلمس راحة النفس واستقرار القلب الذى أمضتها خفقاته . . .

وذات ليلة . . .

وعندما احتضنت الظلمة القرية واستكان الهدوء نشواناً بين ذراعى الليل . . كانت سلمى تغادر بيتهم الصغير بجلبابها القديم وهى فى طريقها إلى « الترعة »

وبدأ القمر يلقى أشعته الشاحبة على الطريق المنساب بين الحقول فعكس ظل الفاتنة « سلمى » من جديد . . .

لِمَ خرجت ؟ !

لم تكن تعرف بدورها ما الذى كان يدفعها نحو طريقها القديم . . . ولكنها ساعة حلت هذه الساعة من ساعات الليل المبكرة وجدت نفسها مسوقة إلى الخروج . . يدفعها حنين طاغ لم تستطع مقاومته

كانت تريد أن تجلس على حافة الترعة لتحيا لحظات فى عش غرامها وتمتع نفسها العطشى إلى الماضى بصورة من صوره . . فلم تكن تأمل فى لقاء حبيبها . . ولكنها ذهبت إلى مكان لقائهما لتحيـــا فى جو من الذكريات السعيدة الماضية . . .

يا أصداء الماضى . . . أى نغم جديد هذا الذى بدأ رنينه يضطرب مع النسائم الرقيقة فحملته إلىّ ؟ ! .

وتوقفت لحظة لتسمع الصوت والأغنيـــة . . . أنها تعرف تماماً أنه صوته . . . ولكن . . . لقد تغيرت الأغنيـة وأنه ليكاد يبكى . . . يصرخ مناديا ولا من مجيب وهو يقول :

« صفيت لمين يازمن لما ح تصفالى »
« الغدر طبعك ومين من الغدر كان خالى »
« عشان كده يازمن ما انتش على بالى »
« عودت قلبي يقول الغدر ماهوش عيب »
« العيب يكون يازمن لو يوم ح تصفالى »

وارتعدت « سلمى » . . . ياسخرية الحب ! ! لقد جاءت لترى هذا المكان المرة الأخيرة لتشفى قلبها من الحنين إليه ثم . . . هاهو ذا شبح ماضيها يستحيل إنساناً نابض القلب فياض الشعور وهو يندب عهداً مضى مازال يذكر أيامه السعيدة ! !

وأرادت العودة ولكنها لم تستطع . . . لم لا تراه ؟ !

أجل . . لم لا ترى محمود أول من تفتح له القلب . . .

بل لم لا تر الرجل الذى جعلها تسهر الليلة الأولى فى عمر غرامها عندما دق الهوى باب القلب ؟ !

وسارت والنغم مازال يتردد فى جوانب الليل الساكن وهى نشوى بسحره . . . وتوقفت عندما تنبه هو لوجود غريب . . .

وسخر القدر من العاشقين وقد وقفا وجهاً لوجه وترنح الشاب . . وتراجعت الفتاة . . ثم . . تماسكت أيديهما ولم تمض لحظة حتى طغى حنين الهوى وقسوة الفراق على الشاب فوجد نفسه يضمها إلى صدره . . .

وراحت تتخلص منه بهدوء . . فتذكر الواقع . . . فهى زوجة ثرى عظيم وأنه ليس أكثر من مخلوق حقير قضى عليه أن يظل بقية أيامه إلى جانب هذه الترعة يندب غرامه الراحل . . .

ولاحظت هى ذلك فأمسكت به وراحت تطيل النظر فى وجهه وهى تقول :

— محمود . . .

— لِمَ أتيت ؟ !

— هل أغضبك حضورى ؟ !

— نعم . . . بعد قليل ستذهبين ، وقد تجدد فى نفسى الجرح القـديم . . . إذهبى أتوسل إليـك . . . ودعينى إلى أحـــلامى وأغنياتى فهى عوضى عنك . . .

— بل أبق يامحمود وسأبق معك . . . إنه من العبث أن نقاوم . . . ومن الظلم أن أخدع رجـــلا احترمنى وأحبنى ولـكن وأسفاه . . . لم أبادله حبـه . . . إذ كنت أحلم بك وأتخيلك دائماً . . . والآن لن أعود إليه . . . سأظل إلى نهاية العمر بجانبك أنت . .

— ولـكن . . .

— ياحبيبى . . . ماعرفت لذة العيش منذ فارقتك . . وزوجى الذى غمرنى بكل ماتطمع فيـــه امرأة وماتحلم بنواله . . ما أحسست أنه حقق لى صورة متواضعة من صور السعادة . . .

وضمها محمود إلى صدره فى الوقت الذى سمعا فيه صوتاً أجشاً يقول :

— ما أبشع الحقائق ياسلمى . . .

وإلتفتت لترى نفسها أمام « عادل » زوجها وقد أقلقه غيابها فخرج يبحث عنها . . .

وتقدم الزوج فى بطء منهما وعلى فمه ابتسامة ساخرة :

— كنت تحلمين به وأنت بين ذراعى فتغمضين عينيك لتنسنى وتتخيلين ملامحه . . . أما أنا فـكنت سعيداً لأنى عشت فى ظلمات الخـــديعة والغش . . . وكثيراً ماتبـــدد الحقيقة سعادة الأنسان . . . وانى لأرى السعادة الآن وهى هاربة أمام عينى وقد طاردتها كلماتك القاسية إلى واد سحيق حيث لا أراها بعد ذلك . . . عشت فى دنيا من أحلام

وأمانى رسمتها لى أنت وكنت سعيداً وقد تخيلتك ملاكا علا بى من دنيا البشر فاذا بك كغيرك ... لست أ كثر من امرأة ... ولكن ماذنبك ... انه القدر العابث ... سلمى ... لن أزعجك بعد اليوم ... فكونى له ... وداعاً

وسار فى الطريق وقد راح يقول لنفسه بصوت خافت يسيل ألماً : « من قال أن السعادة كائن المنال !! أنها وهم يعيش فى نفوس المرضى من الباحثين عنها ... لقد ظننت أنى عثرت عليها ولكنى فى الواقع كنت أفقد راحـــة النفس وهدوء الضمير ...

*
* *

كانت ريح الشتاء تعصف والهواء يئن ، والطبيعة ثائرة عندمادخل « عادل » بيته وحيداً .. فراع ذلك أمه التى أقبلت عليه سائلة ... فلم يجبها إلا بالقاء نفسه على صدرها وهو يبكى قائلا :

ـــ أماه ... لم تخلق السعادة ...

وضحكت السعادة لهذه الصورة الساذجة من صور الحب . . الحب الذي عبث بقلب فتاة فضحت من أجله بكل شيء . . . والرغبة المسيطرة على عقل شاب يبحث عن الحقيقـة وينقب عن غرض سام ينشد فيه سعادته . . . وكأنى بهاتيك المناظر أثرت فيها فمالت على وزيرها الأمل تسأله المزيد . . .

وصفق الأمل بيديه وابتسامته تشع بالنور والفرح وسرعان ما ارتفع الستار عن . . .

سعادة الحرمان . . !

كانوا جلوساً حول المائدة يتحدثون وقد اعتورهم وجوم نسوا معه أصناف الطعام المكدسة أمامهم . . . كان حديثاً آليا لم يستطع أحدهم أن يسير دفته . . فاعتراه فتور كان يبدو فى حركاتهم القلقة ونظراتهم الغير مستقرة . . .

النور يغمر القاعة الكبيرة ساخراً بالظلام ، ولكن ظلمة القلوب كانت دامسة فما كانوا يرون إلا سواداً . . . موسيقى إحدى محطات الاذاعة الأجنبية تغمر بضجيجها الهانىء الطروب جوانب البيت ولكن . . . كيف لها أن تنفذ إلى قرارات هذه النفوس ؟ !

وظلوا فى وجومهم حتى انتبهوا على صوت إحدى الأوانى الزجاجية وقد تهشم لسقوطه من يد الخادم . . . ونظرت « سميرة » هانم إلى زوجها « فخرى » ثم أختها « ليلى » وقالت :

— فأل سيء ! !

وتورد وجه « ليلى » وهى تنظر إلى أختها وأجابت :

— ولم لاتقولى فأل حسن ؟ !

— لا أرى ذلك . . . ولكن ! ! أوه . . معذرة . . إن أعصابى مضطربة يافخرى ولا أدرى مع توارد هذه الأفكار السوداء بماذا أجيب ولا كيف أتكلم . . .

ــ ستظلين هكذا طفلة كبيرة . . . لست أدرى ياطفلتى سر كآبتك ! أهو لسفرى مع فرقتى إلى الحدود ؟ ! تعلمين أنك زوجة ضابط يعمل فى جيش بلاده وأن عليه مهاماً وأوامر طاعتها واجبة . . . لم لم تقابلى نبأ سفرى بالسرور والسعادة . . . . كان من الواجب أن تعلنى سعادتك . . . زوجك الآن فى طريقه إلى العمل من أجل رفعة بلاده . . . إذا قدر لى أن أعود ياسميرتى المحبوبة فسنحيا حياة هى السعادة بعينها . . . أما إذا . . .

وقاطعته الزوجة صارخة :

ــ كفى . . . لاتكمل هذا الحديث . . . أتظن نفسك تحادث تمثالا حجريا ؟! أنا زوجتك يافخرى وأنت أدرى الناس بعواطفى . . . ليالى طويلة كانت تمر علىّ أثناء غيبتك لا أعرف فيها للنوم طعماً ولا للهدوء مذاقاً . . . كنت إذ آوى إلى فراشى أهجره وأنا أقول . . . إنه الآن يفترش الرمال ومن الجرم فى حق حبنا أن أستمتع بما حرم منه . . . وإذا دعتنى أمى أو شقيقتى لأصحبهما إلى الخارج كى أرفه عن نفسى ضحكت سخرية وقلت : وفخرى المسكين . . . من الذى يرفه عنه الآن . . . حتى الطعام يارجلى المحبوب كنت أتناوله غير راضية . . . كنت لا أعبأ بأوقاته لعلمى بأن بعض مهامك قد تؤخرك عن تناوله وأنت بعيد عنى . . .

ــ مازلت عند رأيى فيك . . . طفلة . . . طفلة كبيرة . . .

ــ أجل . . . طفلة تذوب حناناً من أجل رجلها . . . أى أوقات ستمر بى وأى وحدة قاتلة ستشملنى . . . سأجلس وحيدة أمام هذه المائدة مرات ومرات أرقب مقعدك وقد خلا منك فيخيل إلىّ أنى أراك أمام ناظرى فأحدثك وتصغى إلىّ . . . سأسمعك على البعد وستحمل إلىّ

نسائم الليل الهاربة من الصحراء البعيدة أصداء أنفاسك الحارة وأنت في مكانك القصي . . . سأنتظرك مع مرور الدقائق واللحظات وستمر الأيام وأنا بمرورها غير عابئـة لأني واثقة أنك ستعود إليّ يارجلي المحبوب . .

— سميرة . . . لاتطبعي في خيالي صورة لا أرضاها عن هذه اللحظة التي قد تكون الفاصلة في حياتنا . . . أحني رأسك للواقع واضحكي واسخري بعواطفك . . . اتركي القلب في نواحه والروح في آلامها واضحكي . . . دعي ظل الابتسامة يرتسم دائماً على وجهك . . ولترن في الفضاء ضحكاتك ولتنطبع في خيالي صورتك وأنت سعيدة هانئة . . هذه الصورة الباسمة ستكون سلواى طوال أيام البعاد ولياليه القاسية . . . والآن . . . ياطفلتي المحبـوبة . . . أنسيت أنك مدعوة لمشاهدة أوبرا « ترستان وايزولدا »

— لن تتغير يافخرى ! ! انك تعلم أن عليّ إعداد حقائبك وحاجياتك . . . أذهب أنت مع « ليلى » . . .

— دعي الحقائب للخدم وتعالى

— أفضل كثيراً أن أظل بالبيت . . . دعني أعيش الليـلة وحيدة بعيدة عنك مسبلة عيني وقد رسمت على أهدابهما المرتعشة صورتك فتمر الساعات وأنا ذاهلة حتى أستيقظ على مقدمك وقد عدت . . . وأكون قد روضت نفسي على الوحدة . . .

— إذاً . . . في انتظارك عودتنا أتمنى لك أحلاما سعيدة . .

***

وأقفر البيت من صوته الأجش وخلت سميرة إلى نفسها . . . لقـد أحست بالوحدة وداخلها إحساس مبهم صور لها ساعاتها القادمة . . . إنها تحس وكأن

كابوساً بشعاً يجثم على صــدرها . . . قلبها يدق . . . يدها ترتعد . . . فكرها شارد وأمام خيالها تمر صور عديدة رهيبة ! !

ماهذا ؟ !

وزمجر الهواء فى تلك الليلة من ليالى الشتاء ولم يلبث المطر ان انهمر بغزارة . . . كانت قطراته تنقر على زجاج النوافذ كأصابع القدر المتشنجة وهى تعبث بإحدى الصفحات الدامية التى امتلأ بها سفر المخلوقات ! !

وإذاً . . . سيسافر « فخرى » إلى الصحراء الغربية مع فرقتــه ليقوموا بنصيبهم فى الدفاع عن سلامة البلاد فى هـذا الوقت العصيب الذى رقصت فيه زبانية الحرب على حافة بركان ثائر بالحقد والأثم والعدوان فأرسلت حمماً ثائرة دكت ممالك وهزت عروشاً وأذلت واستعبدت شعوباً وشعوب . .

أى خاطر شرير لاحت أطيافه أمام ناظريها . . . هل سيقدر لها أن تنتظر وتنتظر دون جدوى ؟ ! وهل سيطول بها أمد انتظار عودة رجلها المحبوب ! ؟

ووجدت سميرة نفسها تقف إلى جانب النـافذة التى غطاها ماء المطر بطبقة كثيفة من الضباب وراحت تفكر وقد ألقت بصرها بعيداً فى جوف الظلمة كمن تود أن تطالع صفحة الغيب المجهول ! !

* * *

وهناك . . .

فى الجزء الحى من العاصمة . . . القسم الساخر بالليل وظلامه . . . الجزء الدائم الحيوية والذى لايعترف بالهدوء . . . كانا يجلسان . . . فخرى وليلى . . . الزوج والأخت . . .

كان هواء الليل يزمجر صاخباً والمطر تنهمر قطراته بينما هما فى نجوة عن كل هاته المشاهد . . . كانا فى إحدى المقاصير بمسرح « الأوبرا » يرقبان تتابع أوبرا

« تريستان وايزولد » . . . قصة الحقد والكراهية والبغضاء الثائرة التى تمازجت واتحدت عناصرها ثم استحالت بمعجزة غريبة إلى عاطفة هوجاء من حب عنيف قاهر حطم أمامه كل شيء حتى رباط الأسرة وكرامة العم . . .

كان « فخرى » وهو فى جلسته مع « ليلى » مقسم العواطف بين مشاعر عديدة . . . وهو يفكر فى الغد الذى سيبعده عن ليلى . . . هذه الصغيرة الفاتنة التى أحس نحوها حباً أنساه كل شيء حتى التفكير فى مستقبل زوجته . . . أختها التعسة التى ترى فيه ملاكها الطاهر . .

وظلت يده الضالة المرتعدة تمتد حيرى حتى تلاقت ويد الصغيرة . . . كانت الطهارة منطبعة على وجهها الفاتن وهى تنظر إليه نظرات المتعبدة الولهى إلى رجلها . . . الرجل الذى لا يحق لها أن تنظر إليه هذه النظرات . . وضغط فخرى على يدها الصغيرة فأحست باستسلام وهدوء . . . أية رجولة طاغية .

وظلا حيث هما متماسكى الأيدى يتابعان مشاهد « الأوبرا » حتى أسدل الستار الأخير . .

وسار فخرى بالسيارة إلى طريق غير طريق البيت وظلا مسرعين فى جوف الظلمة غير عابئين برهبة الليل إذ أنستهما أخيلة ساعات البعد القادمة . . التفكير فى شيء سواها

وإلى جانب إحدى أشجار الحور الباسقة فى طريق المعادى الشعرى توقفا تاركين حديث الصمت إلى لغة الكلام ليروحا عن نفسيهما ما أحساه وليتخلصا قليلا من أفكارهما القاسية

— فخرى . . .

— مابك ياحبيبتى . .

— هل نستطيع التعبير عن إحساسنا الليلة ؟!

— صدى إحساسك القوى يتجاوب هنـا . . . حيث القلب الذى ينطق باسمك فى خفوقه الدائم . .

— وهذا الصدى . . . إلى متى سيظل يتردد ؟ !

— إلى الأبد . .

— وإذا انقضت لحظات هذا الأبد ؟ !

— ستظل أصداؤه عالقة بالروح فى خلودها . .

— أوه ! الصمت . . . دعنى أنعم بهذه اللحظات الهادئة أطيل خلالها النظر إليك لأحفر صورتك الحبيبة لا على صفحة الذاكرة بل على شغاف القلب وحناياه . . . ياملاك الحب القاسى لم ظلمتنا بحكمك الجائر ! ؟

— أى ظلم تشكين منه ؟ !

— انها غضاضة الإحساس بالجرم . .

— جرم ! ! وهل فى الحب جريمة ؟ !

— ما كان هذا الكائن العلوى ليقترن بالجرم ولـكن . . .

— كفى . . . أعرف ماذا ستقولين . . .

— تعرف . . . ياللثمرة المحرمة اقتطفناها ونحن هادئين . . . لهـا مذاق سحرى خالد الأثر . . . كنا شرهين فلم نبق منها على بقية حتى ليخيل إلىّ أحياناً أن حلاوتها قد استحالت فى خيـالى هبوباً من الجحيم . . . ياجنة الهوى التى تتنقل كطيور صادحة خلال دوحاتك العبقة . . هل ستحكمين علينا بهجرانك ! ؟ هل سنتذوق غصص قسوتك ونحن طريدين فى صحارى التيه والضلال ؟

— يالدموعك النقية . . . لم تسكبينها فى هذه اللحظات

— لتطهرنا وتعلن الندم . . .

بأفكارك إلى ذكر بعض أويقاتنا الضاحكة .. دعى هذا ولنكن فى الجرم سادرين ومادمنا قد قطفنا هـذه الثمرة فليست من داعية للأسف ... إنك الآن إلى جانبى ... قلبك وقلبى يتبادلان أصدق الأحاسيس وانه من الخير لنا أن نتركهما فلهما لغة لا يمكن أن نفهمها . . لسنا مذنبين ياملاكى لأن قوة الحب القاهرة هى التى فعلت ذلك .. تعالى إلى صدرى ...

— صدرك يضطرب يافخرى وتكاد أنفاسك الحارة أن تحيل نسمات هذه الليلة شواظاً من نار

— جدير بهذه الأنفاس أن تذيب صخريتك وتحيلك نسمة عطرة تسكر حياتى الضالة فى صحراء الألم بشذاها السحرى ... ليلى ... لاتجعلى الرعدة تهز جسدك المعبود فان العالم يخر ساجداً عند قدميك متوسلا أن تكونى هادئة تمنحينه الضحكة التى تحيل أتراحه سعادة أبدية

— ماعرفتها هذه الرعدة إلا عند ماطوقتنى يداك القويتان وركنت رأسى إلى صدرك وسمعت دقات قلبك الخفاق ..

— أى لغة متقدمة وأى حديث فاق سحره حديث القلب ! .

— فخرى .. انى خائفة

— ياشيطانتى العزيزة .. تعالى إلى صدرى ولندع القلبان يتشاكيان ... سأطبع صورتى فى سواد عينيك الحالمتين اللتان ستكونان منارة أحلامى فى ساعات الوحدة ... فإياك أن تنعكس فيهما صورة أخرى ... لرجل آخر ... فتبدد سعادتى وهنائى ...

— لن أكون لأحد سواك ... ولن تبدد صورتك أى صورة أخرى ..

وألقت ليلى برأسها على صدره العريض وراحت أصابعها تعبث فى حنان

بشعره الغزير بينما راح هو يمر بأصابعه المتشنجة على جسدها كعازف مجنون أثارت أوتاره الغاضبة وحشة الليل فزادها رهبة وإظلاماً . .

*
* *

وعادا . . .

عادا بعد سهرة طويلة وفى النفسين مافيهما . . . أى شعور غريب استولى على الآثمين ! !

وعادا . . . أجل عادا إلى بيتهما الذى كانت سيدته تنتظر قلقة تسائل نفسها عن سر غيابهما حتى هذه الساعة التى يكاد أن يبزغ فيها ضوء الصباح مع مسير ساعاتها المتثاقلة . . . كانت سميرة هانم قلقة فى مضجعها تتركه مرة إلى النافذة ترقب الطريق وأخرى إلى جانب الباب تتسمع . .

ودخلا البيت حذرين ولكنها أحست بهما ودق قلبها مضطرباً فسارت على أطراف قدميها . . . إن الظلام مازال يغمر أنحاء المنزل فلم لم يشعلا النور . . . أى همس يتبادلانه فى الظلام . . لابد وأن فى الأمر سراً غريباً عنها . . .

وبعد برهة . . ضغطت سميرة هانم على زر الكهرباء فأضاءت البهو حيث وجدتهما . . . شقيقتها بين أحضان زوجها

وذعر العاشقان وقد واجهتهما الزوجة المجروحة الكرامة . . وتباعدا فى ذلة جعلت سميرة هانم تتقدم نحوهما وفى عينيها بريق الشر وبلهجة هادئة فى نبراتها ثورة بركان جارف سألت زوجها :

— هل أستطيع أن أفهم شيئاً مما رأيت . . وأنت يا أختاه . . . ان الذلة بادية فى عينيك . . أى جرم ارتكبتماه ؟ !

لم يستطع الاثنان التفوه بكلمة وسارت ليلى خافضة الرأس إلى غرفتها . فى حين تقدم فخرى زوجته . .

*
* *

وعندما استيقظت سميرة هانم فى الصباح كان زوجها قد سافر إلى الحدود مع فرقته ولكنها وجدت أنه ترك لها رسالة فضتها بأصابع مرتعشة .. وقرأت :

.. سميرة

لا أعرف ماذا أقول لك بعد أن رأيت بالأمس القصة الأليمة التى كنا بطليها البريئين ... ليلى تعسة وقد أجرمت فى حقها ... أعرف فيك التعقل فعالجى الأمر بحكمة .. وكونى بأختك أكثر رحمة منى ... قد لانلتقى ياسميرة فلا تنسى كلماتى المضطربة هذه ..

لا أجسر أن أقبلك ولا أن أطلب عفوك .. ولكنى أوصيك بليلى والوداع .. فقد لا أعود ...

« فخرى »

***

ورحلت الشقيقتان إلى « العزبة » فى إحدى قرى الوجه البحرى حيث وضعت التعسة « ليلى » طفلتها ...

***

وبعد أربعة شهور من الوضع عادت الأختان إلى بيتهما بالقاهرة وقد دّعت سميرة أنها أم الوليدة وانها من زوجها فخرى الذى نعته الصحف وكان ن شهداء الواجب الذين جادوا بدمائهم فى سبيل مصر وهم يدافعون عنها ضد لاعتداءات الأجنبية ...

***

ثمانية عشر عاما مرت ...

ثمانية عشر عاما مرت حاملة فى أحنائها ماحملت من ذكريات وآلام ...

ثمانية عشر عاما مرت كانت الكآبة ترفرف خلالها فوق بيت الشقيقتين الغريمتين فكان من النادر أن تتقابلا ويتبادلان كلمة . . . ومع مسير هذه الأعوام نمت الطفلة وترعرعت . . .

وشبت « سامية » كزهرة نضرة وسط صحراء قاحلة فكانت رؤياها الدائمة فى ذلك البيت باعث سرور وسعادة إلى قلوب ما عرفت السرور . . . كانت ضحكاتها الطروب تحيل الدنيـــا عالماً راقصاً بهيجاً أمام عينى هاتين المرأتين . . . أمها وخالتها . . .

أمها ؟ ! انها ليلى المسكينة التى انكرت المولودة قبل أن ترى عيناها النور فوهبتها للأخت المطعونة فى كرامتها لتكون لها ابنة . . .

أية أخيلة بشعة تحوم فوق بيت الأحزان ذاك ؟ ! رجل تداعب صورته خيالين . . . أحدهما ساذج برىء ، والآخر مهان ذليل محطم الكبرياء . . كانت صورته تداعبهما فيتمازجان رغم تباعدهما الروحى ليلتقيان عنـــد الجميلة الشابة « سامية »

سامية الفاتنة . . . ابنة الأم المحرومة منها والتى حرم عليها أن تبوح بذلك السر الرهيب فتقضى على مستقبل الفتاة البريئة . . . ان كل مايسعد هذه الأم أن تسمع ابنتها تناديها بكلمة « ماما » . . ولكن أنى لها هذا . . .

واعتادت الأسرة الصغيرة أن تجتمع فى أماسى الشتاء أو بعض ليالى الصيف الحالمة ليقضى أفرادها وقتهم فى السمر . . . ياسخرية القدر المتغالية فى انتقامها عندما تجمع بين قلوب تنافرت ! ! بل . . . أى حديث ملول تتبادله الأختان ؟ !

واعتادت سميرة هانم أن تحدث « سامية » عن والدها . . الضابط الشجاع الباسل الذى راح ضحية الوطن والذى كتب اسمه فى سجل الشهداء . . . كانت الفتاة تنصت إلى حديث أمها وهى فى بحر من السعادة تلوح لها بين الفترة والفترة

صورة ذلك الأب الباسل الذى تتحدث عنه أمها حديث العابدة المتبتلة تصف القوات الخفية لرب من الأرباب فى العصور الخالية . . .

وكانت الأخت الصغرى « ليلى » التى دفنت شبابها وحكمت على نفسها بالترهب وقتلت قلبها النابض الذى داعبه الحب لحظة فى ربيع العمر . . . وأبى العودة إليه بعد ذلك لتكون عند وعدها لمن أحبت . . ولتظل صورته فى عينيها إلى الأبد لاتحل محلها صورة أخرى . . . ولكنها الآن تجنى بذور الثمرة المحرمة التى اغتصبتها من صاحبة الحق الشرعى . . . واختفى الفارس الجانى إلى الأبد وهاهى ذى ترى الأبنة وقد باعدتها دون أن يساورها إحساس بأن هذه هى أمها . . . أمها الحقيقية التى أتت بها إلى هذا العالم . . . كانت هذه التعسة وهى فى مجلسها المنعزل أبان الحديث ترقب « سامية » بعينين فى أغوارهما الحنان والإشفاق والحب . . . فى الوقت الذى لم تكن فيه الصغيرة تحس نحوها إلا بإحساس الخوف والبغض . . . فقد أفلحت سميرة فى الثأر من أختها فعلمت ابنتها كيف تكرهها وتخشاها . . .

فكانت تنفرد ليلى فى عش غرامها وتشكو لخيال فخرى ما تقاسيه من أختها زوجته . . .

***

كانت ليلة من ليالى الشتاء الباردة . . . ليلة أعادت ريحها الثائرة ومطرها الدافق صورة ذكرى بعيدة فى خيال « ليلى » . . . وعبثاً تحاول التعسة خلالها أن تسلم جسدها للنوم أو تتلمس الراحة . . . ففى مثل هذه الليلة منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً مضت خرجت معه . . . كانت ليلة الوداع . . . الليلة التى نعما فيها بالثمرة المحرمة . . .

ومع دقات المطر نوافذ البيت وعبث الريح بالكائنات جعلت شتى الصور تمر أمام خيال « ليلى » المكدود . . . أنها تراه الآن وكأنه يحدثها عن الحب

وخلود، حديثاً ناعماً كان ينساب فى مسامعها كنسائم الحياة أو كالدماء تتدفق فى جسد ميت فتعيد إليه الروح بعد الموت الأبدى . . .

أنها تضحك الآن مرة وتبتسم مرة أخرى وتزداد عبوستها ثالثة . . . وفجأة استيقظت من أحلامها على صوت أقدام خفيفة تجتاز ممر الحديقة وتصعد السلم الحجرى . . . ووجدت نفسها تسير فى الظلام متلصصة ثم وقفت . . .

وراحت تنصت إلى همس غريب يتبادله اثنان خيل إليها أنها تعرف صوت أحدهما . . . وسمعت :

— تذكر هذه الليلة وإياك ونسيانها . . .

— كيف أنساها ياملاكى المعبود . .

— إذن فسأراك غداً . . . فى مثل هذا الموعد . . .

— كلما احتوى الظلام العالم تحت جناحيه سأهرع إليك . . .

واستولى الفزع على الحبيبين إذ تبدلت الظلمة من حولهما نوراً وعند نهاية السلم وجداها . . . وجدت « سامية » خالتها « ليلى » ترتعد من الغيظ وقد علت الصفرة وجهها فبدت كميته قذف بها القبر فروعت الأحياء الذين ما كانوا ينتظرون بعثها . . .

« لقد تجسم الماضى أمام عينى التعسة وهاهو ذا يعود مرة أخرى . . . هذا رجل وإلى جانبه فتاة . . . رجل غريب وفتاة هى ابنتها . . . الطفلة البريئة الساذجة ستسقط فى الهوة التى مازالت أمها تعيش فى ظلامها . . . لقد كان الآخر رجلا مثل هذا . . . رجلا كان يسكب فى أذنيها أعذب ألفاظ الحب فانقادت كالعمياء حيث سقطت فى الهاوية . . .

لقد سقطت فهل تترك ابنتها تسقط ؟! وفى صوت فى نبراته ثوران موج البحر قالت :

— ماذا كنت تفعلين ؟! وهذا الـ . . . الشاب الذى فر من أمامى . . . وما سر مقدمه فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟!

وتقدمت منها ورفعت رأسها ونظرت إلى عينيها وهى تقول :

ــ ارفعى وجهك ودعينى أنظر فى عينيك . فشد ما أخشاه أن تكون الذلة قد عرفت طريقها إلى أغوارهما المتعجرفة . . .

ــ وبعد . . . ؟ !

ــ لا أدرى يافتاة ولكن العزة بالإثم قد أخذتك وأخشى أن تتمادى فى سبيل أخشى عليك مغبة سلوكه . . .

ــ وما شأنك بى ؟ !

ــ أنا . . .

واختنق صوت « ليلى » ولم تعرف بماذا تجيب فى حين اندفعت الفتاة تقول :

ــ ما شأنك بى . . . ؟ ! أنك تغارين منى أيتها العانس وتحقدين علىّ وتكرهين أن ترى أمامك شابة تتوق إلى الحياة بل أن عقارب الغيرة قست فى ايلامك وأنت ترين خطيبى إلى جانبى . . . أنك تغارين منى يامن كره الرجال الاقتراب منك وتركوك تندبين حظك العاثر خلال وحدتك . . . أنه خطيبى وعما قريب سأزف إليه . . .

واستيقظت « سميرة » هانم لسماع المشادة بين أختها وابنتها فأسرعت ترى ماذا حدث . . . وضحكت فى قرارة نفسها أسفاً وحزناً . . . كانت الأم محقة فى ثورتها ولكن . . . هاهى ذى يد القدر الباطشة تنتقم . . . كان ذلك منذ أعوام مضت وفى مثل هذه الليلة . . . وفى نفس هذا المكان عندما رأت أختها بين ذراعى زوجها . . .

***

وأسرعت الصغيرة إلى مخدعها تاركة الأختين وقد سارتا صامتين إلى غرفة « المكتبة » . . . وأحست « سامية » بشعور غريب يداخل نفسها مع صورة

خالتها ذات الوجه المتجهم الذى ارتسم الهلع على تقاطيعه ... وساءلت نفسها عن سر ذلك الشعور الغريب الذى تحس به نحو خالتها الطيبة ...

وابتسمت وهى تلقى بشعرها إلى الخلف فى إهمال وتعيد هامسة المشادة التى كانت منذ لحظات ... أى سر غريب بينها وبين هذه المرأة ... وما سبب تدخلها فى شئونها ... وما دامت أمها المحبوبة لم تبد أى اعتراض فلم تجعل هذه السيدة من نفسها حارسة ورقيبة عليها ...

ووجدت « سامية » نفسها تغادر غرفتها فى هدوء إلى البهو الذى كانت تشمله الظلمة ... ومن بعد سمعت همساً أحست بفضول يدفعها إلى سماعه ...

كانت الأختان منفردتان .. فاقتربت من باب « المكتبة » تريد الدخول ولكنها توقفت ... كان الحديث يخصها هى إذ سمعت أمها تقول :

— لقد تسرعت ...

وأجابت خالتها حانقة :

— ولكنى لمست الجريمة ورأيتها بعينى فكيف تريدين منى أن أتمادى وأترك ابنتى تندفع إلى الهوة دون أن أحول بينها والسقوط ..

— شوت .. لا تقولى ابنتك مرة أخرى ...

— بل يجب أن أقول ذلك ... لقد ظللت خرساء مدى ثمانية عشر عاما لم أنطق خلالها بحرف واحد وأنا أعيش فى جحيم من آلامى وأحزانى ... ثمانية عشر عاما وأنا أسمعها تناديك أنت بيا « أمى » .. هذا الداء الذى هو من حقى أنا وحدى ... هذه الطفلة الطائشة يجب أن تعرف الحقيقة ... أن تعرف السر الرهيب ليكون من سقطة أمها درساً لا تنساه ... أنها ابنتى وليس لأحد أن يعترض على ما أريد أن أعمل ...

ــ أيتها المجنونة . . أنا التى ستعترضك فبعملك هذا تحطمين حياة الصغيرة العزيزة . . . لقد سرقتنى زوجى منذ أعوام مضت ، وبدورى آخذ منك بالثأر . . الفتاة لى ومن أجل مستقبلها وسعادتها يجب أن أظل أمها . . . وإذا كانت تحب فتاها ويحبها فانى أبارك هذه الزيجة . . .

ــ خرافة لا أقبلها . . . لن أقر هذه الحماقة وسأعرف كيف أوقف الصغيرة عند حدها . . . أما أنت فليس لك بعد الليلة أن تتداخلى بينى وبين ابنتى . . .

وتخاذلت « سامية » وهى فى وقفتها وقد عرفت كل شىء . . أى سر قاتل فظيع . . . ودارت بها الدنيا وكادت تسقط مكانها ولكن الثورة التى عادت بين الأختين جعلتها تنسى ذلك الهول الرهيب فأسرعت إلى داخل « المكتبة » لتحول بينهما . . .

وذعرت المرأتان وسقطت الأم الحقيقية باكية على المقعد ووقفت الصغيرة بينهما متلاجة الأطراف تحاول انتزاع الكلمات من فمها .

وبعد جهد قالت :

ــ رواية جميلة أجدتما تمثيلها طوال هذه السنين . . . يا للنهاية المؤلمة . . . إذاً فأنا . . .

وخنقتها الدموع وغامت الدنيا أمامها وأحست بيد أمها « الزائفة » تمسك بها فى حنان وتضمها إلى صدرها ناظرة إلى أختها نظرة كراهية وإحتقار . . .

ــ أرأيت أيتها التعسة . . . ؟!

ــ كان من اللازم أن تعرف كل شىء . . . وأن تعلم « سر العانس » ؟!

وقالت سامية :

ــ ياهول ماعرفت . . . . أيكما أمى . . . اثنتان تشتركان فى بنوة فتاة كما تشاركتما من قبل فى الرجل الذى أوجدنى . . لا أدرى من منكما أحب

ومن أبغض وأحتقر . . . لقد جئت أيتها السيدة بعد هـذه السنين الطوال لتعانى السر القاتل . . . وقد وضح لى كل شىء . . انك لم تسرقى أختك رجاها . . . بل سرقتنى أنا عطف الأب وحنانه . . . فقد انتقم القدر منه بالموت . . وانتقم منك بالحرمان . . . وكانت أختك رحيمة بك فهبلت عارك وأوقفت حياتها لرعاية ثمرة خطيئتك . . .

وكادت الأم أن تصرخ وقد أمعن مطارق القدر فى تسديد ضرباته إليها ولكنها لم تستطع إلا أن تقول فى صوت متحشرج :

— يا ابنتى . . . وجدت فى الحرمان سعادة لوجودك ! !

وزادت ثورة الفتاة وقالت :

— لا ياسيدتى . . . فلا رابطة بينى وبينك . . . كان جديراً بك أن تختفى إلى الأبد أو تقضى علىّ . . . إذاً لكفتنا المقادير هذا الموقف المريع . .

— متى تستطيعين معرفة ما ذاقته أمك طوال هـذه السنين من أجلك وأوقفت حبها عليك وحدك دون أن تفكر فى نفسها يوماً من الأيام

— يا للإنتقام الرهيب

وضمت سامية أمها « الزائفة » إلى صدرها وأحست بالهدوء يداخل نفسها مع كلماتها الحنون وهى تقول :

— حبيبتى . . .

وأجابت الصغيرة فى همس :

— أمى المحبوبة . . . قولى أن ماسمعته الآن كان أكذوبة فظيعة . . . ولا تتركينى لها . . .

— حبيبتى . . . أغفرى لها هذه الثورة النفسية فقـد ظلت تقاوم سنين طوال . . . تعالى . . . لاتبكى فسأحقق أحلامك وآخذ بيدك إلى حيث

السعادة التى تتخيلين . . . تعالى فأنت متعبة ويجب أن تنامى . . أغمضى عينيك وأنسى هذا الحلم الفظيع . . .

وخرجت مع الصغيرة تاركتين الأم وحدها تحوطها دجنة حالكة من أفكارها وذكرياتها . . .

وغطت وجهها بيديها وأسلمت نفسها إلى أحلام الماضى البعيد . . . فبكت . . . كانت تبكى دون أن تعرف كنه الشىء الذى تذرف من أجله هذه الدموع . . .

***

وتحدد يوم زفاف « سامية » وحلت الليلة التى عادت فيها البهجة إلى « بيت الأحزان » فدخلته السعادة من بابه مع العروسين الشابين . . .

كانت الزغاريد تدوى والموسيقى تعزف وقد جلس العروسان جنباً إلى جنب تظللهما الفرحة وتغمرهما السعادة بينما جلست هى . . . « ليلى المهجورة » . . . وظل فرحات الدنيا يخيم فوقها وهى ترقب ابنتها العزيزة تزف إلى رجلها المحبوب الذى وهبته القلب والروح . . . .

وعندما همت « ليلى » بتقبيل العروس ساعة الزفاف سمعتها تهمس فى أذنها :

ــ شكراً يا أماه . . ؟!

بكت فى تلك اللحظة إذ غلبها السرور وأحست أن كابوس الأعوام الماضية قد انجاب عنها إلى الأبد وخيل إليها أنها ترى السعادة وتحس بها فى هيكل قلبها الذى حطمته ذكريات الماضى وأعادت إليه سعادة ابنتها شبابه وحيويته . . . .

وهبط الستار . . . فالتمع وجه السعادة وبدت فى عينيها أطياف غريبة ، ورفعت وجهها إلى الأمل وظل ابتسامة باهتـــة تبدو عليه ثم قالت :

– وبعد . . .

وأجابها وقد ملأه الزهو :

– صورة أخرى من صورك يافاتنة

وساد الظلام القاعة ثم ارتفع الستار عن . . .

أين السعادة ... ياليل

ياليل ... أين السعادة ياليل ...

ياليل ... أى جمال يحويه اسمك وأية أسرار تضمها ياليل ..

ياليل ... كم يحلو لى أن أناديك وأن أسمع صوتى الهامس يتردد فى جوانبك الصامتة فتحمله نسائمك المصوغة من أريج الغموض إلى أودية بعيدة لا يعرفها سواك ياليل ... !!

ياليل .. أى جمال فيك وأى سحر يشملك ... أهو أنت من كسته الطبيعة ببردة الظلام فاستكان إليها ... أم هى التى استشعرت الأمن بين أحضانك فاستكانت إليك وراحت ترسل الزفرات نسائم ، والأنين رياح !!

ياليل ... كل مافيك يجبرنى على حبك وكل مافيك يثير لواعج الذكرى فى قلبي فأود لو أذرف الدموع ولكنى أخاف أن أعدو على جلال قداستك ياليل ...

ياليل ... أبينك وبين الدموع صلة ؟ أم بينك وبين جلال الصمت صلات وصلات ؟! الدموع ياليل !!

يا لجلال هذه القطرات العزيزة تصدر من شغاف القلب ومع دقاته الحنون تستقر على الوجنات فى تضام عاشق ... إيه يارسول القلب ووليـــدة الأسى واللوعة !! إيه ياعصارة الروح يستنجد بك الملتاع لتخفى لوعته !!

ياعصارة الذكريات تنسكب قطرات من البللور تطالع العين ببريق من لألائها ... لست أدرى إلى من أنسبك ... إلى سواد الليل أم لجلال الظلمة

أم للحنين والذكريات ؟! إنك المزيج السحرى لكل هاته الغوامض ياسلوى المساكين . . .

ياليل . . .

ياليل . . . انى ألقى بنفسى بين أحضانك فكن أكثر حناناً من أسلمتهم الروح فما كانوا ألا عابثين . . .

ياليل . . . إن الذكريات تزحمنى بصورها وأن الدمع ليهطل ويكاد يكشف بريقه ظلمـــاتك ولكن . . . لأكفكفن الدمع فلى فى ظلامك ستر أحبه وأتمنى حمايته . .

ياليل . . . ان أصابعك السحرية لتوقع على أرغن الغموض حديثك العذب الذى ينسكب فى دمى فيحدث فى نفسى هدوءاً أنا أحوج ما أكون إليه ؟!

إيه ياليل وياهاته الظلمات . . أننى أستسلم لكما فرجعا الماضى وأعيدا أمام ناظرى صوره كلها حلوها ومرها وأسردا على مسمعى تلك القصة القديمة . .

ياليل . . . أننى أنصت . . . أنصت بروحى المعـذبة . . . روحى الميتة التى بدأت مع سردك العاطفى تتحرك فى رمسها وتنفض عنها الغبـار لتحيا فى عالم يتنفس ويعيش . .

ياليل . . . أنا هى من تناجيك وأنا هى من تحدثك وأنا هى المشوقة لترديدك القصة مرة ومرات . . .

انه الحب ياليل . . . الحب الجاثم فى كل مكان فيك . . . الحب الباسط جناحيه فى سمائك والذى يحيل سوادك فى عيوننا نوراً ينفذ إلى القلوب فتنقاد إلى ندائه "ساحر العذب . . .

ياليل . . . لينساب النغم ساحراً من مزمارك ليصل إلى أذنى فيرقص القلب فرحا مع أنغامه . . .

وهناك الأفق ياليل . . الأفق العاشق الذى ضم الظلمة إلى صدره واحتضنها لينعم بالهدوء . . . هـذا الأفق ياليل راح يردد النغم ويردّه إلى أعماق فأهتز ولا أدرى إن كان من قسوة الذكرى أو من حنين إلى ماضى رأيت فيه مارأيت

ياليل . . أنا منصتة إليك فحدثنى . . . لاتروعك دموعى فانى أكفكفها الآن ولا يقلقك وجيب روحى ولا تهدجات صدرى المحموم . . . أنا مصغية فحدثنى . . . .

. . . وسكتت الفتـاة وقد غلبتها الدموع ولكنها لم تسلم نفسها إلى نوبة النشيج بل راحت تستعرض جمال الماضى وهى مسلمة نفسها إلى أطياف أحلام مضت . . . كانت فى ربيع صباها رائعة التكوين نضرة الوجه ساحرة العينين كل مافيها يجبر على التبتل والعبادة ولكنها ترملت . . . ترملت فى عاطفتها . . مات القلب وهو فى ربيع خفوقه بيد رجل . . رجل كسائر الرجال . . يا للذكرى ! ! إنها إذ تستعرض هاته الصور وتلوح أمام ذاكرتها شتى الحوادث ويبدو فى أفق خيالها شبحه . . شبح الرجل الذى ادخرت أقوى الحب وأروع أحاديث الهوى لتسكبها فى أذنيه . . . وتولتها رعدة وأحست ثورة على الدنيا ومن فيها . .

رجل . . إنه الشيطان الناعم الصوت الذى يقود بمعسول ألفاظه المرأة التعسة من عالم هادىء طاهر إلى دنيا من جحيمه . . . دنيـا تظل طوال حياتها أسيرة نيرانها ووهج لظاها . . . رجل . . نعم رجل . . ! !

وهبت نسمة عليلة داعبت شعرها الحريرى الحالك السواد . . أى نغم عبقرى ياليل ذلك الذى تردده هذه النسمة الحائرة الضالة . . .

أهى بداية القصة ؟ !

يخيل إلىّ أنها أول صفحة من تاريخ هـذه المأساة . . أننى إذ أجلس هنا ياليل أسلم نفسى إلى أطياف ظلامك وتسلمنى هذه الأطياف إلى مردة العذاب

أحس بأن هذه النسائم السارية فى جوانبك أنفاس بشر . . صدر يتهدج ويصعد الزفرات حارة نارية . . . هكذا تبدأ القصة ياليل . . زفرة تزدرى بالسعير ونظرة كسيرة وصوت فى نبراته الرعدة والتبتل . . . عينان ذابلتان ويد ترتعش وبين اللفظ واللفظ آهة تنفس عن القلب بعض مايعتوره من نيران الهوى . . .

بدأت القصة بلقاء هيأت الأقدار لساعاته الأولى كل وسائل الاغراء . وقد إلتقت يد شاب بأنامل فتاة . فضغط على اليد الصغيرة فى قسوة محبوبة جعلت الفتاة تستشعر حيرة غريبة . . . أحست بنفسها ضالة فى صحراء مجهولة وقد بدى لها قبس من نور سارت على هداه . . . وتعلقت باليد التى بيدها تتلمس عن طريقها النجاة . .

إيه ياليل . . . ليخيل إلىّ وأنا جالسة وحدى الآن أنى أراه . . . أرى شبحه وقد اكتسى بسوادك وانطبع على كل ماحوالى . . يهمس فى أذنى بصوت كفحيح الأفعى تجتذب الفريسة . . قلبى يضطرب وأحس فتوراً واستسلاماً . . ماهذا . . . ياطيف الماضى ! ! لم أتيت . ولأية علة تبدو أمامى فى وقت أريد الإنفراد فيه بقداسة الذكرى . . انى لا أرى فيك الصورة الحية لكل ما أريد أن أتحرر منه . .

لست أدرى ماذا عساى مستطيعة أن أقول لك وأية عواطف أصارحك بها . . هل أبوح بما يجول بخاطرى وأعترف لك بأنى كرهتك وأصبحت أبغض رؤياك ؟ لا تضحك سخرية من ثورتى بل انى لأمقت هذه الضحكة الصفراء الواثقة التى تترنح ثملة على شفتيك كمن يقول لى : أنك مازلت لى العبدة المطيعة : ولكنى أقسم أنى كرهتك . . .

كانت ليلة من لياليك الهادئة ياليل وقد ثارت طبائع البشر فى حفل ساهر أقامته إحدى الجمعيات الخيرية فى فندق كبير . . . كنا حشداً رائعاً وقد اجتمعنا

فى الردهات والأركان وحول الموائد . . . شباب فائر وفتنة منتشرة فى كل ناحية . . الموسيقى تعزف وعلى أنغامها الهادئة كانت تسير الأجساد المتلاصقة وهى طاروبة نشوى . . . !

كنت أجلس مع بعض قريباتى فى ركن قريب من حلبة الرقص ورحت وأنا كالذاهلة أرقب العرض الموسيقى . . . كنت أحس شعوراً غريباً يتملكنى . . . ماهذا ؟ ! إن الفرحة لتطغى على قلوب الجميع وأن السرور ليغمر الحاضرين بفيض من الضحك والمرح . . . وأنا . . كنت أفكر . .

كنت لا أدرى فيم أفكر ولكنى لم أهتم بالأنوار العديدة الساخرة من ظلام الليل . ورميت ببصرى بعيداً . . . كنت أنظر فى جوف الظلمة وكأنى أسائلها أن تكشف لى عن سر لم أستطع البوح به لنفسى

ما الذى كان يشغل أفكار فتاة فى التاسعة عشر من عمرها . . . زهرة نضرة فى ربيع أحلامها العذاب تعيش فى كنف والد من الأغنياء وأسرة لها الاسم والجاه العريض . . . ما الذى كان ينقص هذه الفتاة ؟ !

أجل . . ما الذى كان ينقصها ؟ ينقصها حياة تملؤها أغنية عذبة من فم الهوى يرددها وهو نشوان فيسكر بها دنياها . . . ينقصها أن تبعث الحياة فى الصورة التى تحبها والتى ظلت طوال الأعوام تجملها وتزيدها حسناً وفتنة وروعة . . . كان ينقصها الخروج من دنيا الأوهام إلى دنيا الحقائق . . . كانت تحلم بتحقيق الحلم الجميل الذى داعب خيالها كثيراً . . كانت تحن وترغب فى لقاء حبيب فارسها المجهول . . .

أنها كانت تعيش بخيال « رومانتيكى » . . . تخيلت نفسها إحدى أميرات روسيا القيصرية وأن رجلها أحد ضباط الحرس القيصرى طويل القامة عريض الكتفين مجدول العضلات يحملها بين ذراعيه كدمية عزيزة من الخزف يخشى عليها من العطب . . . ولكن لا . . أنها لا ترتاح إلى هذه الصورة . . إذاً فلتكن

بدوية وسط الصحراء تقضى ليلها أمام خيمتها الحريرية تنصت إلى وقع أقدام رجلها المحبوب وقد أتاها مع الظلام تتقدمه أهزوجة حبه يرددها شعر أ يحيل بها سكون الصحراء بركان ثائر بالهوى والتدله . . . شاب ترى صورتها وحدها فى أغوار عينيه لا يرى فى دنياه الرحبة سواها كما لا تجد لديها من الوقت ما يسمح لها بالتفكير فى سواه . . .

وأخيراً . . . رأيته . . .

وتلاقت أبصارنا من بُعد فوق قلب متعطش وأسرعت باخفاء وجهى براحتى يدى كى لا أراه . . ولكى لا أتلاشى بتأثير ذلك البريق المنبعث من عينيه . . . حولت وجهى مرة أخرى ناحيـــة الظلام الذى كان يشمل الكون بالخارج ولكنه ظل حيث هو . . . علا صدرى وهبط وكأنى عدوت شوطاً بعيداً وظل قلبى يدق فى رهبة واضطراب ثم . . .

ثم علا صوت الموسيقى . . . تانجو « كابريس » . . . وعم النور الأحمر الحالم فى جو القاعة . . . وبدى كالشفاة الظامئة انتثرت فى الظلمة الخفيفة لتهمس وتتبادل القبلات . . . وأحسست يداً تربت على كتفى فانتبهت من الحلم العذب ورأيته أمامى يبتسم قائلا :

— تسمحين لى بهذه الرقصة

— هذه الرقصة ؟!

— نعم . . . تسمحين . .

— ولكن . . .

— موسيقى التانجو رائعة هدوءها يريح الأعصاب . . . لقد راقبتك منذ أتيت ورأيتك شاردة النظرات واجمة تفكرين . . . هيا . . .

ـــ سيدى . . .

وشعرت بقوة غريبة دفعت بى إلى السير معه . . . وسرنا وفق النغم وأنا فى غمرة ذاهلة سمعته خلال لحظاتها يقول . . .

ـــ خائفة

ـــ لا . . .

ـــ إضحكى ياصغيرتى فان تستحق الحياة هذا الاطراق . . . ما أسعدها دنيا تطالعينها بابتسامتك المشرقة . . . أنصتى إلى النغم . . . تابجو « كابريس » نزوة . .

ـــ نزوة ! ! أجل نزوة . . . يالطيش الشباب . . . لم تبعتك ؟ !

ـــ لأنه كان يجب أن تفعلى ذلك

ـ حديثك غريب . . .

ـــ وتأثيرك أكثر غرابة . . . محال أن يراك إنسان دون أن يتبعك لا بالنظرات فقط . بل بالقلب والعاطفة

ـــ أنا لا أسمح . .

ـــ ولكن سمحت لنفسى

ـــ أرجوك

ـــ بل أتوسل إليك أن تسمعينى

ـــ وإذا رفضت ؟ !

ـــ لن أسلم برفضك وسأظل أسكب فى مسمعيك حديثى عساه يلين قلبك فتنصتين . . .

ـ انتهت الموسيقى فاسمح لى

ـــ ولكن حديثنا لم ينته

ـ حديثنا !! كأنى بنا متعارفين من زمن ؟! أى أفكار تجول برأسك ياسيدى . . .

ـ أفكار الضال تلمس طريق هدايته . . . غريب عثر على موطنه . . . والتقى بأهله . . . شريد وجد الضالة التى طال بحثه عنها . . . عاودت الموسيقى عزفها . . . أنها انشودة الأفق الضاحك ساعة مقدم الفجر الوردى . . . هيا ولنعد للرقص . . . أنك الآن أكثر هدوءا منك فى المرة السابقة . . . فما أجمل أن يستكين الملاك النافر إلى صدر يشعره الراحة والهدوء . . . أسمع بين حنايا صدرك موسيقى تكاد فى سحرها أن تفوق موسيقى الليل الغامضة . . . أترانى مستطيع أن أترجم هذه المقطوعات وأنقلها لغة حديث نتبادله . . .

ـ ماذا كنت تقول ؟!

ـ ياضيعة النجوى ضل صداها فى الآفاق ولم تجد لها من سميع !!

ـ متى تكف هذه الموسيقى عن عزفها ؟

ـ ومتى يبدأ القلب عزف نشيده الخالد ؟!

ـ أى نشيد تعنى ؟ أكاد لا أفهمك . .

ـ نشيد الأبد . . . النشيد الذى ظلت القلوب تعزفه على مر الأيام والقرون دون أن يعتورها ملل أو كلال

ـ وبعد . . .

ـ لحظة واحدة . . . ها قد انتهت الموسيقى . . . تسمحين ببعض لحظات

ـ لم ؟!

ـ أحدثك فيها

ـ لم يكفك هذا الحديث الطويل ؟

ـــ كلا . . . بينى وبينك حديث ستزيده الأيام دون أن نمل تكراره وترديده . . . لا تمانعى أتوسل إليك

وفى الشرفة المطلة على حديقة فسيحة وعلى مقعد طويل جلسنا . . . أنا وهو . . . أنا وفارسى الذى ضرب له فى أعماق القلب حباً تفننت الأيام فى تجميله وتنميقه . . . داعبتنا النسائم وصفقت أغصان الشجر طرباً للقائنا الأول

وتبادلنا حديثاً ما سمعت مثيلا له من قبل ولن أحاول أن أنصت لمثله بعد ما كان . . . حديثاً عذباً عرفت خلاله معنى كنت أجهله . . . معنى الحب . . . وكان كل ماهو حوالينا ينطق بالهوى والشباب . . . الليل على عرشه الأسود والنسائم وقد راحت تداعب الأزهار والورود وتمنحها العبير الحلو لتعطر به عالماً فى حنين إلى ما يحرك كمين عواطفه وكانت الموسيقى تعزف عن بعد مقطوعاتها وسط الصخب والسرور وكانت دقات قلبانا تعزف هى الأخرى موسيقى غرام وليد . . وسكتت الموسيقى فجأة ثم عادت لتسمع جموع الراقصين والراقصات القطعة العاطفية « بعدك لن أعرف الحب » . . . ووصل صدى حالم من النغم إلى مسامعنا ونحن فى جلستنا البعيدة . . .

« يا ليل . . . لقد شهدت ما حدث وقتها وسمعت الترنيمة العاطفية الثائرة التى رددت فى جوف سكينتك . . . كان النغم ينساب هادئاً فى نوع من الصخب الذى ترتاح النفس إليه والموسيقى تسير بالأجساد الثملة هنا وهناك . . . صدور متلاصقة وأفواه تهمس بألفاظ الغزل ... كنت فى بحران من تصوراتى وإذا بيده تمتد لتمسك بيدى وسمعته يقول فى حرارة المؤمن :

ـــ أتسمعين ؟

ـــ أجل . .

ـــ ما الذى سمعتيه ؟

ـــ سمعت همس نسائم الفجر تناجى وروداً لم تتفتح وهذه الطيور المرحة تتغنى بجمال الطبيعة المتأوهة بين النور والظلام يسلبها النهار من بين أحضان الليل

ـــ ألم تسمعى وجيب روحى

ـــ . . . .

ـــ سأسمعك هـذا النشيد الخالد وسأجعل روحك تتجاوب فى فضائها أصداؤه الصارخة . . والآن . . أنصتى الى هـذه الترتيلة العلوية . . . أتعرفين ماذا تقول . . .

ـــ فسر لى

ـــ مقطوعة أحبها . . . « بعدك لن أعرف الحب » دعينا نرتلها معاً . . . لا إسمعينى وأنا أرددها على مسمعيك . . . تعالى . . . سنشاركهم الرقص ونحن فى مكاننا هذا . . . بعدك لن أحب ! !

ـــ وهل أحببت قبل ذلك ؟ دون شك . فأنت رجل . . . رجل كغيرك من سائر الرجال . . . عرفت الحب، وذقت طعومه المختلفة . . . حديثك عنه حديث الرياء لأنك لم تستقر على غرام واحد . . .

ـــ لا تكونى ظالمة . . . أتركى هذا الآن ودعينا نغنى . . . « بعدك لن أعرف الحب . . .

ـــ بعدى ! ! أى لفظ شنيع ! ! بعدى ! ! كأنى بك لو تحابينا تاركى أو لكأنى بنفسى هاجرتك بعد عمر طويل من غرام عاصف ... بعدى ! ! بعدى لن تعرف الحب ! ! لست أدرى سر تشاؤم مؤلف الأغنية . . . ياللغرام الفاشل يحطم القلب وينقل إلى النفوس صوراً حزينة . . .

— ما بك ؟!

— أفكر فى هذه الكلمة الرهيبة ... بعدى !!

— اغتنمى سعادة اللحظة ... ها هم أولاء يرقصون وها نحن هذين نرقص أيضاً ... اضحكى فالحياة لا تساوى أن نشغل بها أفكارنا

— هيه ! بعدى !! لمن ستقول « بعدى » هذه الألفاظ المعسولة الحالمة !!

— يافتاتى الجميلة لا تنصتى الا لنداء القلب ... دعى أوهامك واضحكى ... انظرى هناك .. إن الكؤوس تتلاقى فى رنين عذب وانها لتتعالى ساخرة بالدنيا وماحوت ، وان شرابها السحرى ليرتفع بالروح إلى دنيا ثملة تسيطر عليها أشباح راقصة طروب ..

— وبعدى ... إذا ذهبت أنا ... إذا اختفيت من هذه الآفاق الضاحكة ..

— سأحطم الكأس

— ورنينها السحرى الساخر بالدنيا

— سأصم الآذان عن سماعه ولكن ... انا الآن كائنين ... تعـــالى سأعلمك كيف تسخرين بالحياة ... تعالى ... ألك فى كأس ؟!

— كأس ؟!

« لم أدر يا ليل ماذا حدث ... فقد شربت تلك الليلة الكأس الأولى ... ورحت أطيع رجلى طاعة عمياء ...

« وشاهدت ياليل بعد ذلك أروع حوادث الحب ... الحب القوى الجارف الذى طغى علينا فاستسلمنا له عن رضى واطمئنان ....

« وكم من مرة ضممتنا ياليل إلى صدرك الحنون ورحت تنصت إلى نجوانا وأحاديثنا ...

« وبرح بنا الحب ياليل ... وكان أن استقر رأينا على الزواج ... يا لهذه الرابطة المقدسة التى تتوج الحب بأكاليل طهرها ...

« كانت أيامنا فى العش الهادئ الذى أقمناه سلسلة متصلة من السعادة والغبطة . . . كان جمـــالى يتجدد كل يوم أمام عينيه وكنت مع كل لحظة أكتشف مناحى الرجولة والحب فى نفسه . .

« وأحسست بالجنين يتحرك فى أحشائى فحملت الخبر الى زوجى الذى لم تسعه الدنيا لفرط سعادته . . . وحلقت السعادة فوق رأسى . . فهــذا رباط جديد سيزيد صلتى به . . . ومرت الشهور وأنا فى رعاية وحدب وعطف ثم . . .

« أوه ! ياليل . . . لك أشكو آلامى متوسلة الى ظلامك أن يغيبها بين طيات الأبد المجهول . . . لقد وضعت طفلة . . . طفلة سـاذجة . . . دمية صغيرة ذهبية الشعر زرقاء العينين حوى وجهها الصغير كل معانى الفتنة والجمال . . . طفلة قوبل مجيئها إلى دنيا الناس بالفتور والغضب . . . لقد تولت الرعدة جسده وتمشت الصفرة فى وجهه عندما أخبروه بأنى وضعت طفلة ... صاح ساعتها صيحة مكتومة فيها الألم والحسرة..

— بنت ! !

« أجل . . . طفلة وليس لى فى خلقها يد . . .

« ولـكنه كان يريد طفلا . . . مولوداً ذكراً يعتز به . . وليست طفلة يتوارى خجلا من الناس بسببها ! !

ياليل . . . أين السعادة ياليل . . .

***

« وخمدت الجذوة المتأججة وفتر الحب النـــارى و . . . واصبح من العسير إصلاح ما أفسدته يد القـــدر . . . وشعرت بتحول زوجى عنى . . . أحسست أنه أصبح يتجنب حتى الحديث معى . . . لم يفكر يوماً فى حمل فلذة كبده ليطبع على ثغرها الدقيق قبلته الأبوية . . .

« ما شكوت لأن ضوء الأمل وشعلته المقدسة كانت تبدو خـــلال الظلمات التي أحـاطتني . . . ما برحت لأن عاطفتي تسامت وتحولت نحو الطفلة البريئة الذي حرمها الأب عطفه . . .

« وعشت ياليل في جحيم كانت الصغيرة تلطف وهج نيرانه بل أن حبها الطاغي جعلني أتهاون في كل شيء حتى حقي كزوجة . . .

« وتمادى إهمال زوجي لي . . . الاهمال الذي بدأه بتناول الطعام في الخارج ثم بتأخيره في محل عمله لكثرة مشاغله ثم . . . عودته يترنح من فرط الشراب و . . . وقضائه ليالي عديدة خارج بيته . . .

« وثارت كرامتي ذات يوم واسودت الدنيا في وجهي عندما علمت بدأ شروعه في الزواج من فتاة تعرف بهـــا في منزل صديق له . . . أردت أن أحول دون إتمامه هـــذه الجريمة . . . أوه ياليـل !! أي رجل !! بل أي وحش فاقد الحس والعاطفة . . . كيف سمح لغريبة دخيلة أن تشاركني فيه . . . بكيت كثيراً يا ليل !!

رجوته ذات مرة أن يستمع إلي فقال بلهجة ماسمعتها منه :

ــ أنا متعب ولا أحب تكرار أحاديث النساء

ــ لاتحب !! ياعجباً لتصاريف القدر . . ولكنه من حقي أن أحدثك . . من حقي أنبهك إلى أنه ليس من النبل في شيء أن تطعن كرامتي باهمالك إياي

ــ يجب أن تقنعي بوجودك في بيتي

ــ أنا لا أقبل أن أحمل اسم رجل يهب اسمه وقلبـــه لنساء الشارع . . .

وضحك الوحش ضحكة قاسية ثم قال :

ــ من الشارع !! وأنت . . . أنت يا ابنة أعاظم الناس . . . من أين أتيت بك . . . أتراك نسيت ظروف تعارفنا ؟ لقـــد كان بوسع أي

شاب غيرى أن يفعل ما فعلت . . . إن الغيرة لتعبث بقلبي عندما أفكر فى تلك الليلة التى تعارفنا فيها . . . أشباح مزعجة تساورنى . . . كم من الرجال قبلى ركنت إليهم وكم منهم حدثك مثل حديثى . . . إن هذه الابنة التى أنجبتها لن تكون أقل منك عاراً فى المستقبل إنك . . .

« نسيت نفسى ساعتها ياليل . . . وكحيوان أصيب فى مقتله اقتربت منه وقبل أن يتم حديثه المسموم الثمل صحت فيه :

— كفى . . . نذل

ثم . . .

ثم هويت على وجهه بكل ما أوتيت من قوة وأنا أصيح :

— وحش . . مجرم . . ساقط . .

***

« طالبت بالطلاق الذى تم . . . وهكذا تهدم العش الجميل الذى ذقت فيه أحلى أنواع السعادة ورأيت فيـــه أفظع ألوان البؤس والعذاب وخرجت أحمل طفلتى المحبوبة . . . إلى « فيلا » صغيرة بناها المرحوم والدى . . .

« وهناك عشت مع الصغيرة مقسمة أن أنسى ما كان وأن أوقف حبى وحنانى وثروتى الوفيرة التى ورثتها عن أبى للصغيرة . . . وأخذت على نفسى عهداً أن أعيش لابنتى وحدها . . وأن ألقنها عن الرجل . . الدرس الذى لاتنساه . . .

***

من مذكراتها

خمسة أعوام مرت لم أسمع فيها عن زوجي السابق أي خبر سوى أنه تزوج من أخرى لتنجب له إبناً ... كنت خلال هـذه الأعوام أرقب نمو الصغيرة الحبيبة وأحوطها بشتى ألوان الحب والحنان ...

حتى كانت هذه الليلة التى احتفلت فيها « بميلاد » ابنتى ... لم أستطع أن أفسر ذلك الإحساس المؤنس الذى دهمنى والذى جعل دمعـــة عزيزة تهتز على أهدابى لاحظتها الصغيرة فأقبلت تسأل عن سر بكائى ... ضممتها إلى صدرى وقد نسيت كل آلامى وأنا أقول لها :

— انها فرحتى بك وقد استحالت دموعا ياحبيبتى ..

انتهى الحفل ومرت مع الصغيرة حتى مخـدعها ثم تركتها ... وعدت إلى أحلام الماضى التى بعثت من جديد وراحت تهاجمنى فى قسوة وعناد ...

أجل ... ستسأل يوماً عن والدها ... ماذا أقول لها ... هل أعترف لها أنه كان أب كالوحش لاقاب له وأنه كرهها منـذ اللحظة التى أتت فيها إلى هذه الدنيا وهجر أمها وذهب إلى أخرى عساها منجبته الولد ! !

أى رجل ! !

وبكيت ماحلا لى البكاء وقد آلم نفسى أن أحتفل بعيد ميلاد الصغيرة وأن يحضره « الغرباء » دون والدها ! !

والدها ! !

لقد مات وان كان لم يزل فى دنيا الأحياء ! أيها القـــدر ... هل أفجع الصغيرة باليتم وأحطم قلبها .. ! !

وانتبهت من أفكارى وأحلامى تلك على وقع خطوات بطيئة تسير على الدرج الرخامى فى الخارج . . فدق قلبي ومع دقاته المتعالية سمعت الباب يدق فى هدوء أسرعت معه لأرى الطارق . . .

أية مفاجأة انكشف عنها ظلام الليل الداكن . . . ودعوت الله ألا يكون حلماً ما أراه لأنى كنت أخشى يقظة أخرى رهيبة تبعده عني . . .

كان هو . . . زوجي . . . وقد عاد بعد تلك السنين الطوال . . . لم أعرف ماذا أقول له سوى أنى أفسحت له الطريق فسار إلى الداخل خافض الرأس ثم جلس متهالكا . . .

ونظر حواليه . . . كانت معالم الاحتفال مازالت باقية . . . شموع متقدة وزهور مبعثرة . . . وهز رأسه ثم قال فى صوت ماسمعته منه قط حتى فى أيام لقائنا الأول . . . عندما كان يسكب فى أذنى أعذب أحاديث الحب والحنان . . .

— أين الصغيرة ! !

وضحكت . . .

أية سخرية . . . وكدت أثور فى وجهه ولكن . . . فضلت أن أقضى عليه بسخريته وأن أمعن بوساطتها فى الانتقام منه فأجبته :

— من تقصد ؟ !

— ابنتي دون شك . . .

— ومتى تذكرت أن لك إبنة ؟ !

ورفع إلىّ وجهاً بدى الندم على صفحته ثم خفض عينيه وقال :

— يكفيك أن أعترف بأنى نلت أقسى جزاء . . . هل تصدقيني إذا أقسمت لك أن صورة الصغيرة لم تبرحني لحظة وأن صرختها المدوية حرمتني السعادة والهدوء ؟ !

ــ قصاص عادل

ــ ورهيب فى نفس الوقف . . . أين هى ؟!

ــ ياسيدى . . .

ــ ترى ماذا قلت لها عندما سألت عن أبيها ؟!

ــ عاشت يتيمة ياسيدى . . . بل أعترف لك أنها لم تفكر فى هذا السؤال . . . لقد كفيتها كل شىء فلم تعد بحاجة إليك

ــ وإذا أتيت طالباً عفوها أولا ثم . . . عفوك أنت . . .

ــ كيف أصدقك . .

ــ أقسم لك بحبها . . . بربك أين هى ؟!

وتخاذلت . . . لم أستطع الاستمرار فسرت أمامه إلى مخدعها . .

كانت متوسدة فراشها الناعم تداعبها أجمل الأحلام . . .

ووقفنا أمامها . . . وانحنى هو يتبين ملامحها فى حنان ماعرفته فيه . . .

وامتدت يده فأمسكت بيدى ثم رفعها فى عصبية إلى شفتيه وقبلها . . .

لقد بكيت ساعتها . . . وبكى هو أيضاً وسقطت حبت دموعنا على وجه الصغيرة فاستيقظت ورأت مشهداً لم تألفه . . .

رجل غريب لم تعرفه يقبل أمها . . . وضحكت يدفعها شعور مبهم ثم نظرت إليه فى سذاجة وقالت :

ــ هل عاد أبى يا أماه ليحتفل معنا بعيد ميلادى

ورفعها بين يديه وأمطرها بقبلاته وقد خنقته الدموع فلم يجب الصغيرة التى كانت الدهشة قد أثرت عليها فارتمت بين أحضانه

***

كانت تسير إلى الشرفة المطلة على الشارع القفر وقد راحت تناجى الليل من جديد . . .

« ياليل . . . لقد عادت لنا السعادة ، وكانت ظلمتك رسول البشر إلينا ياليل . . . تحدثت إليك منذ ليال وكنت أبكى وأما الآن . . . إن زوجى قد عاد ليكون لى وحدى . . . وأنه ليداعب الصغيرة وأنا أنصت إليهما والدنيا لاتسعنى من فرط سعادتى . . .

« ياليل ! ! أبينك وبين دموع الفرح صـــلة . . أم بينك وبين جلال الهوى صلات وصلات . . .

ياليل السعداء . . . ياليل . .



وكادت الفرحة أن تغلب السعادة فتصيح مصفقة لأن خيالها السحرى رفرف فى النهاية على بيت عصفت به عوادى الزمن ولكن . .

ولكن الأمل وقد لاحظ ذلك ضحك بدوره فأومضت الضحكة ورد لألاؤها إلى السعادة ثباتها فاعتدلت على عرشها ورفعت وجهها إليه تسأله عن قصته القادمة . . . .

وفى بطء ارتفع الستار عن . . . .

فليمنحك الله السعادة

كان الليل يودع آخر أنفاسه ساعة مقدم الفجر والأحلام الذهبية تراود النائمين فى القرية فى الوقت الذى كانت أشباح الفزع تتراقص داخل بيت صغير عند نهاية الطريق الزراعى فجثم الهول على قلب فتاة لم تتجاوز الأربعة عشر ربيعاً . . جلست إلى جانب أمها التى كانت تحتضر . . .

ثلاث أيام بلياليها وهى تقاسى الهول الذى تزايد فى ليلها هذه حتى خيل اليها أنها ترى أشباح غريبة تحوطها متنهزة غفلة منها لتختطف أمها . . . ومدت الأم يدها الضامرة فالتقت بيد ابنتها البضة التى رفعت عينيها المسبلتين ناظرة إلى أمها نظرة عرفت فيها كل شىء فثارت أفكارها واضطربت أحلامها ودهمها الأسى ولم تنتبه الا على صوت الأم وهى تقول :

ــ يا ابنتى . . . .

وسكتت . . . وتلاشى الصدى الخافت فى فضاء الغرفة الكئيب مستقراً فى أذن الفتاة فكان له وقع مطارق القدر تهوى منذرة بفراق أبدى . . .وقالت الابنة :

ــ استريحى يا أماه . . . فالليل موشك على الرحيل . . . ويجب أن تنامى . .

ــ نعم . . . سأنام وأستريح . . . ولكنى لا أريد . . .

ــ ولم ؟!

ــ لأنى لن أستيقظ ثانية . . . أننى أموت . . . ولا أريد الموت من أجلك

ــ لا تقولى مثل هذا القول يا أماه . . .

وامتلأت عينا الأم بالدموع وراحت تقول :

— وسأتركك فى دنيا ليس لك فيها غير الله ... لا أهل ولا مال ... ياصغيرتى المسكينة ... أود لو أستطيع أن أحول بينك والأقدار .. سأموت ياحبيبتى وشد ما يحزننى أن سعادتى التى طالما رجوتها لم تتحقق ... كنت أحلم برؤياك فى بيت رجل يحبك ... ولكن لم يبق لى من أمل الا أن أرجو الله متوسلة أن يمنحك السعادة ...

وتولتها غاشية الموت فغابت عن حسها ... وألقت الابنة بنفسها على صدر الأم ولم تستطع حبس سيل الدمع المنهمر ... ومن خلال شهقاتها وعويلها وصل إلى سمعها صدى دعاء أمها الأخير « فليمنحك الله السعادة ياحبيبتى » ...

***

لم يمض أسبوع واحد على وفاة الأم حتى كانت ابنتها « خديجة » فى القاهرة مع عمها اسماعيل بك الذى أخـــذها لتعيش مع أسرته ... شاعت السعادة فى قلبها الحزين وهى ترى هذه الحياة المتدفقة فى قلب العاصمة وراحت تحدث نفسها « لقد استجاب الله دعاء أمى وانى لأرى السعادة التى طلبتها لى ... »

وعندما انفردت بنفسها فى الغرفة التى خصصت لها كان قلبها يدق دون أن تدرى أكانت دقات الفرح أم الرهبة وأخذت تسائل نفسها عن النعيم والجنة والسعادة ... وهل تفترق عما تراه حواليها من مظاهر ثراء فخم ورياش عظيم وقصر رائع وخدم ووصيفات ؟ !

وجرى الخيال بالفتاة الساذجة إلى الحد الذى انحنت فيه باللائمة على أمها لأنها طلبت لهـا من الله السعادة فقط ولم ترجو الله أن تكون هى مالـــكة هذه السعادة ! !

وعلى هذه الوتيرة سارت حيـاة خديجة فى بيت عمها وراحت تتغير مع الظروف ... كان قلبها يدق وتسود وجهها حمرة الخجل عندما تتلاقى عيناهـا

بعينيه . . . بعيني ابن عمها « كامل » الذى كان يدرس الطب فى الجامعة . . . وبدأ كامل يختلس النظرات إلى هـذه الساذجة التى توفرت على خدمة والدته وتلبية بعض مطالبه . . .

كان لها وجه ينطق بجمال فاتن . . . كل ما فيه يجبر على الاعجاب . . . عينان شديدتا العمق فى أغوارهما السحر والغموض . . . فم عقيقى صغير . . بشرة بيضاء . . وداعة وروعة . . . أما جسدها فكان قافية مضطربة من شعر ثائر . . . عالية الصدر فى كبرياء أميرة . . . طويلة القامة . . ينسدل شعرها الأسود الطويل على ظهرها ضفائر تضمها أشرطة

وبدأ « كامل » يقضى جل أوقاته فى منزله كى يشبع ناظريه من مناهل الفتنة الحية . . .

وأحست « خديجة » بشعور غامض جعل الخوف يملأ كيانها فيهزه هـزاً عنيفاً وراحت تفـكر والدهشة تعبث بها متسائلة عن سر هـذا الاحساس الذى غمر منها النفس والقلب والروح والعاطفة . . .

ما هذا الذى تحسه ؟ !

إنه مزيج من الفرح والغبطة واللذة . . . إنه رغبة فياضة تدفع الروح الى تصور عوالم نورانية . . . بل انه الاحساس المتناقض الذى يطرق قلوب الشباب فى مثل هذه السن المبكرة . . .

أوه . . . أيها السر الأبدى الغموض . . . لخير لك أن تفنى فى ظلام القلب دون أن تر النور أو يسمع أحد صوتك الخفاق . . .

يا للمعجزة . . ؟ ! أيمكن هذا . . . وكيف . . . وحتى لو كانت خديجة تؤمن بالمعجزات فهل لهذه المعجزة أن تتعدى الفوارق البشرية ؟ !

هناك سد فظيع بين الاثنين . . . بحر صخاب لا شاطىء له يفصل بين عاطفتها وإحساسه . . . إنها . . . إنها ليست أكثر من يتيمة معدمة ، وهو . . .

وإذا ما وصل تفكيرها إلى هذه الناحية طغى الحزن عليها وازدادت دقات قلبها . . . وأخيراً وجدت أن من الخير لها أن تقنع بما تسعد به من لحظات دون أن تجهد نفسها فى التفكير . . وإلا أفقدها سعادتها وألقى بها من شاهق أحلامها إلى دنيا الواقع الأليم . . .

لم يتعد حديثهما بضع كلمات تستلزمها المناسبات . . كانت الأعين تتلاقى خلالها حاملة أعمق المعانى وأكثرها غموضاً . . كان ينظر إليها وكلمة مبهمة تتراقص على شفتيه دون أن ينطق بها ولكنها . . . وفى كل مرة كانت تصل إلى قلب « خديجة » فتهزه وتزيد خفقاته الحرى . . . لماذا لا يتكلم ؟!

ظل هذا السؤال شاغلها . . . حقاً لماذا لا يتكلم ؟ !

وسقطت من جيبه ذات مرة إحدى « الصور » العديدة التى تزدحم بأمثالها « محافظ » الشباب والتى يكثرون النظر اليها فى الأماكن العامة ليثيروا انتباه الناس كى ينظروا اليهم على أنهم أنصاف آلهة . . . عثرت على هذه الصورة فى غرفة ابن عمها وهى ترتبها . . فأمسكت بها بين يديها وقد أحست بلهيب الغيرة ينتشر فى جسدها . . . من هذه ؟ ! ومن تكون ؟ !

أنها تشبه الصور التى تراها فى الجرائد وليس فيها غير تكلفها فى الملبس والزى . . .

وراحت تقارن نفسها بتلك الفتاة صاحبة الصورة . . ياللمسكينة إنها لا تستطيع أن تحاكى هذه الدخيلة فى إناقتها المتصنعة .. ولذا فستفقد قلب « كامل » الذى ستظل نظرته إليها نظرة الفتى الرشيق المتعلم لقروية ساذجة . . .

ووضعت الصورة مكانها ثم غادرت الحجرة ، وشتى الأفكار تتزاحم فى رأسها حتى أنها لم تسمع نداءات زوجة عمها المتكررة وهى تدعوها إلى ارتداء ثوبها الجديد لإصطحابها إلى الخارج

ووقفت عديلة هانم تصلح هندام « خديجة » وتزينها وعلى وجهها نظرة إعجاب ودهشة جعلت الفتاة تنظر بدورها إلى خيالها فى المرآة . . .

يا الله ما هذا ؟ ! من هذه التى تراها ؟ ! إنها تكاد تفوق غريمتها المجهولة التى وضعت صورتها منذ لحظات فى غرفة كامل . . .

*
* *

وعاد كامل فى مساء تلك الليلة ليجد البيت وجد ساده الصمت . . . ماذا هناك ؟ انه لم يشعر سوى هذه المرة بتغيب أمه ! ! أمه فقط ؟ ! لا . . . هناك حياة أخرى كانت تتردد فى كل مكان ! ! ظل فى ظلال السعادة كان يخيم عليه . . . إذاً ؟ فهو يحب . . أجل يحبها . . يحب خديجة الساذجة التى جعلته غيبتها القصيرة يسير فى البيت كالضال وسط صحراء من التيه والغموض

وهاجمته وقد انفرد فى غرفته صورة طاغية للفتاة صغيرة بوجهها الفاتن الذى تضاربت على صفحته شتى الأحاسيس . . فتولته حيرة لم يستطع تفسيرها . . . كان يكذب نفسه مرة ويقنعها باستحالة الواقع مرة أخرى . . .

ولكن . . . هذه القروية الساذجة التى يميزها جمال بكر . . . هل تستطيع ان تفهمه . . أنها لا يمكن أن تكون سيدة مجتمع يظهر معها فى كل مكان ، ولن تكون موضع فخر له ، ولن تكون يوماً مثل « آمال » التى تصر أمه على أن تزوجه بها لأن أباها ثرى ويحمل لمباً عالياً . . ولا يمكن أن تكون مثل « إحسان واصف » زميلته فى البكلية . . . ولا يمكن أن تكون مثل نعمات كريمة الاميرلاى عبد الحميد بك ولا يمكن أن تكون . . .

وانتبه من أحلامه على صوت هامس ملأت رناته الموسيقية الحنون نفسه سعادة وفرحة . . . ورفع إليها بصره وقد انتشى بسحر الصوت ليراها هى . . هى ! !

ووقف أمامها مأخوذاً .. إذ بدت كدمية صغيرة تفنن صانعها فى اضفاء أسمى معانى الجمال عليها ، وأحست « خديجة » بما كان يجول برأس ابن عمها فؤاد وجهها توردا وأغمضت عينيها وخفضت رأسها الصغير وكادت وهى فى ذهولها أن تسأله « أترانى أشبه صاحبة الصورة التى سقطت منك اليوم ؟ » .

لكنها ملكت عواطفها ورفعت وجهها ثانية وقالت له :

— متى أتيت ؟

— منذ ساعة

— أوه ... تأخرنا كثيراً

— ليس إلى هذا الحد ... أين كنتما ؟

— فى زيارة إحدى صديقات والدتك وقد أصرت على استبقائنا وقتاً طويلا ... كانت تلك أول مرة أراها فيها ومع هذا فقد كادت تلتهمنى بعينين ناريتين .. ولها ابنتان ! أوه يا كامل أتذكر الدمى الطينية التى طالما لعب الصغار بها وألبسوها مزركش الثياب ؟

— ما اسم هذه السيدة ؟

— فكرية هانم ... تعرفها ؟ طبعاً .. إنها لم ترتح إلى وجودى فى بيتها وربما هنا أيضاً ...

— والسبب ؟ !

— لعلها ... أقصد ...

— آه فهمت ... تقصدين ابنتيها ؟ لا تظنى هذا ..

— ولكنى أؤكد لك أنها وابنتيها كن ينظرن إلىّ نظرات غريبة حتى خشيت أن يكون هناك مايوجب انتقادى .. أنها أول مرة أبدو فيها فى مثل هذه الملابس ..

ــ أنك فاتنة ياديدى ، ومن يراك يحكم لأول وهلة . . .

وقاطعته بنظرة صامتة من خلال عينين ضاحكتين ثم جذبته من يده إلى حيث كانت تنتظرهما والدته للعشاء . . .

***

كانت الساعة تدق اثنتى عشر دقة عندما انتبهت ديدى من ذهولها وتذكرت أنها تركت غرفتها مضاءة طوال هذه المدة ، فقد كانت سابحة فى أفكارها . .

فيم كانت تفكر ؟ لقد شغلتها صورته . . . صورة كامل . . . وزاحمت صورته صور أخرى عديدة لوجوه خيالية . . . فتيات عديدات من طبقته ! لا بل هذه الفتاة التى رأت صورتها صباح اليوم . . .

وأطفأت المصباح ومع الظلمة التى سادت غرفتها تولاها هدوء شعرت خلال لحظاته بالسعادة الطاغية تغمرها . . . وعادت بها أفكارها إلى القرية وذكرى أيامها فى بيتهم الصغير الذى كانت تعيش فيه مع أمها وحيدتين . . أنها الآن فيما يشبه الفردوس . . . تحيا وسط مظاهر من الثراء والترف . . وبين جنبيها قلب استيقظ من غفوته وراح يطالب بحقه الذى أورثته إياه الطبيعة . . .

« ياخيالات الحب الذهبية إن صورك العاتية عندما تطوف بالأخيلة المستسلمة للسحر الجائر . . . فانما ترتفع بالروح إلى عالم ملائكى تسيطرين فيه على الكائنات حيث تسود شريعة الهوى . . ! إنك لقاسية إذ تسلبين هذه الساذجة هدوءها وتحملقين بها فى أجواء ماوكرت روحها أن تطوف بها ! ! »

وجرى الخيال الضاحك بالسعيدة الآملة أشواطاً بعيدة وتجردت فيها من تخيل الواقع وقنعت بالأباطيل وقد أبدع ظلام الغرفة تصويرها أمام عينيها المغلقتين . . . ورنت فى جوانب نفسها أصداء ضحكات القدر ورنات سعادة

الدنيا .. وتكاثف الظلام واستبدت الأفكار وتراخت الفاتنة ولم تلبث أن دهمها النوم فضمها الفراش بين أحضانه ليسلمها إلى عذب الأحلام ....

وهو !!

لقد كان مجرد تغيبها بضع لحظات يشغل خواطره فلما عادت كفلت رؤياها ا..لال تفكيره ... أنها لتحاكى ملاكا ساذجا تحوطه الطهارة وترعاه ... إنها : كثر من جميلة ! وأبدع من فاتنة ! إنها .. أوه ياللفكر الكليل لايستطيع أن يحد أوصافها فى إطار من روائع الأحلام !!

وانطبعت صورتها فى مخيلته وازدادت عمقاً حتى لقد محت أشباه الصور التى شغلته أحياناً ... أنها الآن وحدها ... هى الكائن الحىّ ومن عداها أشباح بددتها فتنتها ...

ونسى شتى الأسماء التى طالما أحبها وناجاها ورددها هامساً بينه وبين نفسه وما عاد يفكر فى غير خديجة .. وراح يسائل نفسه . أتراها تحس وتشعر بما يكنه نحوها ... أتحس بأن هناك قلباً تتزايد خفقاته لرؤياها ... وأنه يحتفظ فى حناياه بسر لايود البوح به ...

إنه يخشى أن يصارحها ... فمن يدرى بأحلامها ..

وامتلأت غرفتـــه بسحرها القاهر ... فأغمض عينيه وأسلم نفسه إلى الأطياف الراقصة لتسبح روحه فى سماء الأحلام وتلتقى بروحها ..

***

ومرت الأيام .. وغابت الليالى فى ضمير الزمن .. واستبد بالحب هواه بينما أسلمت هى نفسها إلى الأحلام وقنعت بالأخيلة ... ودفن هو سره فى

أعماق عينيه بينما كان سرها هي يتراقص حديثاً شهياً على شفتيها اللتين انطبقتا ولم ترضيا بالبوح به . . .

وغلبته نفسه فغلبها إذ ما جدوى الصمت ! أيجعل هـــذه الجوهرة الثمينة تفلت من يده بعد أن تحولت إليها أنظار معارف الأسرة وبدأ يسمع بأذنيه أن أكثر من سيدة لمحت برغبتها فى خطوبتها لأحد أبنائها !

كان يخشى أن تنهار أحلامه . . . وتكون خديجة لرجل سواه . . .

***

وحدثته ذات مساء وهما منفردين فوجد الفرصة سانحة . . أمسك بيدهـا فتراجعت وتضرج وجهها بحمرة الخوف والرهبة ولـكنها ظلت مكانها جامدة إذ كادت تصهرها النيران المنبعثة من كل شيء فيه . . . وأطال النظر الى شفتيها العقيقتين كمن يرجوهما أن تنفرجا عن السر الذى أغلقتا عليه وتعالى الصدران فى قوة وساد المكان هدوء غريب وانساب صوته راجفاً يسألها :

ـــ ما بك ؟

ـــ بى أنا ؟ لا شيء . . .

ـــ تكذبين !

ـــ أكذب !! إنى لا أفهمك

ـــ بل تفهمينى تماماً . . . فى نفسك حـديث تخفينه عنى . . . لقد سمعت صداه يرن فى صدرك . . . أتركيه ينطلق هذا السر الحبيس . .

ـــ أى سر تعنى . . .

ـــ سر نحاول كتمانه ، ولـكنا فاشلين . .

ـــ وهل تجدى لغة الكلام يا كامل . .

ـــ إذاً . . . أنت أيضاً تحبيننى . . ؟ !

— صه . . . لا تكمل . . . لا أريد أن أسمع كلمة الحب هـــذه . . أنى أخشى أن تذيب حرارتها الصمت الذى أسلمت نفسى إليه فدعنى . . . دعنى أنعم بخيالاتى فى الوحدة ولا تسلبنى هـدوءاً أتعشقه . . . ويل لنفسى مما أحسنه . . وويل لهذا الاحساس من قسوة الواقع

— وكنت تغالبين . . !!

— لم أرض التصريح بما أحسسته الا لنفسى . . . كنت أحدثها عنك طويلا فتردنى . . . تصور لى استحالة الجمع بينى وبينك . . .

— كفى . . كفى . . لا تستمرى فى هـذا الحديث الجنونى . . والآن وقد تكلمت فما أسعدنى . . . أنك لا تعلمين كم كنت أخاف التحدث اليك بما أكنه لك من حب

— وأنا أيضاً كنت أخافك . . . كنت أرى نفسى مخلوقة لا يجب أن تتطاول اليك . . وذات مرة عثرت على . . . اغفـر لى فضولى . . . عثرت على صورة صغيرة . . .

— أوه . . . دعى الماضى . . . والآن أقسم لك . . .

ولم يكمل حديثه إذ تضاغطت أيديهما وبدت العاطفـــة واضحة فى أغوار العيون . . ثم لم تلبث الشفاه أن تبادلت الرسالة المقدسة وكانت قبلة ما أحسا بمرور الزمن فيها بل تركاه يتكسر فى مسيره على أقدامهما وهما فى غمرة من السعادة والهدوء فى ظل الهوى الثائر . .

***

وظنت خديجة أن سعادة الدنيا قد ركزت فى روحها التى كان الحب يغذيها الأمل والأمانى ولكن . . .

لقد بدأت ألسنة بعض الخدم فى البيت تردد هامسة قصة العلاقة التى جمعت بين كامل وابنة عمه . . . ثم يهز المتحدثون رؤوسهم إشفاقا لهذه الفتاة التى سوف تستيقظ على حقيقة مروعة . . .

مرت الأيام يظللها الحب ويرعاها الهوى إلى أن بدت الحقيقة واضحة أمام الجميع . . فقد بدأت الثمرة تنضج ولم تعد هناك فائدة من الكتمان . . .

وثارت ثائرة اسماعيل بك وزوجته على « خديجة » ثم . . . ثم نطق بالحكم الرهيب . . . وهو طرد الضحية خارج بيته . . . إلى أين ؟!

وحاول « كامل » أن يوضح لوالده أنها بريئة وأنه وحده المسئول عما حدث ولكن دون جدوى . . . وصرخ فيه والده :

— إنك غر أبله جاهل لا يمكن ان تفهم الحيلة البارعة التى نصبتها لك هذه اللعينة . . . لقد كان جزائى بعد أن آويتها وثقفتها وأحسنت اليها أن تعمل للحصول عليك ظناً منها انها بهذه الطريقة تضعنى أمام الأمر الواقع فأزوجك بها . . . أزوجك من معدمة فقيرة لم يترك لها أبوها ما تعيش به . . .

— ولم لا أتزوجها يا أبى . . .

فصاح فيه والده كالمجنون :

— تتزوجها . . . ماذا تقول . . . أعد ما سمعت ؟

— نعم . . لم لا أتزوجها . . ألست شريكها فى الجرم ، ويجب أن أنال نفس العقاب . . . أنك تأمر بطردها خارج البيت . . أين تذهب هذه المسكينة . . . سنخرج معاً إذا شئت . . .

وتقدمت الأم وضغطت على يد الوالد كى تخفف من حدته وراحت تقول لولدها :

— كامل . . . تعقل ياولدى . . . لقد أتينا بهذه الأفاقة من عرض الشارع ومن حقنا الآن وبعد ما حدث أن نرسلها ثانية إلى حيث أتينا بها . . .

وثار كامل مرة ثانيـــة على والدته . . . وفاض بالفتاة حزنها وازدحمت الدموع فى عينيها وغلبها الأسى فلم تستطع المقاومة وأحست بأن من حقهـا أن تثور على هذه الوحوش المحيطة بها ولـكن . . . كيف تعان هذه الثورة . . . ووجدت نفسها تقول متوسلة لـكامل :

— أرجوك يا كامل . . . لا تغضب والديك من أجلى ، يجب أن أتحمل أنا تبعة هذا الجرم . . . عندما تفـكر فى أن تتبعنى فأنا أول من يرميك بالجنون إنك لم تتم دراستك بعد ، فـكيف تضحى بمستقبلك . . أنا نفسى لا أعلم إلى أين أستطيع الذهـاب . . . أبق حيث أنت وأغفر لى هذه الحوادث التى كادت تعصف بكم بسببى . . .

وفى مساء اليوم نفسه وبينما كان كامل جالساً فى غرفتـه مع صديق له ، جمعت الأم ثياب خديجة وأعطتها بعض النقود وطلبت منها مغادرة البيت . . . .

***

غادرت « خديجة » البيت الفخم والليل شـديد الظلام وسـارت فى الطريق القفر الذى لم يلبث أن غيبها فى فضـائه مع الضالات من أمثالها . . لم تفـكر فى أن تنظر خلفها لتودع مسرح هواها . . . بل سارت صامتة كمن يتبع جناز عزيز . . . ودمعة حارة قلقة تهتز مضطربة بين أهدابها . . . وظلت فى مسيرها وصور الحوادث تتتابع أمامها حتى تذكرت كلمات أمها وهى تحتضر « ليمنحك الله السعادة » وهنا لم تستطع حبس سيل الدمع المنهمر . . . .

***

من يوميات خديجه العزبى

« أسبوع مضى منذ تركت بيت عمى اسماعيل بك . . . أسبوع بأيامه ولياليه . . . أيام سوداء وليال عاصفة ! ! أيام ماتت « خديجه » خلال ساعاتها المملة وبعثت الليالى مكانها « نادية ! ! »

ظللت طوال تلك الليلة المشئومة أجوب الطرقات وعيناى شاردتان حتى خيل لذئاب البشر أنى أبحث عن فريسة ! ولفت نظرى فندق ولجته فصعدنى صاحبه بنظرة تسيل خبثاً وخديعة . . . وطلبت منه أن يأجر لى إحدى الغرف حتى الصباح . فسألنى : « لك وحدك ؟ »

لم أجبه . . فسكت على مضض وتقدمنى نحو غرفة صغيرة ما أن دخلتها حتى دارت الأرض تحت قدمىّ ، وألقيت بنفسى على الفراش وأنا أحس رغبة جارفة فى البكاء ! !

وفى الصباح كان وجه صاحب الفندق أول ماطالعنى . . . ياللحيوان ! تركته وخرجت أهيم فى الطرقات أبحث عن مسكن محاذرة ألا يرانى أحد ممن عرفونى خلال إقامتى فى بيت عمى . . . وعند الظهر عثرت على غرفة أنيقة ضمن مسكن سيدة سورية عجوز قبلت أن تؤجرها لى على أن أدفع أربعة جنيهات شهرياً . . . لم أرهق نفسى بالتفكير فى هذا المبلغ ولا من أين أحصل عليه إذ كانت لدىّ بعض النقود والحلىّ . . وما أن تم اتفاقى مع المرأة حتى أسرعت إلى الفندق فنقدت الرجل ماطلب ، وتركته والحيرة مرتسمة على وجهه . . .

ومرت الأيام وقد اعتدت الخروج لأروح عن نفسى فألفت تكرار منظر واحد طوال الليالى . . . هؤلاء الرجال وزملاؤهم العجائز والشبان . . .

ليس من عمل هؤلاء جميعاً إذاً ما أتى الليل إلا سكب المديح والاطراء فى آذان المارات فى الطريق . . .

واليوم . . . بل الليلة . . . إن القاهرة لتبدو كتلة متأججة من النور . . . تسود اليقظة أحياءها وتتردد فى جنباتها أصداء ضحكات الثملين وغيرهم . . .

ووسط هذا المحيط الصاخب بمن فيه دفعت نفسى . . ما أجمل أن يتخيل الانسان نفسه سعيداً . . . وقفت أنظر إلى وجهى فى المرآة فعرفت سر النظرات القوية التى طالما تفحصتنى ، فرفعت رأسى فى كبرياء وأخذت طريقى وسط الزحام . . .

إن رهبة المقدم على مغامرة لا يعرف نهايتها ، تتعادل ورهبة من يقوده الشيطان إلى طريق الشر . . . إنى أعترف هنا بينى وبين نفسى أنى سمعت صوتاً سحرياً يهمس فى أذنى همسات غريبة ، ويد خفية تقودنى إلى مكان لا أعلمه وكأن بالصوت يقول لى :

« هذه هى السعادة الحقة التى تمنتها لك أمك . . إنها فى وحدتك ، وحريتك التى لا يحدها أفق ، فى هذه الأضواء التى تبعث فيك حياة خالدة . . . فى ترامى الرجال عند قدميك . . . فى بحور من الزخرف تغرقين بين طياتها . . . هذه هى السعادة ! !

وغمرنى إحساس لم أعرفه . . أكان سعادة أم كبرياء ولكن يبدو لى أنه مزيج من الشعورين . . وكيف لا وقد كنت مثار الفتنة حيثما سرت !

وعند منعطف مظلم توقفت سيارة فخمة ، وأطل منها رأس شاع المشيب فى مناحيه ، وإذا بى أواجه رجلا اعادت صورته خيال عمى إلى ذاكرتى . . .

ودعانى برقة لمرافقته فى نزهته . . . ياللجرأة . . . ولكن . . إن الصوت السحرى الذى كان يهمس فى أذنى مصوراً السعادة . . . عاد مرة أخرى إلى

تكرار ما قال . . . ولم تمض لحظة حتى طرأت فى خيالى فكرة شريرة ... لقد ألقى بى إلى عرض الطريق عجوز لعين مثل هذا الذى أراه . . . فلم لا أرد إليه جميلا أسداه الى آخر يقاربه سناً ؟ !

أنا مرهقة . . . تعبة . . . ولا أستطيع هنا أن أكمل ماحدث سوى أن الكأس لامست شفتى لأول مرة ، وأن العصير الذى شربتـه سرى فى دمى وجعل كل ماحولى يتراقص رقصات ثائرة . . .

أجلس الآن فى غرفتى الهادئة أستعيد ما كان . . لقد سكب الرجل فى أذنى أرق الأحاديث . . . أحاديث أظن أن الليالى الثملة هى التى اعتادت أن توحيها لأمثاله . . .

لقد حاول عبثاً أن يعرف من أنا وأبوح له بسرى ودون جدوى . . . وأخيراً رضى أن أعده بقبون صداقته وألا ألجأ لسواه إذا ما كنت فى حاجة لمساعدة ما . . . ما أرق قلبه ! !

أوه . . . إن جدران الغرفة الصغيرة تتراقص ، ويخيل إلىّ أنى أسمع موسيقى داوية . . . كل ماحولى يهتز فى جنون . . . رأسى يدور . . القلم يسقط من يدى . . .

***

٢٢ مارس

غريب أن تمر هذه المدة الطويلة دون أن أخط حرفاً واحداً . . أية فترات قاسية مرت وكدت خلالها أن أفارق هذه الحياة ! !

مر شهر على انتقالى إلى هذا المسكن الفخم تحت رعاية صديقى ناظم بك كنت خلاله فريسة حمى تلت عملية الإجهاض التى أجريت لى . . واليوم . . .

واليوم فقط صحبني ناظم إلى « شبردز » حيث قضينا وقتاً طويلا في « التراس » وما أن انتصف النهار حتى ذهبنا بالسيارة إلى أرض المعرض لنشهد « عيد الربيع » الذى أقامه هواة الزهور من أصحاب البساتين . . .

إن السعادة في رؤية ما يبعث الهدوء إلى النفس وأنا أحب الأزاهير والورود، فلذا أحسست سعادة طارئة تغمرني . . وسرت الحيوية في جسدي ، ولم أعد أذكر أني كنت فريسة مرض كان يقضى عليّ . . .

أما ناظم فاني أرى فيه كل شيء لى . . . لقد ملأ فراغ حياتى ولم يجعلنى أحس الوحدة فى دنيا ليس لى فيها أهل ولا أصحاب . . .

لقد حاول أكثر من مرة أن يعرف أى شيء عنى ولكنى لم أمكنه . . . ماذا يهمه لو عرف قصة حياتى المؤلمة . . . انه يتألم كثيراً إذا أبصر بى مطرقة أفكر . . فيخيل إليه أنى أستعيد ذكرى المأساة التى كدت أذهب ضحية نقيجتها . . . أو انى أفكر فى رجلى المحبوب الذى أرغمتنى الظروف على هجره . . وأنه شاب فى مثل سنى أنا لا رجل مثله فى سن أبى أو يزيد . . .

إننا معشر النساء لاننشد السعادة إلا بين جدران بيت هادىء وديع حيث تلبى مطالبنا وتجاب لنا كل رغبة . . ولقد كفل ناظم كل شيء لى . . . أثث مسكناً فخماً باسمى وأسكنني أرقى أحياء العاصمة وأحاطنى بحنانه ودعته وحبه وعطفه و . . . . . كل المظاهر الفخمة التى جعلتنى أفنى فى حب الواقع والرضاء به . . .

وبعد أن انتهينا من التجوال فى « عيد الربيع » وكان الليل قد بدأ ينشر سكينته وظلامه على الدنيا صحبنى إلى « مينا هاوس » حيث نعمنا بجلسة شاعرية حنون استمعت فيها إلى الموسيقى التى جعلت جواً من الهدوء يظلل عليّ . . .

الموسيقى !! أنني أتكلم الآن عن الموسيقى !! أتكلم عن شوبان وستراوتز وبتهوفن وأفضل تانجو « كاريس » على فالس « أغنية الزورق الخيالى » . . . ن كان يصدق هذا ؟!

* * *

أنني أكتب الآن بعد عودتي مع ناظم إلى مسكني . . . لقد عاد هو إلى بيته عند منتصف الليل فلم أجد أنا سوى تدوين هذه الخواطر . . . وصيفتى السورية تنظر إلىّ والدهشة تبدو على وجهها حتى ليخيل إلىّ انها ستجبرنى بعد قليل على ترك الكتابة لأريح بدنى . . .

أنها تقترب منى . . . وهاهى ذى تهمس فى أذنى أن موعد النوم قد حان . . .

* * *

١٤ يوليو

لست أعزو امتناعى عن الكتابة هذه المدة الطويلة إلى خمول الصيف بل إلى . . . إلى أى شىء ؟! إلى خمول العاطفة وركودها . . . من قال أن السعادة فى الهدوء والاستقرار ؟!

أننا حينما نظن أن فى استقرارنا أى نوع من أنواع السعادة فانما نجرم فى حق شبابنا . . .

ليخيل إلىّ أن دمى أصبح كمياه المستنقعات الآسنة وانى فقدت نضارة شبابى وحيويتى الفائرة . . . بل يخيل إلىّ ماهو أقسى من هذا . . . يخيل إلىّ انى تقدمت فى السن عشرات الأعوام وأن عدوى « الكِبَر » قد أصابنى عن طريق ناظم !!

أعصابى ثائرة وأحس بالتمرد على كل شىء . . .

كنت أجلس منــذ لحظات مع ناظم فى « كازينو سان ستيفانو » نشاهد « الاتراكسيون » فى عيد ١٤ يوليو فاذا بالأنظار جميعها تتجه نحوى . . كانوا ينظرون إلى مشفقين . لأنى قضيت الساعات الطوال إلى جانب عجوز لم يفعل أكثر من تصفيقه الطويل أو إبداء إعجابه بشىء فيميل ناحيتى ليهمس فى أذنى . .

« ياشبابى الذى كدت أفقده . . . أليس من حقى أن أتمتع بك ؟ »

كانت الفتيات يملأن الحلبــة وقد استسلمن إلى السواعد الفتية . . . كن يضحكن مرحات . . . كانت السعادة تنتقل معهن فى كل مكان فى حين كنت جالسة أنظر إليهن كالدمية التى لاتحس ولا تتحرك . . .

لا . . . هذا لون راكد لا أحبه . . . لون باهت يبعث الضيق إلى الصدر . . يجب أن أعيش مثل هؤلاء . . وان أنشق الهواء الطلق . . . أن أتمتع بالحرية . . أن أسعد بشبابى . . .

يجب . . .

يجب . . .

يجب أن أبحث عن السعادة . . . !!

***

أربعة أعوام مرت على تلك الحوادث السابقة نسيت القــرية خلالها « خديجة » كما نسيها عمها القاسى وولده الذى أصبح يشغل مركزاً محترماً فى الحياة . . . أربعة مرت حاول ناظم بك خلالها أن ينس « نادية » صديقته وقد تركته لتحترف الرقص فى إحدى « علب الليل » وقد أعطت نفسها اسماً ثالثاً . . « تيتى » . . .

وأحاطت بها فى حياتها الصاخبة التى تخيرتها كل مظاهر السعادة والنعيم ووقف المجد يابها مع جماهير ولكن . . .

ولكن ضمير التعسة كان يستيقظ وهى نشوى . . . فيعود بها الفكر إلى ذكرى أمها . . . كان يخيل إليها أنها تراها . . . تراها فى أكفانها البيضاء وقد بعثت حية . . . تراها أمها تؤنبها وقد أخفت وجهها خجلا وخزياً . . . وكأنها تقول لها : « لِمَ فعلت هذا يا ابنتى ؟! » . . .

كثيرون عرضوا عليها أن تقبل أحدهم زوجاً ولكنها كانت ترفض . . إنها لاتعرف إلى أى قدر يسوقها حب جديد لرجل جديد بعد رجلها الأول . . .

رجلها الأول !!

ورأته ذات ليلة . . . كان مع بعض أصحابه وقد أتوا لقضاء بعض الوقت فى الصالة التى تعمل بها . . . انه هو . . لم يتغير ولكنه امتلأ بعض الشىء . . .

وأحست بجسدها يرتجف لرؤيته . . لرؤية ابن عمها الدكتور كامل العزبى . . الشاب الذى علمها الحب وحرك قلبها من سباته العميق . .

وتلاقت نظراتهما فخفضت رأسها وحاولت الهرب ولكنه تبعها . . أمسك يدها فى جرأة أذهلت أصحابه الذين ماعرفوا أنه من مرتادى هذه الأماكن . .

وسارا إلى ركن بعيد . . . أى صمت قاتل !! ورفعت وجهها إليه فأبصرت دمعة عز عليها أن تنسكب . . . واستعادت « تيتى » رباطة جأشها وأرادت أن تكذب إلى النهاية فأرسلت ضحكة متحشرجة ماجنـــة وربتت على كتف كامل وقالت :

— ماذا ياسيدى . .

— أهى أنت ؟!

— ماذا بك ؟

ـ أهي أنت ؟ يالشقاء الدنيا وهي تقسو على الملائكة... أى خيال رهيب أراه الآن أمام عيني...

-- سيدي...

ـ لم فعلت هذا...

ـ هل أفرط سيدي في الشراب ؟

ـ معذرة... أنك لست هي.. ومن الخير ألا تكوينها كان لها صوت فيه تراتيل الملائكة.. وجهها هو وجهك ولكنه تنمّر وأصبح غريباً بالنسبة إليّ... لاتضحكي.. إن ضحكتك الساخرة هذه.. أقسى عليّ من مطارق القدر وقد زعزعت نهاي وحطمتني...

ـ ماذا تقول ياسيدي ؟

ـ خديجة !!

ـ من تكون خديجة هذه.. أنا تيتي الراقصة الأولى في الصالة

ـ لاتبالغي في انتقامك.. أعرف أنك مازلت تحقدين عليّ... ولكن. لي رجاء عندك... أريد أن ألقاك وحيدة في مكان آخر... وداعاً الآن...

***

وبينما كان كامل مستلماً لأفكاره طرق خادمه الباب وسلمه رسالة فضها وهو في دهشة فقرأ :

« كامل

لا تتسرع فتقرأ آخر الرسالة قبل أولها لتعرف الراسل... انه أنا... أنا الثائرة الصغيرة التي تمردت على كل شيء حتى على اسمها واسم أسرتها... أجل تمردت عليه ونسيته.. نسيته من أجلك أنت يا كامل. كي لا يقال

انها كانت فى يوم من الأيام ابنة عمك وأنها عبثت باسمكم الكريم وجعلته مضغة فى أفواه تجار الفضائح والأكاذيب.

أنه أنا التى تكتب لك فهل فى ذلك ما يثير الدهشة ؟ أكثر من أربع سنوات مرت يا كامل تعلمت فيها الحياة وعلمتُها ما كنت أريد.. وأجبرت الكثيرين على أن يتبعوا سننا أردتها !! لا تعجب فتلك شريعة الحياة ... تظلمنا المقادير فنطأطىء الرؤوس ثم نتغالى نحن فى ظلم المقادير ومن يعيشون تحت رحمتها !!. وانا لنشعر وقتها بنوع من سعادة تبدو فى أنظاركم غريبة ولكنها على أية حال نشوة الظافرين..

لا يمكنك يا كامل أن تفهم حقيقة شعورى وسيزداد بك العجب عندما تصور لنفسك أبنة عمك الساذجة خديجة وهى تؤكد لك هذه الأقوال... ظلمتنى الليالى الطويلة فانتقمت منها... كنت أقضى نهارى ضالة شاردة الذهن أسأل عينى أن تجودا بدمعة تخفف كربتى ولا فائدة فاذا ما أقبل الليل كنت أنتقم للنهار... كنت أتلذذ وأسعد وأنا أثير حيوانات البشر وأرغمهـا على التذلل والبكاء!!

لا يصف الكأس إلا من ذاق حلوها ومرها. وأنا... صنوف من الحياة ذقت أنواعها صامتة لا أشكو إلا انفسى التى تعتقد فى قرارتها أنه تكفير عن مأساة ماضية!!

مأساة ماضية!!

« يالحظات حياتى الغابرة... ألأنى نعمت خلالك بالراحة والهدوء وذقت حلاوة الاكسير السحرى ترغميننى على أن أدفع الثمن كل ليلة من شبابى ودمى ؟! »

حقاً أنها مأساة أكفر عن لحظاتها الطائشة السعيدة . لقـــد تفتحت أيامها عيني على حياة هي الربيع الأبدى للسعادة . . . الربيع الذى ظننت أن لن يتبعه خريف رهيب . .

أتذكر تلك الأيام ياكامل ؟ كنا روحاً واحـــدة تعيش فى جسدين فلما فصلوا بيننا كان من الصعب على أن أعيش ولى بقية بعيدة عنى ومن هنا أحسست كراهية لهذه الحياة . . . وصممت أن أتمم هذا النقص لا بالاستعاضة عنك . . . لا . . . وأننى لأقسم لك هنا بأنى ما أحببت سواك وما خفق قلبى إلا لك وحدك . . . فلما تباعدنا أغلقت هـــذا القلب وحصنته . . وسجنته وهو فى ريعان شبابه وأغلقته على بقية تبقت من ذكراك . . . .

وسرت وحدى فى الحياة ياصاحبى . . . كنت صائدة من صائدات الحظ فعبث بى مرة وسخرت منه مرات . . . ما عرف أحد من أنا . . بل عشت تحت اسم لا تعرفه أيضاً . . كان إسمى فى الميـدان الأول « نادية » وقد عشت مع عجوز أراد أن يتحدى الزمن والأعوام فكنت أجد السعادة فى الهدوء تحت سقف البيت الفخم الذى وهبنى إياه . . .

وقنعت بهذا الضرب المتهافت من السعادة حتى ثارت عليه نفسى المتمردة . . كرهت هذه الشيخوخة التى كادت تقبر شـــبابى ، وتركت الرجل وهو يبكى كطفل صغير . . .

وغامرت فى ميدان ثان تحت إسم جديد . . . أنك تذكر دون شك الراقصة تيتى ! !

وصادفتنى العجائب فى هـذا الميدان الجديد . . . لقد وجدت السعادة أولا فى تلك الحياة الثائرة التى لا تهـدأ والشباب الفائر الدائم الحيوية ، فاندفعت فى تيار غريب جعلتنى سرعته الجنونية أدرس الحياة الحقة ! !

وهنا تغيرت نظرتى للسعادة وبدأت أراها فى أشياء أخرى ... قلت لك قبلا أنى كنت أحاول أن أسد نقصاً كبيراً فى حياتى ولكنى مع الزمن أحسست أن من أهم شروط هذا النقص أن أجعل الغير يتألمون ...

لا تعجب فقد كنت أعيش فى وسط ملىء بالمحرومات ممن لفظتهن الحياة فتدافعن حانقات إلى ظلال الأضواء الباهرة لتعرضهن بشكل جديد وعلى هيئة فاتنة للمحرومين أيضاً !!

كنت قبلا ... وأنا فى بيتكم أشعر بالسعادة فى مواساة الناس والتخفيف عنهم .. أما الآن فسعادتى هى أن أسلب الناس سعاداتهم ... كنت أعيش كما قلت وسط « محرومات » طريدات الحياة وفرائس القدر ...

يا طالما قضينا النهار كالقطط الجائعة ... فاذا ما أقبل الليل أشبعنا جوعنا من دماء الضحايا ... كنا نحس سعادة غريبة... سعادة شاربات الدماء المختلطة باصناف الكحول الرخيصة !!

واحتاط بى الرجال ... لم أكن بالفتاة « السهلة » ولذا سرت مسرعة فى طريق الشهرة وترامت الأموال والقلوب عند قدمى فكنت أجد سعادة طاغية وأنا أطؤها تحت قدمى !!

وأتيت أنت ! وفى هذه الساعة فقط عدت إلى صوابى ... كنت قد ثملت من الولغ فى الدماء البشرية ... اكتفيت من الملاذ ... كرهت كل شىء... ونظرت إليك فاستيقظ الحب فى قلبي وأحسست بشعورك ... انك الآن فى مركز أتمنى أن يسير بك نحو الغاية القصوى من الشهرة والمجد ...

انك كنت تخاف .. وخفت أنا من أجلك ... خفت أن يفقدنى الشراب ثباتى .. أو يغلبنى التمرد فأعترف ... ان هذا الاعتراف يكون المطرقة القاسية التى تحطم مستقبلك وسعادتك ولذا فضلت الهرب من أجلك أنت ..

لقد عرض عليّ كثيرون قلوبهم وأسماءهم ... ولكني تخيرت من بينهم شاباً اعتقد فيه صدق الحب لى ... فاتحنى اكثر من مرة فى الزواج لوثوقه من طهارتى !! لا تعجب وأقسم لك على ذلك ... فاتحنى اكثر من مرة فرفضت وأخيراً ... ولما رأيتك خفت وقبلت

أننى أعيش الآن مع زوجى فى « فيلا » جميـــلة فى « عزبته » ان يضيرك بعد الآن أن تعرفنى بل لن يقف فى سبيلك بعد طيف مخلوقة كان وجودها كاف لإزعاجك ...

أنا واثقة يا كامل أنك كنت تريد أن تعرض على عرض هذا الشاب ولكنى لم أرد ... خفت أيضاً أن يراك واحد ممن عرفونى فيعيروك بى ... ما زلت أتمنى لك كل خير راجية أن تتأكد أن سعادتى كل السعادة هى أن أنساك وأن تنسانى ... وأن تنسى حماقات الطفولة لأنى قررت أن أسعد الرجل الذى قبل أن أحمل اسمه ...

ومن يدرى ... ربما تلاقينا ذات يوم ... أنا وأنت وزوجى ، ويكون الناس قد نسوا « تيتى » وعندها ستذكر أنت فخوراً ابنة عمك ... »

« خديجة العزبى »

تراجعت السعادة وقد أحست ببعض الضيق من أجل هذه الثائرة الصغيرة ..

ونظرت إلى الأمل كى تقول له « إن هذا اللون لا يروقها وإن أبدع تنميق نهايته . . . فابتسم وظل فى ابتسامته ينطق بأن قانون الحياة لا يمكن أن يجرى فى مضمار نحبه دائمًا ..

وأرادت أن تتكلم ولكنه لم يترك لها فرصة مناقشته وأشار إلى أعوانه ليقدموا على المسرح الخالد قصة . . .

سعادة امرأة . . !

تنبأ لها فقيه القرية وهى طفلة تتردد على مكتبه مع زميلاتها وزملائها أنها ستكون مخلوقة خطرة فضحك أبوها استخفافا وضمتها أمها الى صدرها وهى تقبلها متمنية لها أسعد الأوقات . وفعلا كان الناظر إليها يعتقد تواً أن هذا الملاك الصغير ستلعب الأقدار دوراً قاسياً فى حياته كما أنه هو بدوره سيتحدى هذه المقادير ويتمادى فى العبث بالكثيرين من صرعى جماله وفتنته . . .

ومرت السنون والفقيه الطيب ما زال مصرا على صدق نبوءته فى الوقت الذى كان يزداد فيه نضوج جمال « زيزى » التى جاوزت سن الطفولة وسارت فى مراحل الشباب . . .

كانت الفتاة تسير معها أينما حلت ، والغيرة القاتلة تلعب بالقلوب ويشتد خفوقها لمرآها ، والحقد الرهيب تطل أطيافه من قرارات العيون وهى تتبعها فى مسيرها . . .

وتزوجت « زيزى » بأحد موظفى السلك النيابى ممن عملوا فى بلدتها فكان بديهيا أن تضطرب ثورات القلوب ، ولكن . . . ماجدوى هذه الثورات وقد أصبحت معبودتهم ملكا لغريب سيرحل بها عما قليل . . .

ونقل الزوج الشاب إلى القاهرة فمضى إليها مع زيزى . . . الفاتنة الصغيرة التى طالما داعب خيال العاصمة افكارها ، وتمنت تحقيق حلم رؤياها ولو لحظة خاطفة . . . وتحقق الحلم وهاهى ذى تعيش فى القاهرة مع

زوج يحبها كل الحب . يضمهما بيت ترفرف السعادة فى سمائه وتظلله بظلها الخالد . . .

وعاش الزوجان فى عشهما الصغير الذى كانا فيه كطائرين سعيدين إذا غاب أحدهما عن أليفه ظل طوال ساعات البعد يرقب عودته . . .

وسعد « نعيم » بحبها كما ظلت هى فى غيبوبة لذة حبه . . . ما كانت تفيق لحظة إلا لتسكر لحظات تنتقل بعدها بالروح إلى روضة من الهناءة والسرور . . .

ولكن . . .

ما الذى يعقب النهار ؟

النهار الباهر . . . النور المزدهر بالشمس . المفعم بالآمال التى تجيش فى صدور البشر . . . ما الذى يعقب ضوءه الزاهى ؟! ليل رهيب الظلمة أسود الجنبات لا حس فيه ولا حركة . . إلا لشياطين الجن والبشر . . .

وهذه الجنة الوارفة الظلال الخاضعة لقانون الهوى لم لا يعتورها التغير هى الأخرى ؟ لم لا يهب عليها إعصار قاهر يذبل أشجارها وزهورها ويفرق صوادح الطير من دوحاتها ويطرد عنها من ركنوا إليها من التعساء الذين غفلت عنهم عين الزمن لحظات ؟!

وراع الزوجة الشابة التغير المفاجىء الذى طرأ على زوجها فاصبح كثير الخروج من منزله يتأخر الى ساعات مبكرة من الصباح بل يغلو فى احتقار عش غرامه فيقضي بعض لياليه خارجه . . . ما الذى حدث ؟!

وعرفت التعسة أن رجلها المعشوق أحب غانية مستهترة . . . راقصة فى إحدى الملاهى الليلية تعرض جسدها ونفسها على الجمهور الثمل

وتقتل روحها كل ليلة مائة مرة وهي تخادع الناس ويخادعونها فهي آنا عارضة وأخرى معروضة ... مرة ظافرة وأخرى مدحورة... وتظل في ميدان الرقيق الأبيض تبيع نفسها لحظة وتحررها برهة والنفس بين التحرر والعبودية ضالة لا تعرف منجاة أو برآ تجنح إليه ...

« يا سخرية القدر... راقصة !! أبلغ به الامعان في احتقاري أن يجعل بديلي إحدى طريدات الشارع ؟ وأنا ... أنا التي أفنت زهرات العمر واعتصرت رحيقها لتعطره بشذاه... أنا التي أذاقته الكؤوس مترعات بالصفاء... أنا التي روت ظمأ روحه بعبقرى الحب... أنا التي أخذت بيده إلى دنيا من الخلود لا تعترف بعالم الناس... أنا التي سرت به إلى أرض السعادة الخيالية وارتفعت به الى عوالم الملائكة فخلدته في دنيا قانونها الطهر ودستورها العفاف ، أنا ... أنا المهدمة التعسة يعبث بي إلى هذا الحد الساخر ؟!

وغطت وجهها الفاتن بيديها الرقيقتين بينما تركت لدموعها العنان فانطلقت حارة ملتهبة تزيد القلب ضراماً والفؤاد أنيناً.. وراحت تستعرض عمراً قصيراً كان بالهوى عامرا ... ذكرت طفولتها في القرية وزملاءها الأطفال... تذكرت البيوت الطينية المتهالكة التي كانوا يقيمونها على شواطىء البحيرات فاذا ما أصابهم الكلال طمسوا معالمها وهدموها . يا للفكرة الرهيبة !! أكان ذلك العش الذى كللته السعادة بيتاً من بيوت الأطفال أقاموه فى ساعة صفو وهدموه عندما أعتورهم الملال ؟!

وظلت الأفكار تعبث بها وهي تعبث بهذه الأفكار ، وتذكرت الفقيه العجوز الشيخ عمران وهو جالس أمام المكتب يهز رأسه وتعبث أصابعه مرة بالمسبحة وأخرى بشعيرات ذقنه الكثة وهو يقول لوالدها « ياشيخ عبد الدايم . البنت دى لازم تراقبوها وتكونوا قاسيين فى تربيتها ... دى جميلة اكثر من اللازم وهذا النوع من الجمال خطر على نفسه وعلى غيره ...

وضحكت « زيزى » سخرية من نبوءة الشيخ وساءلت نفسها .. هل تحققت ؟! أنها لا ترى ذلك .. هاهى تصدم فى أعز أمانيها وها هوذا رجلها يتركها إلى امرأة قذرة ممن لفظهن المجتمع وأنكرتهن قوانين الحياة ...

وبرمت الفاتنة الشابة بهذا النوع من أنواع الحياة الصامتة . . .

وتجهم وجهها عندما خطرت ببالها فكرة مبادلة نفسها بتلك الراقصة . أى بدل رخيص !! وأى رجل حقير !!

وراحت تذرع الحجرة جيئة وذهوباً وهى قلقة غير مستقرة .. ونظرت إلى وجهها فى المرآة ثم رفعت رأسها فى كبرياء وهى تمعن النظر إلى مفاتن جمالها ... هذا الوجه العبقرى الجمال وهاتان العينان الخضراوان ... وهذا التاج الذهبى على رأس فاتن ... الشفاه الرقيقة المتوهجة ... الجسد الذى أبدعت يد القدرة تنميقه وبث السحر فى ثنياته الرجراجة الحية ... أوه !! هذه مخلوقة جديرة بالعبادة ...

***

وانفصل الزوجان .. أجل انفصلت زيزى عن زوجها نعيم . طالبته بالطلاق لتفك اساره وليكون حراً مع الراقصة التى فضلها على زوجته . وهكذا افترقا ليسير كل فى الطريق الذى رسمته له الأقدار ...

***

وأحست زيزى بالحيرة وقد أصبحت وحيدة ... ما الذى تستطيع أن تعمله فتاة مثلها لاتعرف من أمر هذه المدينة شيئاً ؟! أى طريق تسلك ؟! هل تعود إلى القرية لتعيش بين أهلها مرة ثانية ؟! وضحكت ضحكة مريرة رهيبة وهى تذكر القرية . وسرعان ما دوت فى أذنيها كلمات الفقيه ... النبوءة الرهيبة

التى نعاق بها الشيخ والتى كثيراً ما كان يرددها دون ملل وهو واثق من أنها ستحدث . . .

مخلوقة خطرة ! !

أجل . . أنها الآن مخلوقة خطرة . . أليست وحيدة فى مدينة صاخبة زاخرة بمن فيها من سباع البشر ووحوش المخلوقات ؟ أنها الآن منهم . . . بل يجب أن تكون أكثر من الجميع وحشية وشراهة . . ولكن . . أين تذهب الآن . .

وزادت ضحكتها اتساعا . . . أتعود إلى بيتها العش . . الهانىء الذى نعمت فيه بتذوق كأس الحب الشهى . . ولكن أتراها مستطيعة . . ؟ اتكتفى بالذكرى وتعيش من أجلها . . لا . . هذه ألفاظ يتحدث الناس بها ولا يستطيع أن يعيش بها انسان . . . إذ كيف تعيش فى هذا البيت وقد هجره طائره المحبوب

ومرت ساعات اليوم متباطئة مرة ومسرعة مرات . ومع مسيرها القاق كان الضجر يعبث بزيزى . . . أوه ! هذا الجحيم الثائر النيران ليس من السهل أن . . تخلد إليه . . . يجب أن تهرب . . . أن تعيش فى جو غير هـــذا تستطيع أن تستنشق خلاله عبير حياة جديدة . . .

*
* *

ـــ وبعد ، ياطملى الكبير . . إنك تعلم أنى سريعة الملل ولا أحب أن أدلل العصاة كثيراً . . أوه ! . . . قلت لك لا أحب المعارضـة . . كلمتى يجب أن تنفذ . . ولا تعتذر فلن أسمح لك . . ماذا تقول ؟ ! أوه ! ! أنا متعبة ولا أطيق هذا الحـــديث السمج . . . أرجوك . . لا أستطيع قلت لك . . لاتحرجنى ولا ترغمنى على قول مالا أريد . . . إنك مجنون ياصاحبى عندما تفكر فى شىء مثل هذا علمونى أن كلمتى يجب أن تكون قانوناً لايعارض . إنكم هكذا معشر الرجال . . عبيد . . . عبيد للمرأة التى تعرف كيف تلهب ظهورهم بسوطها . . .

ماذا تقول .. متى أراك ! ؟ أوه هوه ! ! قل متى تراني أنت ؟ ! أما أنا فلا أحب أن أراك إلا بعد أن تنفذ طلبتي ... الأمر بسيط جداً ... إهدم بيديك القويتين البيت الطيني الذي تتخيله جنة .. إن يدك التي امتدت إلى جسد امرأة أخرى خلاف زوجتك قادرة على فعل المستحيل ... هذه اليد الخائنة تستطيع أن ترتكب حماقات أخرى أشد هولا من خيانة الزوجة المخدوعة .. إذا طمست معالم بيتك عد إلىّ ... وإلا فلا تدعني أراك ... وداعاً ياصاحبي ولا تندم على مافات ... ستعرف بابي مرة أخرى عندما تكون حراً ...

وقطعت زيزي الاتصال التليفوني بينها وبين محدثها وهي تضحك ضحكة رهيبة ، وانفردت بنفسها ... هذه النفس الثورية ، وراحت تحدثها ، ويطول بالاثنين حديث غريب ... فهي تريد أن تشبع نهم نفسها والنفس لاتقف بمطالبها حدود ... تريد أن تحطم كل سعادة .. أن تهدم كل بيت ... أن تفرق بين كل زوجين ... أن تجنى على كل من عرف أن للسعادة البيتية وجوداً ... إنها تنتقم لماضيها من هؤلاء الرجال ... بل من النساء أنفسهن . ألسن السبب في حياتها تلك ...

لقد هجرها زوجها « نعيم » من أجل امرأة جعلته يهدم بيتـــه ويجنى على امرأته ... وإنها الآن تمثل نفس الدور الذي كابدت غصصه وآلامه لتذيق هذه الدنيا ومن فيها مرارة الكأس الذي أرغمت على شربها ...

وما أبسط أن تهدم البيوت وأن تنمحي السعادة وتتبدد من دنيا البشر ...
ونادت زيزي خادمة مخدعها العجوز وقالت تسألها :

— ماوراءك يافاطمة ؟

وضحكت المرأة وهي تقول :

— إنه جلال ياسيدتي ...

وعلت ضحكة الغانية ، وقالت :

— وبعد يافاطمة . . . إن هذا الرجل الجديد يثيرنى . . . ثرثار لاينقطع له حديث . . . لو أنه استبدل بكلمات الحب التى رددها على مسمعى طعاماً يلتهمه لأصابته تخمة . . . ويل لهؤلاء الرجال . . .

— وعندما أخبرته بأنك نائمة راح يمطرنى سيولا من الأسئلة السخيفة « هل سهرت بالأمس . . . ومع من . . . أفرطت فى الشراب . . .

— مخلوق سخيف . . . أين هو ؟!

— فى « الصالون »

— أخبريه أنى أنتظره . . . هنا فى غرفتى . . .

ومرت لحظة تجهم خلالها بالشر وجه « زيزى » وسرعان ما انتبهت على وقع خطواته السريعة . . يا للبرائى ! ! وانحنى الرجل يقبل يدها ثم سحب مقعداً وجلس كوثنى خاشع لايجسر على رفع عينيه نحو الصنم المعبود مخافة أن تدنس النظرة قداسته . . .

وعضت زيزى شفتها السفلى فى ضيق ، وقالت فى بطء وغيظ :

— منذ متى نصبت نفسك حارساً على بيتى وأى حق هذا الذى خول لك التجسس علىّ ومراقبة شئونى وإحصاء حركاتى وزوارى ؟!

— ما الذى حدث ؟

— إنك أكثر منى دراية بما حدث . . . ياسيدى ان من يأتون هنا يجب أن يضعوا عصابة كثيفة على عيونهم فلا يرون مما حولهم شيئاً ! وحتى لو حدث ووقعت عيونهم الملصصة على شىء فيجب أن يرغموها على التعامى . . . بيتى يرحب بك مادمت كالأصم والأعمى والأبكم تسمع الأمر فتطيعه دون معارضة . أما إذا طغى عليك الفضول فان فى استطاعتى أن أرشدك إلى طريق الباب . .

— ولكنك تعرفين أنى أحبك

— وأنت أيضاً تعرف أنى لا أحبك . . . لا أنت ولا سواك . . . وطالما صرحت لكم بأنى مخلوقة لاقلب لها . والويل لمن يطمع فى أن يكون له مكان منزو مظلم فى هذا القلب . برمت بكم ياجموع الحجيج إلى معبدى الملعون الذى أقمت به محراباً أعبـــد الشيطان فيه . . . لقد وهبت للشيطان قلبى وجسدى وعواطفى فمن تكونون ؟ !

— ياقاتلة . . . إن الزمن وحده كفيل بأن يلين قلبك ويجعلك تعرفين أحاسيس القلوب التى أخلصت لك الود وصدقتك الحب

— الزمن ! ! إننى أتحدى زمنكم هذا . . . أى زمن تتكلم عنه ياعاشقى المسكين ؟ دارت عجلتـــه دورات سريعة فطوحت بى إلى دنيا لاتعرفونها . . . كانت دورات هـذه العجلة قاسية فى سرعتها فألقت بقلبى إلى مكان سحيق أنا نفسى لا أعرفه . . اذهب . . اذهب ودعنى . .

— أرى وجهك يتلون وصدى عواطفك يدوى فى هذه الغرفة ثائراً . . . أى أعصار عنيف تسجنينه فى قفص صدرك . . .

— اعصار رهيب سيكتسحكم أمامه . . . ياوحوش البشر . . . التى خرجت تتلمس الفرائس لتلوك لحومها النيئة بأسنانها الشرهة . . . لم تسعون وراء مثلى ؟ ! لم تأتون إلى خشوعاً حاسرى الرؤوس تسودكم الرعدة والرهبة ؟ أى جمال تجدونه فى هذا المعبد المنبوذ الذى يقوم فيه الشيطان على عرش قوائمه من جهنم ؟ ! ماسر مقدمكم من دنيـاكم إلى عالمى ؟ ! لم تركتم النور وأتيتم إلى عالم الظـــلام لتعيشوا فى كنفى كالخفافيش أو كالهوام الحقيرة . . .

— لأنك . . . لأنك ملاك ؟ !

— ملاك ؟! ولم لاتقل جنية من بنات جهنم ؟ إن الملائكة لايعرفون دنيانا ولكن الرجال يعرفونها . . . يأتوننا وهم خشوع يطلبون أن نمنحهم الحب وهم على ثقة من أننا لسنا بالفاعلات . . . هل تبعث الموتى يانسور البشر ؟ لقد فقدنا الحياة وهانحن أولاء نعيش بلا أرواح نعذب أجسادنا ونصهرها فى النيران الدنسة . . . إننا نهبها لكم لنشبع ضعفنا عندما نشعر بأنكم لستم أكثر من عبيد تكابرون . . هيه !! إنك تنظر إلى والدهشة تعبث بك . . . . إنك رجل لاينظر إلا بعين المشتهى يريد أن يشبع ناحية من مناحى الظمأ فى نفسه ولكن أنا . . أنك لاتعرف من أنا ومن الخير لك ألا تعرف . . .

— بل وودت لو أعرف ؟

— سمنى ماتشاء وضع لى من لدنك أية صفة تريد . . . فلست أكثر من مخلوقة ثارت على دنيا الناس وأرادت حياة أبدية فى عالم الشيطان . . . أتعرفه . . . أنه يطل من عينيك وهو يضحك سخرية منا . . . إنه ينظر إلى نظرة غريبة آثمة . وهو يفحصنى من رأسى إلى القدم . . . لقد استعبدنى الشيطان عندما كفرت بدنيا الناس . وبدورى جعلت منه عبدى الخاضع عندما أسلمته نفسى وأحس لذة الدفء بين ذراعى تصهره أنفاسى وتلهب عيناى حواسه ويعزف له صدرى فى خفوقه لحناً همجياً . . . وهكذا أصبحت سيدته كما أصبحت سيدتكم جميعاً . . .

— أيتها الثائرة الصغيرة ، كأس واحدة من الشراب كفيلة بتهدئة ثورتك . .

— كأس واحدة !! إن همومى لايمكن أن يغرقها إلا محيط من الشراب القوى . . . للكأس أثر سحرى فى النفوس المضناة التى مسها شجن الحياة وتعثرت خلال دروبها السوداء . . . إذا شربت أنا فمجبرة ولكن أنت . . . لم تدعونى إلى مشاركتك الشراب . .

— لأرشاركك إحساسك . . وأعيد عليك فكرة الزواج ممن أخلص لك الحب . . .

— يالأكاذيب الرجال . . . اقترب منى . . . اشرب ومع توالى الكؤوس سيدور رأسك وعندها . . . وقد زاغت الدنيا أمام عينيك سأعلمك فلسفة الحياة الحق . . : إنك جدير بالرثاء وأرى أن أطلعك على خفايا عالم ستضل فيه دون شك . .

وتجاوبت فى جدران الغرفة أصداء رنين الكأسين وهما يتلاقيان فى نغم عذب . . . وبدأت الدنيا تتراقص والضوء يضطرب . . . أى محيط هائج كانت أمواجه تعبث بالشاربين الثملين . . .

وفجأة فتح الباب . . . وقبل أن تتقدم الخادمة لتعلن سيدتها عن الزائر الغريب . . كان هو أمامها . . . رجل تدل ملامحه الريفية على الشراسة والبطش . . عرفت فيه ابن عمها وهبت واقفة وقد سقط الكأس من يدها وصاحت وقد بدى عليها الخوف والفزع : جعفر !!

وأجابها بصوت كالرعد !!

— نعم . جعفر . .

واستولى عليها الهلع فقد عرفت سر مجيئه إليها . . أنه أتى لينتقم لشرفه وشرف أسرته . . وعاد جعفر يقول :

— دعى هذا الرجل يذهب . . فلى حديث معك . . .

والتفتت زيزى إلى ضيفها الشاب وفى عينيها صرخة استنجاد . . . وصاح جعفر بلهجة الآمر :

— قلت لك دعيه يخرج وإلا . . .

ولم يكد يتم جملته حتى كانت يده قد أخرجت من جيبه شيئاً أسود أثار الفزع . .

فهجم « جلال » على جعفر كى ينتزعه منه . . . ثم . . . دوى طلق نارى أسرع بعده جعفر إلى الخارج . . .

***

تململ جلال فى فراشه ونظر حوله . . ماهـذا ؟ ! وساءل نفسه فى دهشة أين أنا ؟ ! ما الذى حدث . . ورأى إلى جانبه سيدة فى ملابس الممرضات منحنية فوقه لتتعرف حرارته . . .

وابتسمت الممرضة وهى تربت على كتفه فى حنان وسألها والدهشة تعلو وجهه :

— أين أنا ؟ ! وماذا حدث . .

— لاشىء أنك بخير . . . لقـــد قبض على المجرم بعد أن أطلق عليك الرصاص . . .

وراح يتحسس جبينه يريد أن يتذكر ماحدث . . لقد دوى طلق نارى فعلا أغمى عليه بعده ولم يعرف أى شىء . . ولكن هى ؟ !

وسأل ممرضته :

— و . . . هى ؟

— أنها بالخارج ياسيدى . . .

— أرجوك أن ترسليها إلى . . .

وخرجت الممرضة وعلى أثرها دخلت زيزى وقد تهلل وجهها بالبشر لما رأته معافياً . . ومدت إليه يدها فتشبث بها وهو ينظر إليها

فى توله وحب ... وأغمض عينيـــه نشوانا بتلك اللحظـة ...
وسمعها تقول :
ــ ياصديقى الطيب ... شكراً لك .. لم أكن أعرف فيك الوفاء إلى الحد الذى تضحى فيه بحياتك من أجلى ..
وأجابها فى حماس .
ــ أنا الآن بخير ...
ــ بل تلزمك الراحة .. سأتركك إلى ممرضتك ..
ــ لا .. لن أطيع سوى ممرضة واحدة .. هى أنت
ــ ياصديقى .. لم لاتستعمل حقك كرجل .. وتنفصل عن المتعجرفة التى عبثت بك وعرّضت حياتك للموت ؟ !
ــ لقد زادنى ذلك تشبثاً بها .. وضاعف حبى لها ... ورغبتى الأكيدة فى الزواج منها ...
ــ ياصديقى ...
ــ ولِمَ لاتقولى يازوجى ...
ــ أترك لى فرصة أخرى أختبرك فيها
ــ زيزى ... أخشى ألا تبق فى العمر بقيـــة بعد ذلك ، فهل أموت محروماً منك ؟
ــ أيها الطفل العنيد ! ! أنك أثمن عندى مما تظن ...
وجذب يدها بين يديه فتراخت ثم جلست إلى جانبه ومن خلال أهدابها الطويلة راحت تتطلع فى وجه البرىء ... وأحست بيد قاسية تعتصر قلبها لتطهره وتنقيه لهذا الحب الصادق الجديد الذى بدأت تحس به عن إخلاص ورغبة فى التضحية ...

وخيل إليها أن الأعصار الرهيب الذى إجتـاح سعادتها قد زال وأن العاصفة قد هدأت لتحل مكانها عاصفة أخرى أشد ثوراناً وأعظم قوة ... عاصفة حب عنيف ...

وأحاط جسدها بساعده ... ولم تمض برهــة حتى كانت بين ذراعيه مصغية إليه كالذاهلة وهو يقول :

ـ يازوجتى المعبودة . . .

وأجابته من أعماق قلبها :

ـ يارسول السعادة والتوبة . . .

وابتسمت السعادة بعد عبوس طويل والتفتت إليه قائلة . .

— أية قصة ياصاحبي !!

فأجابها الأمل الضاحك بقوله :

— وسترين الآن صورة أخرى أكثر غرابة من تلك . . .

وصفق بيديه إذ ارتفع الستار عن . . .

الباحثات .. عن السعادة

صالة كبيرة ضاقت على سعتها بمن فيها من نساء حضرن حفلا أقامته إحدى الجمعيات الخيرية لمساعدة من نكبتهم الغارات الأخيرة .. الأنوار باهرة تحجبها أستار كثيفة ... الموسيقى تعزف فى ركن بعيد فى حين انشغلت النساء عن سماعها بتبادل أحاديث تافهة ... كن خليطاً عجيباً من مختلف الأعمار فبينهن الشابة والعجوز والأرمل والزوجة والمحافظة والمستهترة ... وكان الحفل أشبه الأشياء بخلية « نحل » خرجت للعمل ولهن طنين وجلبة

أى حديث يمكن أن يدور وسط هذا الجمع ؟!

حديث غرام ؟!

حديث زواج ؟!

حديث مغامرة ؟!

سر قصة قديمة ؟!

غلو وإسراف فى وصف ونعوت ؟!

فضائح وأسرار وخفايا تلوكها الألسن ؟!

دون شك ... لا يمكن أن يخرج حديث النساء عن هذه المسميات ... إنه حديث تافه يقتلن به أوقاتهن التافهة ومع شعورهن بذلك فهن سعيدات ... سعيدات !!

لا أظن . . . ولـكنهن باحثات عن السعادة . . . وهن بهذا البحث . . حتى ولو فشلن . . . سعيدات

إذاً . . . ما أجمله حديث . . . حديث الباحثات عن السعادة . . من هن ؟ !

خليط من النساء تباينت أفكارهن ومشاربهن وأحلامهن ونظراتهن المثالية . . . أنهن فى نظر الكثيرين من الرجال السعادة الحقـة . . . بل هن من ينشد الرجل لديهن السعادة ورغم هذا فهن . . الباحثات عن السعادة . .

وتفرقن جماعات صغيرة . . إن فلسفة الحديث لاتأت إلا بتنوع وجهات النظر وكثرة المتحدثين ! !

وقالت عجوز لصديقة تقربها سناً . . . وبمبعدة منهما فتاة تتلهى بالنظر إلى صحيفة نسائية أوروبية وفى ذات الوقت تسترق السمع . .

— لاترفعى صوتك فالصغيرة بالقرب منا وأخشى أن تسمع نبأ هذه الفضيحة . . .

— لقد عرفها الجميع ياسيدتى

— يالله . . . كيف تطيق آذان بناتنا سماع أمثال هذه القاذورات

— والأدهى من ذلك أن بيت الباشا كما هو . بل أن الرجل مازال يظهر فى المجتمعات وقد دعاه البعض ليتحدث فى حفل كبير عن « الفضيلة كوسيلة من أهم وسائل النهضـــة » تصورى هذا الرجل يتحدث عن الفضيلة . . .

— وهى . . . ماذا تفعل الآن ؟

— مع زوجها المحبوب طبعاً

— زوجها ! ! آه يا ربى . . . من كان يظن هذا أن عفاف ابنـــة أنجة هانم تتزوج من . . .

— فى لغة « بنات اليوم » أن الحب لايعرف تفرقة . . .
— صه ! بنات اليوم ! !

وضحكت الفتاة الصغيرة المتلصصة السمع وهن يذكرن الحب وراحت تقول فى نفسها :

« ياعجوزاً تخفى فى نفسها لواعج الهوى وتود لو تخدع الزمن ليهب قلبها شعلة من نيرانه المقدسة . . . أنك تحلمين أنت الأخرى بالحب كما يحلم الميت بالبعث ولكن . . . وآسفاه لك . . ستقضى ماتبقى من عمرك فى هذه الدنيا وأنت تحلمين بتحقيق الخرافة . . . أى سعادة تحلمين بها أنت وصاحبتك ؟ ! أنكما تنظران إلىّ نظرات الكراهية وتبدو حماقة الغيظ فى أصواتكما وأنتما توجهانى توجيهاً يوحيه نقص نفسيكما وضعفها . . . لطالما رأيتما فىّ شابة على رأسها تاجاً فقدتماه وعبثاً تحلمان باستعادته . . .

وقد تبدو لعيونكما الغائرة صوراً للسعادة ولكنها كالضباب الذى تذهب به أشعة الواقع . . . أية سعادة تجدانها فى التذكر والحديث عن الماضى ! ! بل أية سعادة تجدانها فى سخريتكم من « بنات اليوم » وقد اجتزتن هـذه المرحلة وربما كنتن أكثر استهتاراً منهن غير أن فتاة الأمس كانت اكثر حرصاً على سمعتها من فتاة اليوم فأنتما وهن سواسية فى هذا المضمار ! !

واقتربت من أمها وصديقتها تقول :

— أنظرا . . . أن هذه المجلة تتحدث عن الفتاة العصرية فى أوروبا حديثاً غريباً . . . تصورى يا أماه أنه أصبح للفتاة حقوق تتساوى وحقوق الرجال
— حقوق تتساوي وحقوق الرجال ! !

ـــ دون شك . . . الفتاة العصرية تعمل الآن جادة لترغم المجتمع على الاعتراف بها ولتمحوا أفكاراً خاطئة سبيتها نساء العهد القديم

وضربت الأم كفاً بكف وهى تقول لصديقتها :

ـــ جريمة كبرى إرسالنا هذه المخلوقات العزيزة إلى المدارس . . .

وأجابتها صديقتها العجوز :

ـــ كان ذلك فى الماضى وكنا سعيدات . . .

ولم تكد تتم جملتها حتى احتاطت ثلاثتهن مجموعة من المدعوات وكأنى بكلمة « السعادة » قد أثارت فضولهن . . . فأتين ليشاركن المتحدثة السمع والحديث . . . وقالت إحداهن :

ـــ حدثينا عن السعادة ؟ !

ورنت فى ذلك الوقت ضحكة ساخرة فالتفتن جميعاً إلى مصدرها . . . كانت غادة فاتنة فى ثياب السهرة طويلة القامة مفرطة الجمال ساحرة . .

وقالت العجوز وقد سألنها عن السعادة مشيرة إلى الضاحكة :

ـــ هذه هى السعادة وقد بعثت فى هذه الفتاة . .

وأجابت أخرى :

ـــ من يدرى ربما كانت تضحك من فرط أساها . . .

وأصرت العجوز على قولها :

ـــ على أية حال فهى سعيدة . . . أن الأسى والسعادة صنوان يابنياتى ومن العبث أن نتذوق حلاوة الثانيـــة دون أن تعذبنا مرارة الأولى . . . لكل منا رأيه الخاص فى هذا الكائن الخرافى الذى نسميه « السعادة » ولكل منا فلسفة خاصة فى تذوقه وفهمه ، ولكل منا عيون تراه على النمط الذى تحبه وتتخيله . . .

وسألتها فتاة فى ربيع حياتها :

ـــ وعلى أية صورة ترين السعادة إذاً ؟ !

وسكتت المتحدثة لحظة . . . وأنصتت السامعات وبدأت تقول :

ـــ السعادة من وجهة نظرى كائن علوى . . . حلم يداعب نفوسنا الحيرى كلما اشتدت بنا تجاريب الحياة القاسية . . . وأن سعادتى أنا فى هذه اللحظة متمثلة فى جلوسى بينكن أحدثكن وتحدثوننى ويسيطر علينا جميعاً إحساس واحد هو فقرنا إلى السعادة وحاجتنا إلى ضوئها الباهر . . فاذا ماعرفنا أن هذه اللحظة التى جمعتنا زائلة عرفنا أن الصورة التى حدثتكم عنها ستزول معها أيضاً . . . إذاً . . . فأين السعادة ؟ !

وقالت فتاة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها :

ـــ السعادة فى الحب ياسيدتى . . .

والتفتت إليها المرأة ثم حولت بصرها إلى الباقين وهى تقول :

ـــ ترى بعض المتهورات أن فى الحب سعادة ، ولذلك ، ورغبة منهن فى الاحتفاظ بهذه السعادة يتقدمن فى غير خوف ولا وجل على ارتكاب حماقات تحمر لها الوجوه خجلا . . . وهذا النوع كثيراً ما يجلب العار على ذويه . . .

وعند ذاك ضحكت الفتاة الصغيرة ساخرة وهى تقول :

ـــ خففى من غلوائك فإن السعادة أكثر سمواً من أن تعبرى أنت عنها بهذه الألفاظ . . إن طاعة القلب وتنفيذ رغائبه هى السعادة فى وصفها الكامل وليأت بعد ذلك غضب الأهل وثورات الآباء . . . ان من

تذوق هذه النعمة التى وهبتنا الطبيعة إياها والتى اصطلحنا على تسميتها باسم الحب . . يستصغر هذا العالم ولا يرى أمام ناظريه إلا جمال الهوى وروعة الغرام وهما سبيل السعادة وسر تملكها وحيازتها . .

وقالت أخرى لم تتجاوز الثلاثين من عمرها :

— لا شك أن تلبية نداء القلب نوع من أنواع السعادة وليست كلها فى الحب . . بل فى استقرار الضمير وراحة النفس . . ما الذى يفعله الحب إذا جمع بين متحابين لا يملكان وسائل العيش . . . علينا أن ننكر الحب أحياناً ونفكر فى المادة . . فكثيراً ما حالت دون المرأة والسقوط . . .

وسألتها إحداهن :

— وسعادتك أنت . . فى أى شيء ترينها . .

— أنها هناك . . . هناك فى « البيت » . . فى الجنة الأرضية حيث أعيش كملكة لا سلطان لأحـــد عليها . . . فأقوم بتربية أولادى وتنشئتهم النشأة الصالحة لأجعل منهم رجالا وأمهاتاً للغـد . . . فعندما تنمو هذه الحبات القلبية وأشهد تفتحها وازدهارها أنسى الدنيـا وتتركز روائع الأحلام فى فلذات الأكباد . . . إذ تتضاءل الأنانيـة وتموت الأثرة ولا أفكر إلا فى توفير سعادتهم وسرورهم . . .

وسألتها فتاة فى العشرين من عمرها :

— ولكن القلب . . . أليس له دخل فى السعادة ؟ !

— بالطبع ياعزيزتى . . . لقد أحببت زوجى بعد زواجى منه لم يكن الحب الجارف . . ولكنه حب متعقل نمى بيننا مع الأيام ولأنى عرفت فيه الزوج وعرف فىّ الزوجة . . فكانت « المعاشرة » تأثيراً وللبذور التى اشتركنا فيها تأثيراً أكبر فى تأسيس نوع من الحب الممزوج

بالاحترام والعطف ... والقلب يقنع بهـذا النوع مادام خالياً من حب آخر ...

فأجابتها الفتاة :

ـــ أنا قانعة بسعادتى القلبية ... الهوى والشباب والحب من هذه العناصر الثلاثة تـكوّن الشراب السحرى للسعادة وها أنا أرشف منـه منذ زواجى .. أى منذ شهر ...

وتنهدت ثانية وكانت شاردة النظرات ثم قالت :

ـــ السعادة فى الحب دون شك ياصديقاتى ...

وضحكت ثالثة وهى تقول :

ـــ وإذا انتهى الحب وافترق الحبيبان .. أين توجد السعادة ؟!

وأجابتها رابعة :

ـــ فى الذكرى ...

وضحكن جميعاً لهـذا الرأى الخرافى الذى لايستقيم والواقع فى حين قالت زوجة شابة :

ـ أننى أقر من قالت أن السعادة فى الاستقرار البيتى ... أن من ضل طريقها ولم يعرف كيف يهتدى إليها فليبحث عنها فى عش هانىء جمع بين زوجين متحابين ... لديهما تستقر السعادة وترعاهما وما دام هناك الأخلاص وهناك الحب وهناك الوفاء فستظل السعادة أبدية البقاء ... ومحال أن نجد السعادة فى غير هذا المكان الطاهر الذى تظلله كل الصفات السامية ... أنا أحب زوجى ... وتلك هى سعادتى ... وهو بدوره

يحبنى وهذه هى سعادته . . . وليمر الزمن بعد ذلك ولتتطور صور السعادة وتتغير ولكنها لن تخرج عن نطاق حبنا الذى سيتجزأ إلى سمو ورفعة فأنا أمنح منه جزء لأبنائى وهو الآخر سيمنح جزءاً لأبنائه ولكننا فى النهاية سنلتقى عند نقطة واحدة وهى سعادتنا المشتركة فى إحساسنا بشعور واحد . . .

وقالت سيدة أخرى :

ــ سعادتنا جميعاً وإن اختلفت جواهرها فهى تتشابه فى النهاية وذلك لأننا من بيئة واحدة . . . ولكن هناك نساء من طينة أخرى . . . نوع ينشد عنده الرجال سعادة حرموا منها فى بيئتهم العالية . . بيئتهم الطاهرة النقية . . . هناك أنصاف النساء ! ! وهذا نوع يبدأ كالجراثيم . . . من الظلام . . ولكنه يختلف عن الجرثومة فى رغبته الشرهة فى الخروج إلى الضوء . . وتبدأ جرثومة البشرية أطوارها . . طريدة من طريدات الحياة ناقمة ثائرة على المجتمع تريد أن تتعلق بمن يتلمس التسلية وينشد الترفيه . . .

وساءلن أنفسهن عن سعادة هذا النوع من النساء . . وهل يعرفنها ؟ !

وعلت فى تلك اللحظة المحيرة جلبة الموسيقى ثم ظهرت أمامهن على المسرح فتاة . . . راقصة اشتهرت فى الأوساط الفنية وكثيراً ما كانت الصحافة تتحدث عنها . . .

وتابعنها بنظرات الإعجاب و . . . الغيرة وقد قامت فى رؤوسهن جميعاً فكرة استجواب الراقصة . . .

ودارت الراقصة مع الأنغام الثائرة ثم . . . دوت القاعة بالتصفيق . . . وانتهى دورها . .

وطلبن منها موافاتهن . . . وعادت بعد برهة وجلست وسط النخبة الممتازة من سيدات الطبقة الراقيــة وهنا غلبها إحساسها القديم . . . شعور النقص الذى يغمر مثيلاتها من نفايات المجتمع اللائى عشن فى بيئات قذرة وقذف بهن جمال فتاك وخلاعة مشينة إلى دنيا الشهرة والنور . . .

وأشعلت لفافة جعلت تنفث دخانها فى شراهة وهى لاتلبث تضاحك هذه وتداعب تلك . . وسألتها أحداهن

ـ كنا نتحدث منذ لحظات عن السعادة . . .

وأجابت الراقصة :

ـ حديث شهى وبخاصة لمن حرموها . . .

وزاد فضول المتحدثة فقالت :

ـ وما رأيك أنت عنها . . .

ونظرت الراقصة إليهن ولم تعرف ماذا تقول . . . وساءلت نفسها « أية صورة يردن أن أعرضها عليهن ؟ ! . . إن أنا خرجت عن الحقيقة وحاولت اعطائهن صورة وهميــة فسأفشل . . . إذاً فالأعترف بالحقيقة » وقالت :

ـ تسألنى عن السعادة ؟ ! لقد عرفتها . . . وتذوقتها فى الحرمان والتمرد على الحياة وقوانينها . . . عرفتها وأنا طريدة تقضى لياليها على الطوى وتجوب نهارها فى الطرقات هائمة تستجدى دون أن تجد القلب الرحيم . .

كانوا جياعاً يتلمسون الدم فلم أجد سوى أن أعطيهم ما كانوا به يحلمون وهنا تكشفت لى مناحى غريبة . . . وعلا تفكيرى مع الزمن

وضاق بي الأفق المحدود الذى كنت أعيش فيه فخرجت أبغى عالماً أكثر سعة . . .

ولقيني الرجال بالترحاب والتهليل ونسوا « بيوتهم » وأسرهم وجاءوا يبغون عندى ما كانوا منه محرومين . . . كانوا يبغون السعادة ويلحون فى طلبها فكنت أهبها لكل وفقاً لهويته حتى عرفتهم ووقفت على مدى ما وصلت إليه أفكار الرجال . . .

ياعجباً لدنيا الناس . . . يطلبون السعادة من مخلوقة لم تعرف السعادة إلا عندما تردت وسقطت فى الهاوية ! !

وساءلت نفسى « أين كان هذا الجيش الجرار من المخلوقات عندما كنت أبغى حياة شريفة ؟ . . . ولم أظفر بجواب . واندفعت مع التيار ومع شدته فقدت كل إحساس نبيل وبدأت صورة السعادة تتضاءل حتى أصبحت شوهاء كريهة . . .

أنى أراها الآن فى حرمان هؤلاء الرجال من الشيء الذى حرمونى منه . . . فى حرمانهم الهدوء والاستقرار . . . فى إجبارهم على تجرع غصص الحرمان والوحدة . .

هذه هى السعادة كما أراها . . . أنى أشعر انى مخلوقة شريدة . . . لا أهل لى ولا ولد . . وأرى أنه من واجبى أن أجعل الناس جميعاً مثلى . . . زملائى . . يحسون مثل الاحساس الذى أحسه . . .

إن فى استعباد الرجال سعادة مابعدها سعادة . . . يردن المتعة . . . ولكن واحداً منهم لايريد الزواج . . . حرمنى الحق الذى وهبتنى إياه الطبيعة . . فلا أقل من أن أحرمهم شتى حقوقهم . . .

وعلت الموسيقى مرة ثانية ... أنها تدعو هذه الثائرة إلى العمل فتركت « الباحثات » وأسرعت إلى المسرح لتشترك فى إحدى « النمر » الاستعراضية ...

« وتبادلت النساء نظرات الدهشة واستولى عليهن صمت غريب كن خلال لحظاته جادات فى البحث عن هذه الأفكار التى تسود عقول زميلاتهن من « الباحثات عن السعادة »

وتفرق الجمع وفى رأس كل منهن صورة تختلف عن الأخرى ... أنهن يبحثن وينقبن ولكن ...

أين السعادة ؟!



"السعادة ..."

تتحـــدث

اهتزت السعادة غضباً وقد آلمها أن تكون لها مثل هذه الصور فى النفوس ... وأرادت أن تتكلم .. أن تثور .. ولكن وزيرها الضاحك وقد أحس بما يساورها زادت ضحكته وراح يسألها

— هل لك فى صورة أخرى ...

— كفى .. فلا أريد أن أرى أكثر مما رأيت ...

وسكتت لحظة ...

لحظة ثارت لها عواصف الطبيعة فأظلم وجه العـالم وزمجرت الزوابع والعواصف فى البر والبحر وأرجف الناس فرقاً ورعبا وكادت القلوب أن تنخلع ..

السعادة غضبى ...

ووقف الأمل إلى جانبها يبتسم ابتسامته المشرقة العذبة وقال لها :

— لِمَ هذا ياعروس أحلام البشر ؟

— ألم تر صورى الغريبة عند هؤلاء الناس ؟!

— لهم العذر فيما فعلوا ... وفيما سيفعلون

وسارت السعادة نحو عرشها البللورى فاذا به معتم تنفر رؤياه القلوب . . . نقلت بصرها فيما كان يحوطها من أزاهير وورود فاذا بها ذابلة تناثرت وريقاتها النضرة ، وجفت عيدانها الرخوة . . . هتفت :

— ما لهذا الظلام يسود قاعة العرش ؟ . وما سر هذه الكآبة التى خيمت على كل شىء ؟ ! أحدث هذا لأنى شاهدت دنيا الناس ؟ !

وراح الأمل يضحك هادئاً . . . فزاد هذا من ثورتها وصاحت فيه

— أما زلت تضحك ؟

— قلوب عديدة ياصاحبة الجلالة أحوج ما تكون فى هذه اللحظة إلى إشراق ابتسامتى . . . حتى هـذا المكان الذى نحن فيه . . . مملكتنا العلوية . . . ألم تلاحظى هذا التغير . . . هذه الظلمة التى بدأت تنشر ألويتها السود على دنيانا الساطعة ! ! وورودك العبقة النضرة ذات الألوان الزاهية . . تساقطت أعياءاً . . . عرشك البللورى . . . العرش الساطع المتوهج بالنور . . . خلال لحظات سريعة أصبح معتما وفقد ميزاته . . . ليكاد الآن أن يتعادل ومقعد مهمل فى كوخ بعيد فى دنيا الناس . .

وتهالكت السعادة على مقعدها متعبة غاضبة ، ونقلت بصرها فاذا بكل شىء بدأ يتغير . . وتبدد الظلام شيئاً فشيئاً . . . وهزت السعادة رأسها وهى تنظر إلى الأمل :

— أهى ابتسامك التى بددت الظلمة ؟ ! أى سحر هذا ؟

— سحر ضعيف يفسح لمقدمك المتعالى يامولاتى . . .

— وما سر هذا التغير المفاجىء ؟

— غضبتك . . .

— ولكنى الآن أضحك . . .

– وهاهى ذى قد تفتحت الأزاهير وفاح شذى الورود .. الضوء ينتشر على الدنيا وهاهو ذا عرشك يعود إليه بريقه ...

– حقاً أننى أضحك سخرية من هذا العالم ومن فيه ... ياللمساكين !! لقد صورنى كل منهم فى الوضع الذى أحبنى أن أكون عليه . يالهؤلاء الناس .. إن ظلى فى كل قلب ولكن .. الأحاسيس الحيوانية التى تضطرم بقلوبهم تلقى بشعاعى إلى ركن سحيق لا أبين فيه ... أنا فى كل قلب ولكنهم هم الذين يباعدون بينى وبينهم ... يامعاشر الناس أنكم عبثاً تبحثون عنى .. إن بحثتم فى ظلمات قلوبكم وطهرتموها تجدون صورتى منطبعة هناك وقد أوشك أن يرديها الظلام ويقضى عليها .. أيها الغنى الباحث عنى بين أكداس الذهب . أنس بريقه لحظة ونقل عينيك تجدنى فى هدوء تحسه أو طمأنينة تشملك ... أيها الفقير الناقم على دنياه والذى طالت به الآماد فى ارتقابى . أنا معك فى كل مكان نخفف من غلوائك وسخطك تجدنى فى القناعة والرضا والاستسلام .. أيها الناس ارتفعوا عن منازل الحيوانات والضوارى وفكروا بعقول بشرية تضع أمامها ناموس الحياة وقوانين الأديان تجدونى معكم دائماً .. ولكنكم تقتلونى كل يوم ألف مرة وتلصقون بى أبشع الأوصاف وأشنع التهم ... لك الويل أيها الانسان الذى يرانى فى مواطن الفجور والشراب حيث يتسلط الشيطان على نفوسكم ... ما أقبحك امرأة تجدينى فى تهتكك وفجورك ونسيانك العرف واحتقارك للتقاليد .. ويلك أيها الغنى الذى يرانى فى إذلال الناس وجمع الذهب لفاسق يستعبد من بعده العالمين ويذلهم .. وأنت أيها اللعين يامن ترانى فى الحقد والحسد .. لست أنا ضالتك ولكنك تبحث عن الموت والدمار .. لك الله يا إسمى المقدس الذى وطئته أقدام البشر القساة ومرغوه فى الأوحال وأطلقوا عليه

مسميات غريبة . . أنا . . أنا السعادة وما أجمل وقعك يا إسمى الحبيب فى قلب عرفك . . . أنا البساطة مجسمة والهدوء الذى يغمر النفس فى ساعات الثورة . . . أنا كل شىء حبيب ومحبوب ومحبب . . . أنا . . أنا المظلومة من البشر والمهجورة حبيسة الشهوات والرغبات الشريرة القاسية . . أنا . . أنا الغانية الجميلة تتبدى صورتى للعيون كل صباح وكل مساء . . ولكنهم يتجاهلونى وهم متكالبون على الدنيا وزخارفها . . . وأنت أيها الأمل . . تعال بنا بعيداً . . لنتركهم أنا وأنت ولنرى بعد ذلك ما يكون حالهم . . . أنهم يبحثون عنى وأنت دافعهم إلى ذلك فاتركهم . . أننا بذلك نلقنهم الدرس الذى لن ينسوه . . سيعودون إلى دنيا البشر أذلاء وسينسون هذه الوحشية التى طغت على عواطفهم وشعورهم . . تعال بنا إلى المروج فنزيدها بهاء وسحراً . . سنستيقظ مع صادحات الطير ونكحل عيوننا بجمال الطبيعة حيث نعيش فى جو ملائكى مقدس . . . أى أعباء ثقال نحملها عن هؤلاء الناس ياوزيرى المحبوب ؟ !

— ولمن نترك الميدان يامولاتى ؟ ! منذ لحظة عبس وجهك المشرق فاعتورت الدنيا الظلمة وذبلت الأزاهير وتساقطت الورود وأضحى كل شىء كئيباً . . تصورى أن هذا حدث وأنت عابسة . . فماذا يحدث إذا تركناهم ؟ ! أنك بذلك تدفعين العالم دفعة قاسية إلى نهاية الجرف ليفنى فى الهوة عن آخره . . لا . . لا يامولاتى فأنت أكثر من ذلك رحمة وحناناً . . .

— إذاً . . .

— لنبق . . .

— وهذه الحواجز التى تحوط قصرى وتسوره ؟

— سأعلمهم كيف يتخلصون منها

ـ وثوا أنب نفوسهم ؟ !

ـ سأفعل المعجزات من أجل رضاك .. أنظرى هناك .. ثلاثة يتقدمون .. يحملون الورود النـدية ووجوههم مشرقة تتلألأ ... هاهم أولاء يتخطون الأسوار .. أى قدرة غريبة .. أنهم يقتربون من القصر ..

ـ أريد رؤياهم هؤلاء الذين عرفونى فأتو من أقرب طريق .. لابد وأن بينى وبينهم صلة .. أدخلهم ..

وصفق الأمل بيديه يأمر بفتح الأبواب على مصاريعها وأن يدخل الضيوف الثلاثة ...

ولم تمض لحظة حتى كانوا أمامها ..

واعتدلت السعادة على عرشها البللورى وشعت على وجههـا ابتسامة عذبة وهى تسألهم :

ـ من أنتم

فتقدم أولهم :

ـ أنا الايمان ؟ !

ـ الايمان ! ! مرحباً بك .. وأنت ياصاحب الأردية الفضفاضة الزاهية .. من تـكون ؟ !

ـ الحب ياصاحبة الجلالة ..

وتقدم الثالث وهو يحنى رأسه يقول :

ـ أنا المال يامولاتى ...

ـ الايمان .. والحب .. والمال ! ! ياعجائب الدنيا ! ! كيف اتفق ثلاثتكم ؟ وما سر مقدمكم ؟ !

ـ لـكل منا رغبة يود مصارحتك بها ..

ـــ رغبة الإيمان تحققها قداسته وثباته ، ورغبـة الحب محققة دون شك فهو صناع العجائب ، ورغبة المال يحققها سحر بريقه . . .

ـــ تبالغين ياصاحبة الجلالة . .

ـــ بل هو الواقع ياضيوفى الأعزاء . . . كلى آذان . . . ويسرنى أن أعرف ماتريدون . . . ألـكم أنتم الآخرون مطالب . . . الايمان . . والحب . . والمال . . ما أجمل صوركم عندما تجتمعون

فقال الأمل : لايمكن أن تجتمع و تتفق إلا بين يديك يامولاتى . . .

ـــ وفى دنيا الناس . . ؟ !

ـــ لايطيق أحدهم البقاء إذا ظهر الآخر . .

ـــ وماذا تبغون منى . . أبرمتم بدنيا الناس أم ماذا حدث . . .

فقالوا ثلاثتهم :

ـــ لـكل منا شكوى يريد عرضها عليك ياصاحبة الجلالة . . .

ـــ وبمن أبدأ سماعه . .

فوقف الايمان . . وتقدم نحوها المال وسبقه إليها الحب . . . فقالت :

ـــ أتركك لحظة أيها الحب . . . وأنت أيها المال . . . أنا مصغية للإيمان . . وجهك يتألق بنور ملائـكى . . تكلم يادعامة الـكون . . .

ـــ مولاتى . . . لست أدرى من أين أبدأ الحديث . . . ولا أعرف ماذا أقول إذا كان هناك من يسمع لطريد . . . أنا الايمان يامولاتى . . . أنا صاحب الاسم المقـــدس والتاج الذى يزين رؤوس البشر يوم البعث . . . أنا الشعلة المتوهجة تضىء القلوب وتسمو بالنفوس . . . أنا شريك أصحاب النفوس العالية ومن ذاقوا فى سبيل الأحتفاظ بى

القسوة والظـــلم والتشريد . . أنا الذى رفعت النبيين والرسل ومن تبعوهم ، وكونت منهم وهم النفر القليل جماعات كثيرة دان لها العالم وخضع . . أنا العزيز النفس جئت أتوسل إليك وأعرض عليك شكاتى من دنيا الناس . . أنا الآن طريد عالم غلبنى فيه الطمع والخداع والنفاق وصرعتنى الرغائب والشهوات وحطمتنى زينة الحيـاة الدنيا وركنوا إلى المال من دونى . . واطمأنوا إلى الحب وحده على مختلف صوره . . ونبذوا منهم من ركن إلىّ وزهد الدنيا وزخارفها وجعلوا منـه موضع عبثهم وسخريتهم . . . أنا فى حيرة يامولاتى أسائل نفسى معها . . ماذا عسانى مستطيع أن أفعل . . .

— ياسخرية القدر ؟ ! الإيمان تزعزع ثباته أمام تـكالب النـاس على الشهوات ؟ !

— مولاتى . . تعالى معى إلى دنيا النـاس كى ترى عيونهم وتحس قلوبهم فيعرفون أن السعادة فى الإيمان . . كى يثقوا بى ويهرعوا إلى . . . كى يبصروا طريق النور الذى أرشدهم نحوه

— أيها الإيمان . . ليست هـذه دنياك . . وليس هنا متاعك . . وإن لك لحياة أخرى حيث يبـــدو جمالك ويسطع نورك مظللا من تبعك من الصالحين . . هناك أصحبك . . وهناك ألازمك

— ولكن . . .

وأشارت بيدها فسكت . . ونظرت إلى المال تسأله :

— وأنت أيها المال . . . هل تركك الناس فأتيت تشكوهم . . .

— وكيف ينسون اكسير الحياة . . .إنما جئت إليك متظلماً من الناس . . .

— ولِمَ ؟ !

— لأنهم جعلونى وسيلة نيل المستحيل ، واستخدمونى فى غير ما وجدت من أجله . . ألصقوا بى يامولاتى أبشع الأوصاف . . هذا رجل جعل منى عبداً لأغراضه ففرق بين زوج وزوجته وأغوى ملاكا وحرضه على السقوط . . وآخر دفع ببرىء إلى الهلاك وجعل سفاكا يهدر دماً حرم الله سفكه . . وآخر ألقى بى فى غيابات الخزائن أقاسى ظلماتها ولم يفرج بى كربة ولا أغاث ملهوفاً . . قضت مضاجعى صرخات البؤساء وعويل اليتامى وتوسلات من عضهم الفقر بأنيابه . . ومن جمعونى سدوا آذانهم عن السماع . . . أنا المال الذى تخفق له القلوب وتشقى النفوس فى سبيله . . فماذا أفعل . . والحب أيضاً . . أتى أشكوه إليك . . فهو يهزأ بى ويجعل الناس يعرضون عنى ويلصق بى اتهامات ليست فىَّ . . وبدأ الناس يلعنون المال والمال برىء مما نسبوه إليه . .

— وما الذى أفعله لك . . . أنك لاتحسن اختيار من تركن إليهم . . .

— مولاتى . . تعالى معى إلى دنيا الناس . . كى يروا أن السعادة فى المال .. وليست فى أى شىء آخر سواه . . .

— تعقل أيها المال . . . هذه دنياك . . . فارتع فيها كما يحلو لك واختر من الناس من هم فى حاجة إليك كى تحيا فى هدوء . . تنقل بين الناس ولا تجعل لأحد سلطان عليك . . . اهبط على الفقير حيناً وسدد للمحتاج حاجياته . . . إذهب إلى اليائس وبدد يأسه . . . وامنح الحزين بسمة منك تغمره بالفرح والغبطة . . تنقل بين الجميع . . ولا تركن إلى من يستعين بك على الدنايا وتكون سبباً فى فساد عالم تود إصلاحه . . .

فصاح : — ولكن . . .

والتفتت إلى الحب وقالت :

ــ وأنت؟!

ــ أنى أشكوا قداستى التى أهينت وحرمانى التى احتقروها ولم يرعها إنسان . . . لقد آذانى المال وحطم كبريائى . . وانقادت الناس إليه . . أنا الذى تشعبت فى القلوب وارتفع إسمى ولازمه الخلود . . . نسونى واحتقروا صفاتى . . . يعبثون باسمى لينالوا من وراءه مايبغون . . . يفرقوا بين الأسر باسم الحب . . . ويعبثوا بالعذارى باسم الحب . . . ويحطموا التقاليد باسم الحب . . ويقسمون بالحب وهم كاذبون . . . فهل يمكن أن تأتى معى إلى دنياهم كى تطهر قلوبهم وترى عيونهم كنهى الصحيح . . . وليعلموا أن السعادة فى الحب الصادق . . الحب الذى لاتبدده المادة . . ولا تشوبه المطامع . . .

ــ لك أن تبصر قبل أن تسدد سهامك على القلوب أيها الحب . . . وأن تتخير من يتبعوك دون أن تسبب لهم مايشقيهم ، وبجعلهم يملوا أغانيك العذبة . . ولا تندفع كالمجنون نحو هدف دون الآخر . . كن هادئاً وأغمر القلوب بأغانيك العُذاب . . وردد ألحان الوفاء والمحبة . . ولا تجعل للمال طريقاً إلى القلوب التى أنت سيد عليها . . . أما أنا . . .

وصاح الكل :

ــ إن قضيتنا المعروضة قضية البشرية الجائعة . . ونحن الضحايا التى يقدمونها فى كل وقت قرباناً لرغائبهم وشهواتهم . . . الأمر لك الآن ياصاحبة الجلالة فانظرى ماذا تأمرين . . .

واتكأت صاحبة الجلالة فاتنة الأجيال على صولجانها ناظرة إلى وزيرها تارة وإلى من أتوها شاكين تارة أخرى وانفرجت شفتاها تقول :

ـــ وأخيراً . . . ماذا تريدون ؟ !

وفى حرارة قال ثلاثتهم :

ـــ تتركين عالمك الخيالى هذا وتهبطين درجات عرشك البللورى مع من تختيرين منا فى طريقك إلى دنيا الناس . . .

والتفتت إلى الأمل تسأله :

ـــ ما الذى تراه ياوزيرى البسّام ؟ !

ـــ تلك كانت رغبتى منذ أمد بعيد . . أهبطى إلى دنيا الناس معى وعيشى بينهم وداخلى قلوب الجميع وأجعليهم يعرفوك ويتلمسوك ولا يحلمون بك . بل يرونك فى الحقيقة والواقع . . . فهذا حلمى الذى أتمنى تحقيقه . .

ـــ وبعد . . . ؟ !

وسكتوا . . . فكل يريدها لنفسه . . وأخيراً قالت هى :

ـــ قلتم أنكم تريدون أن أعيش بين الناس ؟ ! وأن أهبط إلى دنياهم بعد أن أتخير واحد منكم . ولكن . . لكل منكم صورة أتحلى بها . . .

وأشارت بيدها إلى الأمل وهى تقول :

ـــ هاكم رسولى الأكبر . . . إنه وزيرى الضاحك . . الأمل . . . رسولى إلى القلوب . . ثم أنتم . . وأنكم لو اجتمعتم لإنسان واحد وهذا مستحيل . . فلن تكونوا له صورة صحيحة للسعادة . . . أنظروا هذا التاج الذى يلمع فوق رأسى . . إنه أنت أيها الايمان . . النور الذى أسير على هداه . . . ثم هذا الرداء الفضفاض الزاهى الذى نسجته من منتثر النجوم ولامع الشموس . . إنه أنت أيها المال . . ثم أخيراً أنظروا

صولجانى هذا . . على رأسه قلب رنان الدقات يحوى بمختلف العواطف والأحاسيس وموسيقاه خالدة . . . إنه أنتم أيها الحب . . أننى أتحلى بثلاثتكم . . أما أنا فشىء آخر . . معنى أسمى وأكثر رفعة مما تظنون . . فمن منكم أهبط به دنيا الناس . . أقسم لكم أن تحقيق هذه الخرافة من المحال . . فكيف أهبط إلى دنيا الفناء وأنا صورة الخلود . . . أنا من الكبر والعظمة بحيث لايستطيع قلب انسان أن يسعنى . . نعم من العسير أن تحتملنى قلوبهم . إن الدهشة تعبث بكم ؟ وكأنى بهذا الحديث الذى أسوقه إليكم لغز من الألغاز . . سأشرح لكم كل شىء . . . إن وجودى فى القلوب مستحيل . . وليس معنى هذا أن أحرمهم أمانيهم وأحلامهم . . ولكنى أبعث إليهم بظلى وصورى المختلفة الزاهية . . . وهى أنتم . . نعم . . بكم أنتم أطالع دنيا البشر فيرانى الناس فيكم ويسعون وراءكم ياطوق الذهبية أما أنا . . أنا صنو الخلود وصفته . . . ولى دنيا أنتظر فيها هؤلاء الناس . . . دنيا لاقيود فيها ولا حواجز . . دنيا لايعترف أهلوها بالحقد والحسد والكراهية . . . دنيا لايسعى فيها الانسان لأكل لحم أخيه ميتا ولا المرأة تسخر من أختها . . . دنيا يسودها قانون الهدوء والاستقرار ولا تعترف بالتكالب والتزاحم . .

« هناك . . فى هذا العالم المجرد من المطامع والأهواء والرغائب سيجدوننى بروحى وحسى وحقيقتى . . أجل هناك فى العالم الآخر حيث تسود شريعة الأخاء والمساواة والحب الصحيح . . حيث تفنى الرغبات وتبيد . . فلاحاجة لمال ولارغبة فى حب كهذا الذى يسود دنيا الناس . .

« هناك الخلود فى كل شى . . الرفعة . . السمو . . هناك سيروننى وسيعرفوننى . . أما الآن فليكتفوا بطوفى . . باشكالى المتغيرة . . . بشتى الصور التى يخلقونها لى . . بكم أنتم . . ولتغمرهم القناعة . . .

وسألوها جميعاً :

ـــ ومعنى هذا أن البحث عنك يكون فى . . .

وقاطعتهم قائلة :

ـــ فى دنيا الخلود . . . هناك مستقرى وهناك أعيش . . البشرية فانية ومن العبث أن يقترن بهم من كان الخلود صفته . . . إذا تجردت أجسادهم من الحيوانية واستحالوا بعـــد انتقالهم للدار الخالدة أرواحاً نورانية . سأسعى أنا إليهم وأبحث عنهم بدل بحثهم الطويل عنى ومحاولة معرفة حقيقتى . . .

« والآن . . . لقد طال بالركب ومن فيه البحث عنى . . عن السعادة . . فعودوا إليهم . . وتفرقوا . . وإنهم بكم لقانعون . . علموهم ماقلت وارشدوهم إلى ظلالى العديدة ومنوهم بلقائى الحقيقى عندما يتجردون من دنيا المادة . . . سأسترشد بهم بالإيمان . . فسوف يزين رءوس من وثقوا به وأسلموا أنفسهم إليه . .

« عودوا إلى من طال بهم أمد « البحث عن السعادة » فارشدوهم إلى مكانى الحقيقى وعرفوهم السعادة كما ينبغى أن يعرفوها . . . .

***

وخرجوا من عندها . . . وضحكت السعاده وتعالت الضحكات ورنت أصداؤها فى جوانب الدنيا بنشيد الهناءة وعاد الركب الذى لم يكل من المسير فى طريقه مرة أخرى بعد أن عرف من فيه الطريق الحق إلى . . . السعادة . . .

مكتب الصحافة الدولى

لمؤسسته

رشنيه أمين قراعه

١ ميدان سليمان باشا ت ٥٥٧١٧

أهم أعمال المكتب

قسم الترجمة والتحرير :

١ — يقوم المكتب بتحرير مقالات اجتماعية وأدبية وسينمائية وتموين الصحف بها ، وتحرير المجلات والجرائد التى يعهد إليه بها

٢ — بالمكتب قسم خاص بترجمة أهم المقالات التى تنشر فى الصحف الأجنبية بجميع لغاتها ، وكذا ترجمة الروايات العالمية الكبرى وما يطلب منه ترجمته إلى جميع اللغات

قسم المراسلات :

١ — يقوم المكتب بتموين الصحف فى جميع البلاد الشرقية بأهم الأخبار الداخلية والخارجية

٢ — يعمل على ربط أواصر الصداقة الأدبية بين ثقافتى الشرق والغرب وينقل لقراء العربية خلاصة الرقى العلمى والأدبى من سائر أمم العالم

قسم النشر والاعلان :

١ — يعنى المكتب بتنظيم الدعايات على مختلف أنواعها فى الصحف الكبرى والمجلات المصرية والأوروبية والأميركية

٢ – يقوم المكتب بوضع التصميمات الخاصة بالاعلان على أحدث ماوصل إليه فن النشر والاعلان

٣ – المكتب قسم خاص للحفر والزنكوغراف بخطوط غاية فى الاتقان

قسم الاستعلامات :

١ – المكتب على إتصال بمكاتب الاستعلامات الدولية ويمكنه أن يقوم بالخدمات العامة والخاصة فى شتى نواحى الاستعلام

ويقوم فوق ذلك بأول محاولة من نوعها فى تاريخ الجهاد الفكرى المصرى بإنشاء المكتبة النسائية التى تشرف المرأة المصرية وتضع اسمها فى مصاف الخلود

وتساهم مديرة المكتب فى المكتبة النسائية وتقدم للعالم العربى ثمرة بحوثها فى سلسلة مؤلفات تظهر كالآتى :

« نساء محمد »

أول بحث من نوعه يتحدث عن نساء النبى صلى الله عليه وسلم . . صفحات رائعة فى وصف قصصى جذاب عن النبي الكامل وزوجاته المطهرات

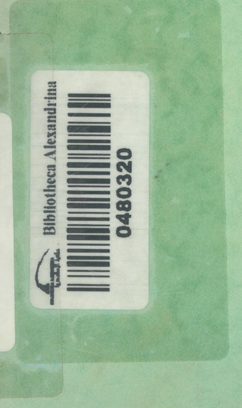
« سيدة الملك الفاطمية »

قصة عاطفية تتحدث عن فترة الجنون فى حياة الخليفة الفيلسوف الحاكم بأمر الله والصراع بينه وبين أخته فى سبيل نشر تعاليم مذهبه وتعاليم دينه الخرافى . .

« نساء »

عرض تاريخى قصصى يتحدث عن شهيرات نساء العالم منذ فجر التاريخ الأول إلى العصور الحديثة

محتويات الكتاب



مطبعة سعد مصر بالفجالة رقم ٧٢